2561
51A

فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

تشرح حالة الاسلام من اوَّل ظهوره
الى فتوح العراق والشام مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم واول اسلامهم ووصف
أخلاقهم وازيائهم وسائر احوالهم



تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال



الجزء الأوَّل

(الطبعة الثانية)

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٣

فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من اوّل ظهوره
الى فتوح العراق والشام مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم واول اسلامهم ووصف
أخلاقهم وازيائهم وسائر احوالهم .



تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال



الجزء الأوّل

(الطبعة الثانية)

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٣

مقدمة

﴿ فتاة غسان ﴾

هذه هي الرواية السادسة من رواياتنا التاريخية ولكنها تمتاز عنها كلها بانها الحلقة الاولى من سلسلة روايات متتابعة تتضمن تاريخ الاسلام من اول ظهوره الى الآن نشرناها تباعاً في « الهلال » فهذه الرواية الاولى منها وتتضمن الحوادث التي وقعت ما بين ظهور الاسلام وفتح الشام

وقد نشرناها للمرة الاولى في السنة الخامسة من الهلال ثم نشرناها على حدة سنة ١٨٩٧ فنفذت نسخها فاعدنا طبعها ثانية في هذا العام · وقد صدر بعدها من سلسلة روايات التاريخ الاسلامي حتى الآن ست حلقات وهي :

ارمانوسة المصرية	غادة كربلاء
عذراء قريش	الحجاج بن يوسف
١٧ رمضان	فتح الاندلس

وهي تشرح اهم حوادث التاريخ الاسلامي من ظهوره الى فتح الاندلس سنة ٩٢ هـ وسنصدر حلقات أخرى تشرح ما يلي من الحوادث المهمة في الدولة الاموية فالعباسية وغيرها والاتكال على الله



الفصل الأوّل

ملوك غسّان

بنو غسان عرب متنصرة كانوا عمالاً لقياصرة الرّوم في الشام وأصلهم يمنيون من بني قحطان هاجروا اليمن بعد سيل العرم · والعرم سدٌّ كان بجوار مدينة مأرب باليمن يعرف بسد مأرب تهدّم نحو القرن الثاني للميلاد وطافت مياههُ على ماجاوره من البلاد والقرى فقلّ سبيل الناس الى الاستقاء فنزح أهلها التماساً للرزق ومنهم الغساسنة نزلوا ضواحي الشام بقرب ماء اسمهُ غسان فنسبوا اليه (١) واعتنقوا الديانة المسيحية ويسميهم مؤرخو المسلمين العرب المتنصرة ويعرفون بملوك غسان · واوّل من عُرف منهم جفنة عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعده بنسله فحكم منهم نحو ٢٧ ملكاً آخرهم جبلة بن الايهم وفي أيامه ظهر الاسلام وفتحت الشام على عهد الخليفة أبي بكر الصديق وانقرضت دولتهم كما سترى · ولكن منهم الآن بقية في ضواحي البلقاء واليرموك وحمص (٢)

ومن العرب المتنصرة ملوك الحيرة ويقال لهم المناذرة (جمع المنذر) أو الملوك اللخميون نسبة الى لخم بن عدي وهم من عرب اليمن نزحوا ايضاً بعد السيل وقاموا في العراق وكانوا عمالاً للفرس هناك ونسبتهم الى ملوك الفرس كنسبة ملوك غسان الى قياصرة الرّوم اي ان كلاً من الفريقين كانوا عمالاً لاحدى هاتين الدولتين

(١) ابو الفدا (٢) نهاية الارب في معرفة قبائل العرب

فالغسانيون كانوا يقيمون في حوران والبلقاء وما جاورهما وكانوا اشبه شيء بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية تحت شروط معلومة فيمدون الرومانيين بالجند من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصاً في حروبهم مع الفرس (١)

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان الفرس في الشرق والرومان في الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما فيستعين الفرس بالمناذرة و يستعين قياصرة الروم بالغساسنة فتولد بين تينك القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الابناء عن الآباء وكثيراً ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى يكاد يبيد احدهما الآخر .

والنزاع بين الفرس والروم قديم وكأنه طبيعي بين المشرق والمغرب فقد كانت الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرومان . وكانت عاصمة الفرس المداين بالعراق وعاصمة الرومان القسطنطينية فقضوا اجيالاً متوالية وهم بين حرب وصلح تارة يجردون الجند وطوراً يعقدون الصلح . ففي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد كان ملك الفرس كسرى برويز وامبراطور الروم موريسيوس (والعرب تسميه موريقي) فثارت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت الى خلع كسرى فالتجأ الى موريسيوس فساعدهُ واعادهُ الى ملكهِ وكان ذلك داعياً الى مصالحة وهدنة . وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسيوس هذا قتله فوكاس (فوقا) وتولى هو الملك مكانه وكان على الفرس كسرى برويز المذكور وكان صهراً لموريسيوس فقد تزوج

(١) تاريخ العرب لنويل ديفرجة

ابنته ماريا . فلما سمع بقتل حميه اعتبر معاهدة الصلح بينهما ملغاة وحمل بجيشه على القسطنطينية متظاهراً بالانتقام من قاتل حميه وهو يضمر الرغبة في الاستيلاء على مملكة الرُّوم فظلت القسطنطينية في أثناء حكم هذا الامبراطور في حصار دائم فملَّ الناس حكومته فثاروا عليه وارادوا خلعهُ فاستدعوا هراكليوس (هرقل) ابن والي القيروان عن الرُّوم فجاء سنة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخل القسطنطينية عنوة وقتل فوقا وتولى مكانه والفرس قد قاموا على الرُّوم قومة واحدة فكان كسرى محاصراً القسطنطينية بنفسه وكان قائد من قواده محاصراً بيت المقدس وآخر محاصراً الاسكندرية والناس يفرُّون من وجه الفرس من كل صوب فلم تاتِ السنة الخامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على القدس وفي الثامنة (سنة ٦١٨) دخلوا الاسكندرية واستولوا على مصر السفلى فلاقوا من اهل الشام ومصر ترحاباً وارتياحاً لارتباطهم معهم ومع جندهم اللخميين برابطة الوطن الشرقي والعوائد الشرقية فلبثوا تحت نيرهم عشر سنوات . ثم اشتغل الفرس بعصيان بعض ولا يأتهم فضعف أمرهم فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجنده فاخرجهم من الشام و مصر واعاد المملكتين الى حوزة الرُّوم ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب حتى جاء المسلمون في اوائل الهجرة مفتتحين وهو لا يزال في سوريا وحصونه لا تزال متهدمة وجيوشه مبعثرة وسائر قواته متضعضعة (١)

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالي الرُّوماني المقيم بدمشق بامر امبراطور المملكة الرُّومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية فترد الاوامر

(١) صموئيل شارب

الامبراطورية من الامبراطور الى والي دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان

وكان كرسي حكومة الغسانيين تارة في عمان بالبلقاء وطوراً في تدمر واحياناً في الجولان وتارة في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد

ففي نحو السنة السابعة للهجرة (٦٢٩ م) كان على الغسانيين في الشام ملكان في وقت واحد أحدهما الحارث بن ابي شمر والآخر جبلة بن الايهم[1] وكان الحارث يقيم في بصرى وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها اسكي شام أي الشام القديمة[2] وسيأتي ذكرها. وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذي نزل عنده ابو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الاسلامية يوم قدموا الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الاسلامية بضع وعشرين سنة[3]

واما جبلة فهو ابن عم الحارث المشار اليه وكان يقيم بالبلقاء

الفصل الثاني

﴿ فتاة غسان ﴾

وكان لجبلة هذا ابنة بارعة في الجمال مع تعقل ورزانة اسمها هند ربيت منذ حداثتها على ظهور الخيل فشبت مولعة بركوبها ومجاراة أعاظم الفرسان في حلبة السباق حتى طار صيتها في القبائل واصبحت حديث القوم ومضرب امثالهم قبل ان بلغت العشرين من عمرها

وكانت تقيم غالباً في صرح الغدير وهو قصر بديع شاهق بناه ثعلبة

(١) الاغاني جزء ١٤ (٢) دائرة المعارف (٣) ابن الاثير

بن عمرو أحد ملوك غسان في القرن الرابع للميلاد (١) في اطراف حوران مما يلي البلقاء من حجارة ضخمة فيه غرف واسعة تحدق بها الحدائق والبساتين تجري من تحتها الجداول والسواقي معظم ايام السنة

وكان بجوار القصر سهل واسع الارجاء خصصوه لسباق الخيل في مواقيت معينة من السنة ينخرط في سلكه أمهر فرسان البلقاء وحوران وقد يقصده اهل البلاد الاخرى . وكانت هند تنزل السباق بنفسها وكثيرًا ما احرزت قصب السبق . وكان ذلك السباق تحت رعاية والدها جبلة فيخلع على السابقين خلعًا يعينها قبل الشروع في السباق فمن نال قصب السبق احتفلوا بالباسه الخلعة في مساء يوم السباق احتفالاً يحضره الشعراء ينظمون القصائد في مدح السابق ثم تحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق . فاذا جاء يوم السباق تقاطر الفرسان من انحاء الشام وحوران والبلقاء وغيرها يتسابقون الى احراز تلك الجائزة

ففي سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) بث جبلة المنادين ينبئون الناس بسباق ذلك الفصل وهو فصل الربيع وعين له الجائزة درعًا سليمانية كاملة وامر باعداد حاجيات الاحتفال بجوار صرح الغدير حتى اذا دنا اليوم المعين تقاطر الفرسان الى تلك الساحة زرافات ووحدانًا بخيلهم وسياسهم وفيهم جماعة كبيرة من الامراء الغسانيين وغيرهم بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبهًا بالروم

ففي صباح يوم الموعد كانت الخيول مصفوفة بجانب السهل صفوفًا

(١) ياقوت

غير منتظمة والخيام منصوبة ليأوي اليها الفرسان اثناء السباق في صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر ارضه مكسوة بالبسط والأسجاد وقد علقت تلك الدرع في بعض أعمدته ليراها الفرسان و يشتاقوا الى احرازها

فلما اشرقت الغزالة واعدت الخيول شاعت اعين الفرسان نحو القصر في انتظار هند وابيها فاذا بالابواب قد فتحت وخرج جبلة وكان قد جاء من مساء الامس و بات في القصر استعداداً لحضور السباق فلما أُنبيء الناس بخروجه تأدبوا في موقفهم فمرّ بالحديقة ثم فتحت ابوابها فخرج جبلة وحاشيته وعلى رأسه تاج مرصع تنعكس أشعة الشمس عن جواهره فتبهر الابصار[1] وكان طويل القامة اصهب(اي يخالط بياض وجهه حمرة)ذوسبال وعثنون[2] عليه ازار من الديباج المزركش يغطي اثوابه ويديه ويجر وراءه · فمشى والخدم تقود افراسه وراءه معقودة اذنابها وعليها القلائد من الذهب والفضة حتى جاء فسطاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر محلى بالذهب وساقوا خيلة الى مرابطها في خيمة خاصة بها ووقف في باب الفسطاط الحاجب وراءه جماعة من الحاشية بعضهم يحمل سيف جبلة وآخر يحمل قوسه ولم يكد يستوي على سريره حتى استأذن الشعراء بالدخول عليه فأذن لبعضهم فدخلوا والقوا التحية وتربعوا على البساط في ارض الفسطاط فلما رآهم جبلة تذكر حساناً ابن ثابت وكان يختلف اليه كثيراً و يمتدحه فيصله بالهبات الوافرة[1] ولكن حساناً لما اعتنق الاسلام أقام في المدينة

(١) ابن الاثير (٢) الاغاني جزء ٢

وانقطع عن الغساسنة وغيرهم

وبعد هنيهة خرجت هند بنت جبلة من قصرها تحف بها جواريها وقد يعرف الناس خروجها برائحة طيبها قبل ان يروها فمرّت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها واعين الفرسان شائعة نحوها واكثرهم انما يأتي السباق ليتمتع بنظرة منها . فمشت من باب الحديقة مشية تدل على صحة ورزانة وكانت ممشوقة القوام ممتلئة الجسم مستديرة الوجه قمحية اللون مشربة بالحمرة سوداء العينين مع كحل طبيعي لا يكاد يصدق الناظر اليها الاَّ انها مكحلة بالاثمد . وكان شعرها اسود مضفوراً قد ارسلت ضفائره خصلة واحدة على ظهرها وفي اطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى وفي أذنيها قرطان في كل منهما لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجاً صغيراً مرصعاً وضعته مائلاً نحو اليمين . وفي عنقها عقد من المرجان وفي أحد معصميها دملج من الذهب عريض مرصع بالياقوت وفي اصابعها الخواتم من العقيق والزمرد وقد أرخت من كتفها رداء حريرياً مخططاً بالوان بديعة يغطيها الى الرسغ فلا يظهر من اثوابها الاَّ اسفل الحذاء . فتخلف بعض جواريها في الحديقة ورافقتها اثنتان منهنّ الى الفسطاط وعيون الناس شاخصة اليها عن بعد وهي تنظر اليهم بطرف عينها حياء ورفعة حتى دخلت الفسطاط فرحب والدها بها واجلسها الى جانبه وكان كثير الولع بها حتي تسلطت على عقله ورأيه وكثيراً ما كان يستشيرها في اموره . ثم وقف الاتباع والخدم خارج الفسطاط ومعهنّ خادمتاها وكان مقعد جبلة وهند هناك بحيث يشرفان

(١) الاغاني جزء ١٤ و٢

على ساحة السباق و يريان المتسابقين في اوّل الشوط

ثم سمعوا جلبة وقيل ان ثعلبة بن الحارث بن أبي شمر صاحب بصرى قد جاء بحاشيته فلما سمعت هند بقدومه غلب عليها الانقباض حتى كاد يظهر على وجهها . أما جبلة فنهض عن سريره الى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان ثعلبة شاباً قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والأُذنين ليس عليه من مهابة الملوك الاّ ملابسه الفاخرة فقد كان لابساً قباء من الحرير مزركشاً يجرُّ وراءه على عادة الرُّومان وسيفه أَعقف مرصع يتدلى من حمائله الى يسارهِ وقد اوقف طرفي شاربيه انفة وكبراً واعتداداً بمنصب والده

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة و يزعمون انهما لا بدَّ من تزوجهما نظراً لما بينهما من النسبة والنسب . ولكن ذلك لم يخرج الى حيز الوجود ولا تخاطب الوالدان بشأنه . على ان ثعلبة كان كثير الاعتداد بنفسه وربما حدثته خيلاؤه ان يترفع عن هند لو خوطب بشأنها . اما هي فكانت خالية الذهن من أمر الزواج ولكنها كانت تستنكف من اخلاق ابن عمها ولا تميل اليه ولولا رابطة القرابة ما خاطبته ولا جالسته مطلقاً

فلما وصل ثعلبة استقبلهُ جبلة وعانقهُ ورحب به وادخله الفسطاط واجلسه على سرير بجانب سريره واخذ يسأله عن والده وسبب تخلفه عن ذلك السباق فاعتذر عنه انه في شاغل خصوصي حال بينه و بين ما يريد وكان جبلة انما يكرم ثعلبة اكراماً لمنزلة والده ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم

أما هند فسلمت على ثعلبة سلاماً اعتيادياً وجلست تتشاغل بالتفرج بمنظر ذلك السهل الواسع ومايترا ى وراءه من الجبال وتتظاهر انها مهتمة بمنظر الخيول المتزاحمة هناك

أما ثعلبة فكان يخاطب عمه وعيناه على هند لا لحبه لها بل رغبة في اعجابها به وهي كلما التمس اعجابها زادته ازدراء . فلما اتم حديثه مع عمه تحوّل نحوها فسألها عن عزمها هذه المرة على النزول في ساحة السباق فاجابت وهي تنظر الى الميدان انها لا تنوي النزول الآن ولكنها ربما نزلت اذا رأت ما يشوق الى ذلك

فلما اقترب الضحى خرج بعض امراء جبلة واخذوا يهيئون معدات السباق ويرتبونها فنصبوا حبلاً يقف الفرسان عنده اذا عزموا على السباق فيكونون صفاً واحداً على استواء واحد ثم تناول احدهم قصبة طويلة اعدت لذلك اليوم وسار بها الى آخر الساحة فصبها هناك فمن سبق قلعها واخذها ليعلم الحاضرون انه السابق من غير نزاع فيقال لمن اقتلع تلك القصبة انه أحرز قصب السبق(1)

الفصل الثالث

﴿ السباق ﴾

فلما تمت المعدات على هذه الصورة نودي في الناس ان يتهيأوا للسباق فركبوا جميعاً وجاؤوا واحداً واحداً يلقون التحية على ملكهم جبلة فاذا وصل

(1) صناجة الطرب

احد امام الفسطاط ترجل ودخل فقبل يد جبلة و يد ثعلبة وخرج وكانت هند في اثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كانها تتوقع رؤية فارس تعرفه وكانت تفعل ذلك وتحاذر أن يشعر بها أحد · فوقع نظرها على احدهم وكان احسنهم وجهاً في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسهِ وملامح وجههِ انه ليس من بني غسان · وكان ربع القامة أسود العينين حادهما لابساً قباء عربياً وعلى رأسه كوفية من الحرير المزركش وقد شدّ فوقها العقال · فحالما رأته ظهرت عليها البغتة وعلا وجهها بعض الاحمرار ولكنها تجاهلت وتشاغلت ببعض الشؤون فتقدم الشاب الى جبلة فقبل يده وخرج ولم ينتبه الى ثعلبة اماسهواً او عمداً فعظم ذلك على ثعلبة ونظر الى هند فاذا هي تشيع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من الفسطاط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبه ولا داعي لتلك الغيرة غير ما فطر عليه من الحسد والكبرياء لكنه لم يفه بكلمة

ثم مرَّ باقي الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا الى الحبل فلم تكن تسمع الاَّ قرقعة اللجم وصهيل الخيل ووقع حوافرها تفحص بها الارض كأنها تلح في طلب السباق ليطلق لها العنان فتجري في ذلك السهل الواسع الارجاء وفيها الادهم والاشقر والمحجل والمجنب والمجبب واليعبوب والكميت وغير ذلك من أصناف الخيل

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثعلبة يتداولون في من عسى ان يكون السابق في ذلك اليوم فقال جبلة ما ظنكما ان يكون السابق من هؤلاء الفرسان اليوم فيفوز بهذه الدرع · فلم يجب ثعلبة بشيء ولكنه اعتدل في مجلسه واخذ يلاعب شاربيه ولسان حاله يقول انا هو

السابق ولا أحد سواي . وكان كثيرًا ما يحرز قصب السبق في مثل هذا السباق ولكنه قلما احرزه عن استحقاق لان المتسابقين اذاعرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيسبقهم ويظن انه انما سبق لمهارته وسرعة فرسه . فلما لم يجب ثعلبة قال جبلة ما ظنك براكب ذلك الجواد المحجل اني اراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي

نخفق قلب هند عند ذكره أما ثعلبة فهزَّ رأسهُ مستهزئًا وقال هذا غلام غرٌّ يدعي الفروسية وهي براء منه ولولا الصدفة العمياء ما استطاع نيل الجائزة ولو كنت في مقام ملك البلقاء (يريد جبلة) وكان هذا السباق تحت رعايتي ما أذنت بأن يكون بين فرسانه غريب لانعرف اصله ولا يليق بنا ان ندخله فسطاط الملك وابنته جالسة لأنه لا يعرف مقام الملوك . فادركت هند ان كلام ثعلبة صادر على غيرة لأنه لا يطيق ان يُمدح احد في مجلسه

أما جبلة فاتخذ كلامه مأخذ التوبيخ ولكنهُ حملهُ محمل الاجلال لمقامه مع ما تقتضيه حدة الشباب وقلة اختبارهم فاجابهُ بلطف « وما يمنع ان يكون غريبًا ويدخل علينا ونحن بنو غسان يضرب المثل بحسن وفادتنا واكرامنا للغريب » نخجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلاً ولكني مع ذلك استغرب امر هذا الشاب لسكناه بيننا مسكن الغرباء وكثيرًا ما شاهدته وقد خرج للصيد ومعه حاشية كأنه من ابناء الامراء فمن اي القبائل يمكن ان يكون على اني اراه مبالغًا في اخفاء امره وقد سألت عنه بعض امرائنا غير مرة فلم ينبئوني بشيء عن اصله ولا يعلم

أحدٌ ما مقامه بيننا ولكنني سمعتهم ينادونه حماداً

فظن ثعلبة ذلك حجة للفوز في جداله فقال وهذا مما يحقره في عيني يا عماه فانه لا يبعد ان يكون جاسوساً مرسلاً من ملوك الحيرة فهم ما انفكوا يناوئوننا ويريدون بنا شرًّا وخصوصاً بعد أن نالهم ونال الفرس من حملات جنودنا وجنود الرّوم هذين العامين

فاغضى جبلة عن الجواب ثم جاءه مخبر ان الخيول معدة فكيف يرى الملك ان يكون سباقها . قال ينقسم الخيالة خمسات يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة فمن سبق افرد جانباً حتى لا يبقى احد لم يجرِ في حلبة السباق ثم يتسابق السابقون جميعاً فمن احرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة . فعاد المخبر وأبلغ الامراء المنوط بهم امر السباق وترتيبه فقسموا الخيالة خمسات فجرت اوّل خمسة منهم حتى توارت عن النظر لأن مجال السباق يزيد على الميلين فعاد واحد يحمل القصبة فتناولها رجل خفيف العضل سريع الجري أُعدّ لمثل ذلك فاسرع بها وغرسها مكانها واجلسوا السابق الى جانب وهكذا كل خمسة على حدة

اماَّ هند فكانت عيناها شائعتين نحو حمّاد فلما جاء دوره تبعته يبصرها حتى توارى ورفاقه ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصبة في قبضته فافرد مع السابقين . فقال جبلة لثعلبة أرى الرجل قد سبق . فاجاب والحسد ملء صدره أيعدّ من يسبق هؤلاء الخمسة سابقاً تمهل لنرى سباقه مع السابقين . فالتفتت هند وقالت برزانة وهدوّ كمن لا يهمه سبق حماد او لم يسبق «وما يمنع ان يكون سابقاً لهم جميعاً . . كيف نحكم عليه ونحن لا نعلم شيئاً من

ضعفه او قوته . نعم يسوءنا ان يكون السابق غريباً ولكن ما الحيلة اذا سبق أنقبل هذا العار على بني غسان . . ؟ »

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة واتقدت الغيرة في صدره فتبسم كأنه يستخف بقولها وقال « لا يكون لهمسابق سواي ولاعلمنهُ الفروسية من هذا اليوم » قال ذلك وملامح الغدر وسوء القصد ظاهرة على وجهه فخافت ان يكون قد نوى بالرجل سوءًا فلا يزيد دفاعها الاَّ غضباً وحقداً فسكتت

وعند الظهيرة او نحوها انقضت الاشواط الصغيرة فاجتمع عشرون سابقاً فامر جبلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل

وكانوا قد أعدوا الاسمطة في صرح الغدير وذبحوا الذبائح فجاءت الاخونة يحملها الرجال الى الخيم على كل خوان منها جفنات وفيها الالوان العربية والرُّومية و بعض الخمور

وامر جبلة ان يجلس الفرسان السابقون معه على خوانه وكان خوانه من ذهب خالص وجفناته من فضة (١) فجاؤُوا ومعهم حماد فلما وقع نظر ثعلبة عليه جعل يتأمله بعين النقد وحماد لا يلتفت اليه فجلسوا على الابسطة حول السماط ركعاً على ركبة واحدة واخذوا في الاكل واراد جبلة ان يقف في خدمتهم على عادة كرام العرب مع ضيوفهم فاستحلفوه ان لا يفعل او يكفوا عن الطعام فاطاع وجلس معهم والى يمينه ابنته هند والى يسارة ابن عمه ثعلبة . ولما اتموا الطعام وتناولوا الحلوى وبعض الخمر تلا بعض الشعراء

(١) الاغاني ٢

قصيدة ذكر فيها كرم الغسانيين وحسن ضيافتهم . فاطرق جبلة خجلاً لانه يستنكف من ان يسمع مدحه باذنه فلما رأى الشعراء منه ذلك نهض احدهم وقال معها بالغنا في مدح ملوك غسان لن نأتي بشيء مما قاله فيهم حسان ابن ثابت القائل

لله در عصابة نادمتهم * يوماً بجلق في الزمان الاوّل
أولاد جفنة عند قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة احسابهم * شمّ الانوف من الطراز الاوّل
يسقون من ورد البريص ضيوفهم * كأساً يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

فامر جبلة حاجبه فاعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة أقمصة (١)

وكانت الشمس قد دنت من الاصيل والخيل استراحت واستراح فرسانها فنودي في الناس ان هيّأ الى السباق وكان حديث القوم « من يا ترى سينال قصب السبق من هؤلاء العشرين » وكان حماد اقلهم كلاماً واكثرهم تأملاً كأن في نفسه شيئاً يكتمه . وقضت هند ساعة الغداء وما بعدها تتأمل وجهه خلسة فآنست فيه جمالاً وكمالاً ورزانة وضعة . وكان ثعلبة يراقب حركاتها ونظراتها وينظر الى حماد نظر الازدراء وكان حديثه قاصراً على الاطناب بما فعله والده او ما مرّ به هو من غرائب الوقائع كقوله مثلاً انه ذهب للصيد فلقيه اسد فلم يفرّ منه بل هجم وضربه فقتله او ماشا كل ذلك من الاحاديث الملفقة . وكان الحضور يصغون الى حديثه ويؤمنون

(١) الاغاني جزء ١٤

لاقواله اجلالاً لمقام والده واكثرهم لا يصدقونه وهو يسرد الحكاية و ينظر الى هند يلتمس اعجابها او استغرابها وهي لا تكترث · اما حماد فلم يكن يظهر اكتراثاً به ولا انتباهاً له لأنه كان حرًّا لا يطيق التلفيق

فلما نودي في العود الى السباق خرج الفرسان العشرون فقال جبلة اري ان ينقسموا الى اربعة اقسام فيتسابق كل خمسة منهم في شوط فمن سبق افرد ثم يتسابق السابقون وهم اربعة فمن سبق فله الجائزة فتسابقوا خمسات فانفرد اربعة وحماد منهم

كل ذلك وثعلبة لم يركب فرسه ولا نزل للسباق انفةً واستكباراً وهو يرجو ان لا يكون حماد من السابقين فلما رآه بينهم اوجس خيفة ولو علم انه سيسبق ما عرض نفسه لمسابقته ولكنه كان لا يزال آملاً ان يسبقه مسابقوه فينجو هو من خطر الفشل

ثم اصطف الاربعة بازاء الحبل ووقف الناس على جانبي الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط · فاعتدل الفرسان على صهوات افراسهم ووقف جبلة وهند وثعلبة بباب الخيمة ينظرون اليهم وقلوبهم تخفق في انتظار عاقبة ذلك السباق فاطلق الفرسان اعنة خيولهم والناس يتبعونهم بانظارهم وكان جواد حماد متأخراً عنهم فسر ثعلبة بتاخره ظناً انه سيفشل · ولكن هنداً علمت ان تأخره لم يكن الا ضرباً من الفروسية فلما تواروا عن ابصارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم فاذا بحماد قد عاد يحمل القصبة حتى اذا دنا من خيمة جبلة سلمها الى هند · فصاح الناس صيحة التبشير بالسبق فتناولت هند القصبة وترجل حماد وقبل جواده بين عينيه · وكان عند باب الخيمة رجل يحمل وعاء

فيه صبغ احمر من دم الصيد ليخضب به صدر الفرس اشارة الى سبقه (١) فلما تقدم ليصبغه اعترضه ثعلبة وقال تمهل ان السبق لم يتم بعد . فعجب حماد وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب فقال جبلة وعدنا ابن عمنا ثعلبة ان ينازل السابق . فلم يجب حماد بل عاد الى صهوة فرسه ووقف ينتظر ثعلبة فجيء اليه بفرسه وكان من احاسن الخيل عليه قلادة من الذهب الخالص وسرج مرصع بالحجارة الكريمة فركب وهو يتميز غيظاً . وكانت هند في اثناء تلك البرهة فرحة بفوز حماد فشق عليها منازلة ابن عمها له ولكنها عللت نفسها بفشل الباغي وهي تزداد تعجباً بما تشاهده من حقد ثعلبة على حماد وليس بينهما ما يستدعي ذلك ولكن كبير النفس لا يستطيع تصور هذه الدنايا . ثم امر جبلة فنودي في الناس ان السابق الآن بين حماد والامير ثعلبة بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط . وكان بعض الذين فاز حماد عليهم يودون ان يكون ثعلبة السابق و بعضهم يتمنون السبق لحماد ليكون لهم اسوة بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد تعب وفرس ثعلبة لا يزال نشيطاً فلم يمض القليل حتى عاد حماد وفي يده القصبة ووراءه ثعلبة قد ساق جواده الى الفسطاط وابتدر عمه قائلاً انه لم يسبقني هو بل فرسه فانه من خيل الجن او هو من صلب داحس فرس قيس بن زهير ولو ركبته انا ما استطاع أحد سبقي . فلما سمعه حماد يقول ذلك نزل عن فرسه وقال له اليك فرسي فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليهما فخافت ان تعود العائدة على حماد وقد شعرت ان حبه تمكن من قلبها في

---

(١) صناجة الطرب

تلك الساعة القليلة مالا يكاد يتأتى باعوام

أما ثعلبة فقال ما قاله انتحالاً لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه فرسه فلما تنحى له عنه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا ونزلا الى ساحة السباق حتي توارايا عن الابصار فلبث الناس ينتظرون عودتهما وكأن على رؤوسهم الطير وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فارسلت بقية اشعتها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والاودية وقد هدأت الطبيعة وسكن جاش النهار

فلما ابطأ الفرسان شاعت ابصار الناس نحو حلبة السباق وملوا الانتظار حتى هم بعضهم بأن يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخير وكثر الهرج والمرج . وكان اكثر الناس قلقاً هند فقد شاعت عيناها وخافت غدر ثعلبة ثم ما لبثت انشاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما حماد وثعلبة والقصبة في يد حماد فما صدقت ان رأته وقد كاد قلبها يطير من الفرح أما ابوها فشق عليه ان يكون السابق رجلاً غريباً يفوز عليهم جميعاً ولكنه ترحب به فترجل الفارسان ونزلا الى الخيمة فاراد حماد ان يعتذر عن ثعلبة فقال « والله اني لم اسبق الامير ثعلبة الاّ بقضاء وقدر لأنه فارس مبرز يحق لغسان الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الآن لسبقني » فلم يجب ثعلبة ببنت شفة ثم ناول حماد القصبة الى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال براها بري القلم فارادت السوءال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تفعلي فسكتت وفي نفسها ان تعرف سبب بريها

ثم تقدم حامل الصبغ الاحمر فخضب به صدر فرس حماد وكان الظلام

قد سدل نقابه او كاد فامر جبلة ان يحتفلوا بالباس الدرع في باحة القصر فأُنيرت المشاعل وسار الناس مشاة وقد غادروا خيولهم مع سياسها بقرب الخيام ودخلوا الحديقة وفيها الازهار والرياحين فنزلوا في بقعة واسعة اعدت لمثل لذلك الاحتفال ضرب فيها سرادق كبيرة وفرشت ارضها بالبسط فعلقوا الشموع في جدرانها وجلس جبلة في صدرها على وسادة من الحرير الموشى وجلست ابنته الى جانبه وثعلبة الى الجانب الآخر واجلسوا الشاب على مرتفع ليراه الجميع ثم اخذت الجواري ينشدن اناشيد التهنئة وجاء بعض رجال جبلة يحمل الدرع . ثم وقفت هند وامارات السرور ظاهرة على وجهها فمشت الى مقعد حماد فوقف لها وركبتاه ترتعشان لعظم تأثره لانه علم انها جاءت لتلبسه الدرع فنزع عن رأسه الكوفية والعقال فبانت ملامح وجهه جيدًا فازدادت هيامًا به ولكنها استغربت فيه امرًا استغربه كل من شهد الاحتفال وذلك ان حمادًا لما نزع كوفيته ظهر شعر رأسه طويلاً غضاً حتى غطى ظهره فلم يفهموا معنى ارسال شعره على هذه الصورة

فتناولت هند الخوذة اولاً فوضعتها على رأسه ثم تناولت بقية اجزاء الدرع فالبسته اياها والشعراء ينشدون والجواري يرتلن وكلهم فرحون الا ثعلبة فانه لبث صامتاً مقطب الوجه وخصوصاً لما رأى ابنة عمه تلبس تلك الدرع لحماد بيديها وهي فرحة بفوزه . اما هي فاغتنمت الفرصة بانشغال الناس وهمست في اذن حماد قائلاً « سنلتقي غدًا في دير بحيراء » فنزلت تلك الالفاظ بردًا وسلامًا على قلبه

فلما تمّ الباس الدرع عادت هند الى مجلسها والناس وقوف وبعد

قليل جاءت الاسمطة ومدت الموائد وجلس الناس للطعام فاذا كان العشاء تفرّقوا فذهب كل الى سبيله وهم يتحدثون بسباق ذلك اليوم وما كان من فوز حماد وبقي ثعلبة عند عمه وقد أعمل فكرته في طريقة يخرج بها مما وقع فيه من الفشل

اما هند فتظاهرت بالتعب واستأذنت في الذهاب الى غرفتها فودعت والدها وثعلبة ومضت وبقي جبلة وثعلبة على انفراد

فقال ثعلبة لم يسوءني سبق هذا الرجل لي بمقدار ما ساءني انه نال الجائزة وهو غريب لا يعرف لهُ نسب وقد حرم منها امراء غسان وفرسانهم

فقال جبلة اما انا فلم يسؤني نيلهُ الجائزة اذ قد ينالها سواه في سباق آخر ولكنني اعجب لتستره وقد فاتني ان اسألهُ عن اصله على انني سأُرسل اليه واسألهُ في فرصة اخرى

فقال ثعلبة لا بد من البحث عنهُ لئلا يكون جاسوساً او عيناً علينا من قبل اللخميين ملوك الحيرة وكأنني ارى في لهجته ما يدل على ذلك

قال جبلة ولكن ملك العراق قد خرج من ايدي اللخميين لما علمت من مقتل النعمان بن المنذر وولاية اياس بن قبيصة من قبيلة طي وزد على ذلك ان هذا الشاب لا يظهر في هيئته وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو اقرب الى اولاد الامراء منه الى السوقة فاذا كان من اهل الحيرة فهو من امرائهم لان الهيبة ظاهرة على وجهه . فشق ذلك المدح على ثعلبة فعمد الى الروغان فقال وهل يؤخذ الناس بظاهرهم فكم من رجل تظنه ملاكاً فاذا خبرته ظهرت لك عيوبه فتجده من اسافل السوقة فارى ان نحمله على الاقرار بحقيقه

حاله قسرًا فاذا كان من اهل الحيرة اخرجناه الى بلاده واذا كنت تستنكف من اخراجه فوالدي يخرجهُ لانه مقيم بقرب بصرى

قال سننظر في ذلك غدًا فلا نحرم وسيلة نستريح بها · وقضيا بقية تلك الليلة بالاحاديث المتنوعة ثم ذهب كل منهما الى منامه في غرفة خاصة بالقصر

الفصل الرابع

﴿ هند في غرفتها ﴾

أما هند فدخلت القصر فلاقتها والدتها وكانت شديدة الولع بها لانها رزقت اولادًا كثيرين لم تهنأ منهم بسواها فقبلتها وصعدت بها الى طابق علوي ودخلت بها الغرفة وامرت الخدم فاعدوا لها الفراش ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فنزعت حليها والبستها جلبابًا واسعًا من الحرير الناعم الشفاف ثم حلت خصلة شعرها ونزعت ما في ضفائرها وعلى صدرها وفي اذنيها ومعصميها من الحلي واستخرجت خلاخلها واعدت لها السرير وهو من خشب الارز في اجمل ما صنع الصانعون عليه الوسائد الحريرية الملوّنة غطاؤُها من ابدع انواع النسج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مشمعة فيها بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر · فقد كان من ضروب البذخ عندهم ان يمزجوا الشمع بشيءٍ من الاطياب فاذا انير تصاعدت عند احراقه رائحة الطيب وكان في جدران الغرفة صورٌ جميلة اكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبه وصعوده كلها متقنة التصوير ملوّنة بالوان طبيعية

وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي عبارة عن صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلاً خصوصياً حتى صارت كالزجاج تعكس النور وتري الاشباح كمرآة هذه الايام لان الناس لم يكونوا يعرفون المرآة الزجاجية بعد

فبعد ان لبست هند جلبابها وقفت امام المرآة فاصلحت شعرها وثوبه وذهبت الى السرير فجلست وهي الى تلك الساعة لم تتبس ببنت شفة وكانت والدتها مذ دخلنا الغرفة جالسة على وسادة تتأمل بجمال ابنتها وقوامها وبما وهبتها العناية من الصحة والعقل وفي نفسها شيء تنتظر فرصه لتبوح به وكانت هند اثناء تبديلها ثيابها غارقة في بحار الافكار تراجع ما مرَّ بها في ذلك النهار من الغرائب وكلما تذكرت حماداً وسبقه لثعلبة وما اظهره هذا من الحسد وما ادعاه من الفروسية وكيف انه عاد فشلاً ازدادت احتقاراً لهُ ونفوراً منه وحباً لحماد . ولكنها كانت مع ذلك شديدة الحرص على منزلة والدها وشرف قبيلتها وخافت ان يتعلق قلبها بحماد ثم تجد انه من اصل دنيء فيحول ذلك دون ارضاء والدها وسائر اهلها فتقع في الشقاء وكانت كلما تصوَّرت ذلك اقشعرَّ جسمها فتعلل نفسها بان من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الاخلاق مع ما يتجلى في وجهه من الهيبة والوقار لا يمكن ان يكون دنيء الاصل ثم تعد نفسها بكشف حقيقة حاله عند ما يلتقيان في دير بحيراء

وكانت والدتها واسمها سعدى في الخامسة والاربعين من عمرها لا يزال الجمال ظاهراً في وجهها فقد كانت من اجمل بنات غسان وكثيراً ما تغزَّل بها شعراؤهم ولما تزوجها جبلة حسده كل اهل عشيرته عليها

ثم جلست هند على السرير بجلبابها وقد ارخت شعرها وحسرت عن

زنديها وكانا مستدير ين ممتلئين مشرقين يزينهما الوشم ٠على اليمين منهما صورة الصليب وعليه السيد المسيح مصلوباً وعلى اليسار صورة مريم العذراء تحمل طفلها ٠ ولو رآها حماد في تلك الحال لنطق بمثل قول الشاعر

نالت على يديها مالم تنلهُ يدي * نقشاً على معصم اوهت به جلدي
كأنه طرق نمل في اناملها * او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يديها من نبل ملقتها * فألبست زندها درعاً من الزرد

فاتكأت الى وسادة من ريش النعام أهدتها اياها امرأة والي دمشق وألقت رأسها على كفها التماساً للراحة وقد ضايقها الجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك النهار فلبثت صامتة لا تتكلم وافكارها تائهة فتذكرت القصبة التي سلمها اليها حماد عند سبقه الاخير وكيف انها مبرية مع ما لحظت على وجه ثعلبة من دلائل السوء والحقد فارتابت في امره وودت السؤال عن سبب ذلك فمنعها حماد كما تقدم

ثم ابتدأت والدتها بالحديث قائلة لماذا لم تنزلي اليوم للسباق يا هند

قالت لم ارَ مسوغاً لان الفرسان كانوا كثيرين وطال الجدال بين المتسابقين حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي

قالت وما الذي دعا الى هذا الجدال

قالت بعد ان تمَّ السباق اراد ثعلبة مسابقة السابق فعاد فشلاً فزادنا خجلاً

فتبسمت سعدى تبسماً خفياً وقالت أرأيت الفرسان عديدين فمن نال قصب السبق منهم ٠ قالت وقد ابرقت أسرتها رغماً عنها نالهُ شاب غريب

اسمه حماد لا يعرف احد حسبهُ فشق ذلك على والدي وابن عمي اذ لا يليق ان يكون السباق في حمانا و يفوز بقصب السبق غريب

قالت ومن هما الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار

قالت هما ابن عمي ثعلبة وحماد

قالت رأيتهما عادا مرّتين

قالت تسابقا اولاً فسبق حماد فانكر ثعلبة ذلك على نفسه ونسب السبق الى الفرس فتنازل له حماد عن فرسه وركب هو فرس ثعلبة و ياليتنا بقينا على العار الاوّل لأن ثعلبة عاد مخزولاً هذه المرة ايضاً — ومما استغربته ان حماداً جاء بالقصبة مبتورة كأنها ضربت بسيف

فضحكت سعدى وقالت ألم يخبركم بسبب بريها · قالت لا وكنت عازمة على البحث عن سبب ذلك فرأيت حماداً لا يريد فكففت

فقالت بورك فيه انه بالحقيقة شهمٌ كريم الاخلاق ولا ريب عندي انه رفيع النسب

فطربت هند لامتداح والدتها حماداً وقالت ما معنى ذلك يا أُمّاه هل تعلمين من أمر هذه القصبة شيئاً

فهمست في أُذنها قائلة نعم اعلمي يا هند ان تلك القصبة قد قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة · فبغتت هند واشتاقت الى معرفة تفصيل الخبر فاعتدلت على سريرها وقالت كيف وقع ذلك

قالت ان ابن عمك كان عازماً على الفتك بذلك الشاب سامحهُ الله ووالله لو فعل ذلك لا لبسنا عاراً لا تمحوه الايام

فازدادت هند استغراباً وقالت لها وما ادراك بذلك يا أُماه

قالت رأيتهما رأي العين

فقالت وكيف تيسر لك رؤيتهما ونحن اقرب اليهما منك ولم نرَهما

قالت تمهلي لأقص عليك الواقع · فاصغت هند بكل جوارحها فنهضت سعدى الى الباب فاغلقته وجلست تقص عليه الخبر وتحاذران يسمعها احد فقالت : لما خرجتم جميعاً الى الخيام وخرج اكثر من في القصر اليكم بقيت انا وسلمية المولدة وبعض الخدم وكنا نرى المتسابقين يبدأُون بالشوط ولكننا لا نرى آخره فخرجنا وفي نفسي ان أرى حلبة السباق وكيف يقتلع السابق القصبة فانهُ منظر يفرح القلب اذ ليس أَلذّ من النصر · فخرجنا من بعض ابواب الحديقة الى البساتين المجاورة بضفة الغدير لا يرانا أحد حتى وصلنا الى مكان تحت شجرة اشرفنا منه على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نرَى ولا نُرى · فلما كان السباق الاخير شاهدت ابن عمك متأَخرًا عن حماد لا لعجز فرسه لاننا رأَينا الفرس يستحث فارسه ليطلق له العنان وهو يمسكه كأَنه خاف الوقوع عن ظهره ولو لا ذلك لكان هو السابق والسبق في الميدان للافراس اذا احسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها فخوف ثعلبة الوقوع عن فرس حمادًا اكثر عارًا عليه من تأْخيرهِ عنه أمّا حماد فاطلق لفرسه العنان وكان يستقبل عرض الفلاة كما تستقبل الام رضيعها حتى وصل الى القصبة · وفيما هو يقتلعها رأَينا ثعلبة هاجماً عليه وقد شهر سيفه وهمّ بقتله فاستلقي حماد السيف بالقصبة فقطعت ثم رأَينا حمادًا اقتلع ثعلبة من صهوة جواده ورمى به الارض وجثا على صدره · فخفنا ان يقتله ثم سمعنا

ثعلبة يستجيروابه و يستعطفهُ فنهض عنه وتصالحا وتعانقا وعادا

فما اتمت سعدى حديثها حتى اختلج قلب هند اعجابًا بشهامة حماد وازدادت احتقارًا لثعلبة وقالت لوالدتها اهذا هو ثعلبة بن الحارث ..؟ ايليق بغسان ان يكون ابن ملكها خسيسًا الى هذا الحد ..؟ أيليق به ان يغدر بشاب في ريعان الشباب ولا ذنب له الاَّ انه افرس منه — وزد على ذلك انهُ نزيل في بلادنا وله علينا حق الجوار

فرأَت والدتها في كلامها حقاً ولكنها لم تشأْ ان تمكن البغض في قلبها وحسبت بنفسها الف حساب من جملتها ان ثعلبة ارفع بني غسان مقاماً وليس اقرب منه للزواج بهند ولعل جبلة يرغب في ذلك فاذا نفرت منه كان نفورها سبباً لتنغيص عيش ابنتها فقالت لها لا بد لنا من تأْنيبهِ ولومهِ حتى يرجع الى الاخلق به و بمن كان في مقامه ونسبه

فسكتت هند لا عن اقتناع ولكنها صبرت نفسها لترى ما يكون من امر حماد غدًا وهي تعلم ان ذهابها الى الدير قد لا يتيسر بغير والدتها فلا يخلو ان تلحظ امر اجتماعها بحماد فماذا تقول لها لوسأَلتها عنهُ. وتعلم ايضاً ان والدتها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة. ففكرت في الامر قليلاً فرأَت ان لا بد لها من استطلاع والدتها والاستعانة بها على نيل حماد وقد ارتاحت الى هذا الرأْي لما عاينت من انصاف والدتها وامتداحها شهامتهُ ولكنها ودَّت قبل كل شيء ان تجتمع به على انفراد لتطلع منه على حقيقة حاله وتستطلع افكاره ثم تطلع والدتها على الامر بالاسلوب الذي تختاره

فقالت لها مضت علي مدة طويلة يا أُماه وقد نذرت نذرًا لدير بحيراء

لم افه بعد ويلوح لي ان ما رأيناه في هذا النهار من السوء انما كان لتأخرنا عن وفاء النذر

قالت لعلهُ ذلك فان لهذا الدير كرامات كثيرة ولا صبر له على تأجيل النذور فاسرعي في ايفائه · قالت ازى ان اذهب اليه غداً ان شاء الله

قالت ولكنني لا استطيع الذهاب معك في الغد لاني ذاهبة مع والدك الى البلقاء فاذا أجلت الذهاب الى بضعة ايام سرنا معاً

فسرّت هند لهذا الحل الذي جاء من تلقاء نفسه فقالت لا اراني قادرة على التأجيل واخشى ان يزيد غضب الله علينا وانا لا أرى موجباً لذهابك معي فقد اذهب مع بعض الخدم متنكرة اقضي نهاراً هناك ثم اعود

قالت افعلي ما بدالك — ثم ذهب كل الى فراشه اما هند فلم يكد يغمض لها جفن وهي تتذكر ما مرَّ بها في الامس وتفكر في ماذا تكلم حماداً اذا اجتمعت به في الغد

الفصل الخامس

﴿ حمَّـاد ﴾

اما حماد فانه عاد من صرح الغدير تلك الليلة وهو يكاد يعثر باذياله لانشغال باله ومـا برحت الفاظها ترنُّ في اذنيه وهي قولها « سنلتقي غداً في دير بحيراء »

فلما خرج من الصرح لقيه خادمه والفرس بقرب أحيامر فنزع الدرع عنه

وجعلها في خرج الفرس وركب وسار يطلب منزله وكان مقيماً في قرية غربي مدينة بصرى وعلى ستة اميال منها يقال لها غسام (١) ولم يأت حماد الشام الاّ منذ بضعة اشهر جاءها لامر لا يعلمه الاّ واحد . فاقام في منزله المشار اليه يقضي بعض نهاره في البيت وبعضه في الصيد فيصطحب رجلاً يظنه والده ومعه بعض الخدم فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء فيعودون وقد اصطادوا بعض الغزلان او غيرها

وكان قد تعود ركوب الخيل منذ صباه ومارس الفروسية وفرسه من اجود خيول العرب . وكان قد سمع بهند وقرأ شعرًا في وصفها قبل خروجه من بلاده فعلق بها عن بعد . ثم دعاه والده ان يصحبه الى الشام فعوّل في باطن سره على السعي في التقرُّب منها لانه يظن نفسه دونها مقاماً . فاخذ منذ قدومه الشام يتردد الى جهات صرح الغدير راكبًا او ماشياً يتعلل بالمرور هناك لعله يشاهدها . وكان ينزل الغدير احيانًا فتراه ويراها وهي لا تفقه لمراده وكلما سمع باحتفال عمومي جاءته هند في الكنائس او غيرها اسرع اليه وسعى في استلفات انتباهها . فكانت اذا رأته ارتاحت الى رؤيته وهيبته ورزانته . فلما كان السباق الماضي حضره لاوّل مرة فاظهر من الفروسية والشهامة وكرم الاخلاق مازادها ارتياحًا الى مشاهدته واتفق انها نزلت ذلك السباق هي بنفسها فتخاطبا وتبادلا رموزًا لا غنى عنها في اوائل الحب فنزل من قلبها منزلاً رفيعاً وصارت تشعر بشوق الى رؤيته اذا غاب عنها على ان ميلها هذا لم يكن يتجاوز حدّ الارتياح ولا خطر ببالها امر الاقتران به على انها

(١) مري

فهمت من اشاراته وحركاته وسائر احواله انه طامع بها ولكنها كانت تجهل الحب وسلطانه فلم يذق قلبها طعمه على انها آنست في حماد اخلاقاً واطواراً تنطبق على اخلاقها واطوارهـا من حيث التعقل والرزانـة والميل الى الشهامة والحرية

فلما شاهدت ما شاهدته في السباق الاخير من شهامته وحريته تقرر في ذهنها انها خلقت له وخلق لها وهذه اول مرة خطر ببالها امر الاقترا ن به وساعدها على ذلك ما آنست من ارتياح والدتها اليه وامتداح شهامته والثناء على مروءته ولكن امرًا واحدًا كان يعترضها فيوقفها عن عزمها وهو تستر حماد وكتمان اصله فخافت ان لا يكون ذا حسب يقربها منه او ان يكون على مذهب غير مذهبها فان العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى وفيهم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس وظهر في اثناء ذلك الاسلام لكنه لم يكن ادرك الشام بعد . على ان الوثنية والمجوسية واليهودية كانت محصورة في جزيرة العرب فكانت المجوسية في بني تميم واليهودية في نمير وبني كنانة وكنده وغيرهم وكان كثير من اليهود في يثرب ناهيك بخيبر والاوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العرم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع وما هم بالحقيقة من العرب بل هم حلفاؤهم [1] وكانت عرب تلك الجزيرة يقدمون الشام وبصرى وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني وغيرهم وهم انما يقدمون للتجارة فيمكثون ببصرى او في دمشق الشام او غيرهما بضعة اسابيع او بضعة اشهر ويعودون [2]

(١) ابن الاثير (٢) ملطبرن

فخافت هند ان يكون حماد وثنياً اومجوسياً فيمتنع الاقتران بينهما فطلبت الاجتماع به في الدير لتتحرى ذلك كله

فلنعد الى حماد ليلة خروجه من القصر فانهُ ساق جواده زميلاً وخادمه يجري الى جانبه وهو يريد ان يدرك منزله قبل ان يقلق والده لغيابه لانه فارقه من فجر ذلك اليوم ولم يعد يراه

وبينما هو في ذلك سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه وصوتا يناديه (حماد) فقال نعم يا أبتي ألعلكم خرجتم للتفتيش عني

قال كيف لا نخرج وقد ابطأت علينا في العود وها قد مضى هزيع من الليل ونحن كما تعلم في ديار الغربة

فسكت حماد وسارا معاً على فرسيهما حتى مرّا ببساتين القرية بين اشجارها والناس نيام فوصلا المنزل في اطراف تلك القرية فدخلاه وقد أُنيرت غرفهُ بالمصابيح فأسرع حماد الى غرفته فجاؤوه بالماء والثياب فغسل وجههُ ويديه ورجليه وبدل ثيابه واتكأ الى وسادة ووالده الى جانبه واسمه عبد الله . وهو امير من امراء العراق اللخميين ذوي اليسار وقد بلغ الخامسة والاربعين من عمره قضى معظمها في الاسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكته التجارب والايام وعلمته ولكنهُ انقطع في ذلك العام الى حماد لقضاء مهمة جاء من اجلها الى بلاد الشام

فلما جلسا قال عبد الله ما الذي أخر مجيئك الى الآن يا ولدي

قال ألم اقل لك في مساء الامس اني سائر في هذا الصباح الى صرح الغدير

قال بلى ولكن هل طال مقامكم في السباق الى الآن وهل كان

المتسابقون كثيرين

قال نعم يا أبتاه ان السباق لم ينته الى الغروب ثم احتفلوا بالباس الدرع للسابق أما المتسابقون كانوا كثيرين وفيهم جماعة كبيرة من امراء غسان وفي مقدمتهم ثعلبة بن الحارث صاحب بصرى

فقال ومن هو السابق يا ترى

قال ولدك حماد

قال لا شلت يمينك هكذا تكون الفروسية فقد سبقت امراء غسان وانت غريب بينهم فهل لبست الدرع واين هي ..؟

قال وقد نلت قصب السبق ولبست الدرع بعد جدال طويل ولكنني عاينت من كرم اخلاق جبلة ورجاله ما حقق لنا ما نسمعه عن حسن وفادة الغسانيين . اما الدرع فهي في الخرج

فقال عبد الله وهل نزلت فتاة غسان للسباق هذه المرة فقد اخبرتني المرة الماضية وسمعت من كثيرين انها تحسن الفروسية وكثيرًا ما تنزل ميدان السباق لمسابقة الفرسان

فلما ذكرت هند خفق قلب حماد وظهرت عليه ملامح البغتة ولبث برهة يفكر

فأدرك عبد الله انه يفكر في امر هام

قال ما بالك لا تجيب يا ولدي

فانتبه حماد وخجل لما ظهر عليه فقال لم افهم مرادك

قال سألتك عن هند بنت الملك جبلة هل نزلت للسباق هذه المرة

قال لا يا ابتاه لم تنزل ولكنها شهدت السباق وختمته بالباس الدرع للسابق . قال ذلك وامارات السرور والهيام ظاهرة على وجهه

فلحظ عبد الله ان حمادًا يحوم حول الشراك فاراد تحقق ذلك فقال له

وكيف رأيت فتاة غسان هل هي كما نسمع عنها من الجمال واللطف

فابرقت اسرة حماد وطفق يصف جمالها ولطفها وصفاً يدل على تعلقه بها فكان يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبه يخفق وكثيرًا ما كانت تخونهُ الالفاظ في التعبير عن اوصافها

فخاف عبد الله على حماد ان يقع في الشراك فاطرق وظهرت عليه مظاهر الانقباض والاسف معاً فاتم حماد كلامه وعبد الله مطرق وكأن امرًا ذا بال اعترضه

فنظر حماد اليه وقد عجب لحاله وما طرأ عليه من التغيير بغتة فقال له ما بالك يا ابتاه اراك قد وقعت فيما أ نبتني عليه فهل ساءك من امر شيء

قال حاشا يا ولدي ولكنني افكر في هذه الفتاة وما خصها الله به من المواهب والخصال وكذلك تكون بنات ملوك

فسرّ حماد لاستحسان عبد الله لها ولكنه خاف التصريح باكثر من ذلك لئلا ينكر عليه الامل بالحصول عليها وهي من بنات الملوك وهو لا يعرف عن نفسه الاّ انه من اولاد بعض الامراء

وكان عبد الله من الجهة الثانية راغباً في تحقق ما اذا كانت هند تحب حمادًا مثل حبه لها فقال ارى هندًا قد وقعت من قلبك موقعاً عظيماً فهل هي عالمة بذلك وهل خطر حماد ببالها

فاثر هذا الكلام في قلبه تأثير السهام وعدّه اهانة لهُ حتى كاد يصرح بكل ما في قلبه ولكنه عاد الى تعقله وحكمته فقال لا اعلم منزلتي عندها ولكنني رأيت منها ميلاً وارتياحاً لي

فقال يظهر ان قلبك خدعك فاتخذت لطفها الاعتيادي الذي تظهر به لدى سائر الناس دليلاً على حب خصوصي لك

قال لا اظن قلبي يخونني او يخدعني فقد علمت من قرائن عديدة انها تحبني

فقال وكيف تحبك وانت غريب ولا نسب ولا نسبة بينك وبينها

قال اعلم انها تحبني .... وسكت

فقال عبدالله افصح يا ولدي ولا تخف عني شيئاً فانت تعلم اني منقطع عن العالم كله من اجلك فاشرح ما يخطر ببالك ولا تخف فان ما يسرك يسرني

فقال قلت لك انها تحبني

قال اذاً انت طامع بها

قال لا ادري وكل شيء بقضاء وقدر

فتحقق عبدالله وقوع حماد في شرك الهوى فبغت وصمت وجعل يتلاهى بنتف عثنونه وقد همه ذلك الامر كثيراً

فلما عاين حماد منه ذلك ظنه استعظم عليه الطمع ببنت ملك غسان فقال لهُ ما بالك لا تتكلم هل ساءك ما ظهر لك مني

فابتدره عبدالله قائلاً لا يا ولدي لم يسئني ذلك ولكنني افكر في امر عظيم يهمني كما يهمك وقد قطعنا الصحاري والقفار من اجله واراك قد شغلت عنه بامرٍ آخر

قال وما تعني بذلك الامر العظيم وما الذي شغلني عنه لم افهم مرادك

فقال الم نأت من العراق الى بصرى لنفي نذرًا نذرناه لك منذ ٢١ سنة ولم يبق من اجل انتظاره الاّ بضعة ايام

قال بلى · فقال ما بالي اراك قد شغلت عنه بالحب والغرام

فخجل حماد عند سماع ذلك التوبيخ من والده فقال وهل يؤْخذ من كلامي اني مشتغل بالحب والغرام · فقال عبدالله : اتظن انني غافل او تحسب ان دلائل الحب تخفى على البصير

فتحير حماد ولم يدر كيف يدفع قول ابيه ولكنه رأى الافضل ان يبوح له اذ لا غنى لهُ عنه في اتمام قصده فقال وهب اني احببتها واحبتني فما علاقة ذلك بالنذر ونحن انما جئنا لقص شعر رأسي في دير بحيراء فما يمنع ان نفعل ذلك وان نفعل شيئًا آخر

قال عبدالله ان هناك علاقة كبرى لا يمكني التصريح بها الاّ في اليوم الذي نقص شعرك فيه وستعلم اذ ذاك امورًا انت غافل عنها الآن فلا تلومني على ترددي في امر حبك لبنت ملك غسان · انا اعلم ان حبك لها شرف وخصوصًا اذا كانت هي تحبك ولكنني لا استطيع التصريح بشيء الاّ في اليوم المعين لوفاء النذر وهو يوم احد الشعانين · فنحن الآن في اواسط الصوم الكبير ولم يبق للوعد الا بضعة ايام فتتم السنة الحادية والعشرون من ولادتك فنقص لك شعرك ونكشف حقيقة امرك فتدخل عالمًا جديدًا وتطلع على اسرار ربما كان فيها ما يحول بينك وبين هند

فتعجب حماد لذلك واشتاق الى مجيء يوم الشعانين شوقًا زائدًا واخذ

يفكر في كلام عبدالله ولكنه قال له وماذا عسى ان يحول بيني وبينها

قال قلت لك اني لا اقدر على التصريح باكثر من ذلك فارى ان تتبصر وتتأنى ففي التأني سلامة

وكان في عزم حماد ان يطاعه على ما تواعدا عليه من الالتقاء في دير بحيراء فلما رأى منه هذا التهويل كتم امره ليرى ما يكون بعد اجتماعه بها ثم يكاشف والده بكل شيء على انه حسب تهويل والده حيلة في ترغيبه عن هند

وكان قد مر نصف الليل وغلب التعب والنعاس . . . ولحظ عبدالله منه ذلك فقال هلمَّ بنا الى الفراش يا ولدي الى ان يقضي الله بما يشاء ولكنني اوصيك ان لا تقطع امرًا او تصله الا بعد يوم الشعانين فانك اذا فعلت شيئًا بعد ذلك انما تفعله عن بصيرة

فسار حماد الى فراشه وقد همه امر يوم الشعانين حتى كاد ينسيه هندًا وموعدها وودَّ ان يفعل ما امره به والده ولكن عواطفه غلبت عليه فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظمآن للماء فقضى معظم الليل ولم يغمض له جفن وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلاً

الفصل السادس

﴿ مدينة بصرى ﴾

واصبح حماد في الفجر فهرول الى ثيابه فلبسها وعبد الله لا يزال نائمًا

فاراد ان يوقظه ليستأذنه في الذهاب الى بصرى على سبيل التفرّج فخاف ان يطلب الذهاب معه فعوّل على الخروج بنفسه خفية

فركب جواده وقد لبس الكوفية والعقال وجعل عليه القباء كالعباءة وسار شرقاً قاصداً مدينة بصرى ولم يصطحب احداً من الخدم اخفاء لما سار من اجله وكانت الطريق بين غسام و بصرى على استقامة واحد كأنها هندمت بالقدة والفادن والبركار مرصفة بالحجارة الصلدة على نظام سائر طرق الرّومان وقد تأكلت الحجارة من مسير عجلات مركباتهم [1] يحدها من الجانبين حائطان ضخمان ارتفاع كل منهما ذراع · ولم يسر ساعة حتى اطل على بصرى واوّل ماشاهده منها حوضها الكبير الغربي الواقع خارج السور وهو عبارة عن خزان للمياه كبير طوله ١٣٥٠ قدماً وعرضه ٦٥٠ قدماً وكان لبصرى احواض اخرى في الشرق والشمال لخزن الماء خوفاً من الجدب لبعدها عن الانهر والغدران [2]

فلما دنا من ذلك الحوض عرج نحوه وتأمل اتساعه حتى كاد يحسبه بحيرة كبيرة لانه كان على معظم امتلائه فى اوائل الربيع ثم تحول عنه الى مرتفع من الارض ليرى بصرى منه وهو لم يدخلها بعد ولكنه قرأ عنها في كتب الفرس والكلدان وعرف انها واقعة في جنوبي حوران شرقي نهر الاردن تبعد ٩٠ كيلومتراً عن دمشق جنوباً شرقياً و ١٣٠ كيلومتراً من بيت المقدس شمالاً شرقياً وانها قديمة العهد عاصرت دول اليهود ثم اليونان والرّومان [3] فلما دنا منها صعد الى مرتفع فاشرف عليها وقد اشرقت الشمس فاذا هي مربعة

(١) جون مري وغيره (٢) بربل (٣) الاسكلكوبيذية البريطانية

الشكل تقريباً مالئة بقعة كبيرة من الارض المنبسطة حولها سور يزيد محيطه على اربعة اميال وشاهد خارج السور البساتين والاشجار والكرم وسائر اصناف الغرس ورأَى من وراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق وقد أعجبهُ منظرُ المياه في الاحواض حول المدينة تتلألأ بانكسار الاشعة عنها وشاهد في المدينة بنايات هائلة كان منظرها بوجه الاجمال مغبرًّا لان حجرها من الصنف الحوراني الاسمر المشهور . فاشتاقت نفسهُ الى مشاهدة اسواقها فسار نحو بابها الغربي فرأَى عنده القوافل وفيها الجمال والبغال والحمير بعضها قادم من العراق يحمل الاقمشة الفارسية وبعضها من اليمن تحمل الاطياب والمر واللبان . وشاهد قوافل اخرى تحمل البضائع الرُّومانية وسائر مصنوعات الشام (١) وتأمل الباب فاذا هو مرتفع هائل الكبر مصنوع على النمط الروماني وفيه العضائد والاعمدة والنقوش على عتبته من الاعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءته فهمَّ بالدخول من ذلك الباب فرأَى الشارع مرصفاً بالحجارة والناس يتزاحمون ذهاباً واياباً ففضل الترجل والمسير ماشياً فدخل وقاد الجواد وراءهُ في شارع المدينة الاكبر وهو يقطعها من الغرب الى الشرق و يقطعه شارع آخر مثله من الشمال الى الجنوب وهما اكبر شارع المدينة ومنهما تتفرع الشوارع الصغيرة والدروب والازقة والحارات على زوايا قائمة فعجب لانتظام تلك الشوارع وحسن هندامها لانهُ لم يشاهد على نظامها ولا في المدائن عاصمة الفرس في ذلك العهد

ولم يكد يخطو في ذلك الشارع بضع خطوات حتى تراأَى لهُ عن

(١) بوركهارت

بعد قنطرة قائمة في عرض الطريق فعلم انها قوس نصر اعتاد الرومانيون بناءها تذكاراً للنصر اولاحتفال يحق به الفخر . فلما دنا من القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث اقواس قوس متوسطة كبيرة وقوسين جانبيتين صغيرتين . وعلو القنطرة اربعون قدماً وعرضها اربعون وسماكتها عشرون وكلها مبنية باحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة . وفي اعلى القوس كتابة باللاتينية تشوّق حماد الى استطلاع معناها (١) فالتفت الى احد اصحاب الحوانيت وقد عرف من شكل انفه انهُ روماني وكلمهُ باللغة الكلدانية الممزوجة بالعبرانية . فاشار ذاك الى رجل جالس بالقرب منه كانه يطلب اليه ان يترجم له فجاء فسالهُ حماد عن تلك الكتابة فقال معناها ان يوليوس يوليانوس قائد الفرقة الاولى البرطية بناها (٢) فاعجب بيذخ الرومان وايقن انهم اقرب الى العظمة والترف من ملوك فارس وقال في نفسه اذا كانت هذه حالهم وهم في دور الانحطاط فما هو مقدار عظمتهم و بذخهم في ابان مجدهم . فمرّ من تحت تلك القوس وسار في جهة واحدة فوصل الى مزدحم من الناس عظيم فاذا هو في متصالب الطرق حيث يلتقي الشارعان الكبيران وهناك الحوانيت الكبيرة و باعة الاقمشة الثمينة ولكنهُ رأى على احد اركان ذلك المتصالب بناء شامخاً ذا اروقة ونوافذ واعمدة ونقوش بديعة فسأل عنه فقيل لهُ انه هيكل بناه الرومان لعبادة الاوثان قبل تنصر قياصرتهم واما الآن فقد اتخذوا بعضهُ معبداً والبعض الآخر يسكنه كبار حامية الروم في بصرى (٣) ووقف في ذلك المكان والتفت الى ما حولهُ فاذا هو في منتصف المدينة ومن هناك تمتد اربعة شوارع كبيرة

(١) مربل (٢) موحيه (٣) مربل وواددنتن

تنتهي عند السور باربعة ابواب غربي وشرقي وشمالي وجنوبي . ثم تحول الى الشوارع الاخرى ليتعهدها ثم يخرج من الباب الشرقي ومنه يصل الى الدير فشاهد بين ابنية بصرى قصوراً شاهقة معظمها من الكنائس وبعضها من الهياكل الوثنية بنيت على عهد الرُّوم قبل تنصرهم وفي جملتها مرسح بديع كانوا يلعبون فيه العاب السباق والمصارعة

وشاهد على تلك الابنية كتابة بعضها نقوش ... بغة واكثرها مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية وبعضها باللغة النبطية

واخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق والاسواق وفيها التجار واكثرهم من الغرباء وبينهم الدمشقي والحلبي والبدوي والرومي والفارسي والعراقي . ثم وصل سوق الصناع فوجد اكثر الصاغة من الفرس والرُّوم وصناع الاقمشة الحريرية من الدمشقيين ومر بسوق الاسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة واكثرهم من اهل دمشق . ولاحظ ان ابنية بصرى على اختلاف اشكالها مسقوفة بالحجر عقداً على شكل القبو ورأى الناس تتزاحم في الاسواق رجالاً ونـ... الوطنيون ولغتهم الارامية او النبطية وبينهم الرُّ... ليونانية وشاهد جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا يزالون على بداوتهم لانهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الا لحاجة فعرفهم من لباسهم البدوي واعجب لما رآه هناك حتى كاد ينسى موعده مع هند ثم انتبه فاذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فهرول حتى خرج من الباب الشرقي ... الدير وقد عادت اليه هواجسهُ وشواغلهُ

الفصل السابع

دير بَحيراء

فركب جواده وما سار قيلاً حتى وصل الى مرتفع اشرف منهُ على بناء كبير شاهده عن بعد وحولهُ الاشجار [illegible] سار يظهر من لباسهِ انه من اهل بصرى فسا[illegible] بناء فقال هو دير بحيراء يا سيدي

فساق جواده حتى دنا من الدير وهو يخاف ان تكون هند قد سبقته اليه على انه يعلم ان المسافة بين الدير وقصر الغدير لا يمكن قطعها باقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر · واخذ يتأمل الدير فاذا هو بناءان احدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب علم انها كنيسة والآخر صومعة على رابيه · فترجل وشد جواده الى شجرة ولو تركهُ مطلقاً ما خاف فراره لانه اصيل ومشى نحو الكنيسة فاذا هي مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء فدخل [illegible] حتى جاء البيعة فرأى المكان ديراً وفيه كنيسة وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اليونانية وهي لغة الكنيسة الشرقية الى ذلك العهد وبها تؤلف الكتب الدينية وسمع بعضهم يتكلم اللاتينية وهي لغة الحكومة وبها تصدر اوامرها [2] وبعضهم يتكلم اللغة السريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة اهل تلك البلاد بعد السبي وشاهد بعضاً آخر يتكلم لغات اخرى فسأل عن سبب هذا الاختلاط

(١) السيرة الحلبية (٢) جبن

فقال له بعضهم ان مدينة بصرى مركز اسقفية بلاد العرب الكبرى وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى ما تحتها من الاسقفيات[1] فدخل البيعة فزار هيكلها وقبل صورها ثم سأل عن دير بحيراء فقيل له هو صومعة بالقرب من هذا الدير

فسار اليه فاذا هو على رابيه ولكنه عجب لنوع بنائه ولم يكد يصدق انهُ بيت لانهُ عبارة عن خمسة احجار ضخمة اربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع واحد ورأى الناس يفتحونه و يغلقونه بكل سهولة[1] فسأل رجلاً واقفاً الى جانبه يظهر من هيأته ولباسه انهُ من اهل دمشق . فقال له ما هذا البناء وكيف يصنعون الابواب من الحجارة فاجابهُ ان هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لان ارضهم صخرية والاخشاب فيها قليلة فيصنعون مصاريع ابوابهم ونوافذ بيوتهم واجنحتها من الحجر وقد يبنون منزلاً كثير الغرف وفيه النوافذ والابواب والاروقة والسقوف ولا يدخلون في بنائه شيئاً من الخشب قط[2]

فوقف هناك ينظر الى ذلك البناء الغريب ولم يكد يعرف الباب لولم يرَ الناس يخرجون منه فصعد الى الصومعة حتى وقف عند بابها فاذا هي غرفة مظلمة أشبهُ شيء بالمغارة لخلوها من النوافذ الاَّ نافذة ضيقة في بعض جوانبها فدخل فرأى ارض الغرفة حجراً واحداً ايضاً في جدرانها صورٌ امام كل صورة مصباح ضعيف النور . وفي بعض جوانب المكان راهب هرم قد ارسل لحيتهُ على صدره وتجعد جلد وجهه الاَّ انفهُ فانهُ ما زال بارزاً كبيراً

(١) انسكلوبذية الاثار الديية (٢) دائرة المعارف (٣) فوجية

وقد تناول بيده سبحة طويلة وجلس الاربعاء على حجر منحوت كالمقعد والتفَّ بثوبه الرهباني والسبحة في يده والناس يدخلون اليه يتبركون بتقبيل كفه وهو يحرك شفتيه كانه يدعو لهم . فمن زاره سار الى الدير لزيارة الكنيسة وبجوار الكنيسة غرف لمن اراد الاستراحة او الاقامة

فتأثر حماد لمنظر ذلك الراهب المرم اذ تمثلت لهُ فيه مظاهر الشيخوخة واضحة وضوحاً تاماً ولكنهُ لاحظ امرًا واحدًا استلفت انظارهُ وذلك انه رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك فتقدم نحوهُ وقبَّل يدهُ فنظر اليه الراهب وتأملهُ كانهُ عرفهُ وامرهُ بالجلوس فجلس وهو اكثر رغبة منهُ في مجالسته لانه ودَّ كثيراً ان يعرف قصة ذلك البناء . وكان حماد قد تعلم كل علوم تلك الايام في مدرسة الرها الشهيرة بالعراق فتثقف عقله وصار محباً للاطلاع . فلما رأى في ذلك الراهب ارتياحاً الى مجالسته سرَّ سرورًا عظيماً وتربع حالاً فقال له الراهب ألعلك من عرب العراق يا ولدي

فتعجب حماد لسؤاله فقال نعم ياسيدي وكيف عرفت ذلك قال عرفته من ملامح وجهك لاني عاشرت عرب العراق زمناً . وهل انت مقيم هنا ام جئت مسافرًا

قال جئت لأفي نذرًا عليَّ لهذا الدير

قال وما هو نذرك

قال نذرني والدي ان لا يقصَّ شعري اولاً الاَّ في هذا الدير وانهُ لا يقصه الاَّ بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك في

احد الشعانين القادم فجئت اليوم لنيل البركة والتمتع بمنظر هذه الصومعة اذ كثيرًا ما حدثنا اهل بصرى عن الراهب بحيراء . ألعلك انت هو ياسيدي

قال لا يا ولدي ان الذي تطلبهُ قد قتلهُ بعض الاشرار غيلة

قال كيف قتلوه ولماذا فاني كثير الميل الى استطلاع خبره . وقد اراد حماد الانشغال بالحديث لتمضية الوقت ريثما تأتي هند لان الانتظار صعب

الفصل الثامن

﴿ الراهب بحيراء ﴾

فتنهد الشيخ تنهدًا عميقًا وحملق عينيه وقد نسي شيخوختهُ وكأن شبابهُ عاد اليه واخذ يمشط لحيتهُ باصابعه وقال اما بحيراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا اظن الارض تجود بعده بمثله . اما حكايته فقد وقفتَ على خبير فاعلم ان اسمه الحقيقي ليس بحيراء بل يوحنا [1] واما بحيراء فهو لفظ كلداني معناه العالم المدقق او المحقق لقبوه به لطول باعه في سائر العلوم [2]

فقال حماد وهل عرفتهُ قداستكم معرفة شخصية

قال اني احد تلامذته وقد تتلمذ له كثيرون غيري من جملتهم سلمان الفارسي [3] اما انا فقد رافقته من اوَّل ظهوره الى أواخر ايامهِ

فازداد حماد ميلاً الى معرفة حقيقة بحيراء فقال وما هي حكايته فقد شوقتني الى معرفتها

(١) اسحق الكندري (٢) الدائرة (٣) مذهب تلميذ بحيراء

فقال اعلم يا ولدي ان المرحوم يوحنا بحيراء كان راهباً نسطورياً على مذهب آريوس ونسطور ولا اظنك تجهل هذا المذهب وان يكن اتباعه قليلين لمخالفته مذهب القياصرة

قال حماد نعم اعرف كل شيء عنه وقد اطلعت على دقائقه في المدرسة على احسن عارفيه

فقال الراهب فلا حاجة بنا الى شرحه اذاً فانت تعلم ان اساس هذا المذهب انكار الوهية السيد المسيح وان تسميته الها غير جائزة وانهم انتحلوا له اسماً فقالوا يجب ان يسمى كلمة الله وان والدته مريم يجب ان تدعى مظهر الناسوت لا والدة الله [1] قلت لك اني تلميذ بحيراء واعترف لك اني تلميذه في كل شيء ما خلا هذ المذهب فقد قضيت اكثر ايام صحبتي له وانا في جدال دائم معه فلم يقنع احدنا الآخر . اما في العلوم الاخرى فله عليّ الفضل الاكبر فقد اخذت عنه علم الفلك والحساب وعلم الطوالع وسائر علوم هذه الايام وكان لفراسته وحسن نظره يظنه الناس ساحراً . وكان يقيم اولاً بدير في ما بين النهرين بالعراق وكنت اختلف اليه هناك اتلقى عنهُ بعض العلوم ولم اكن اعرف ما يذهب اليه . فلما اطلع رئيس الدير على انتحاله الاريوسية غضب عليه واخرجه من الدير فسار قاصداً دير طورسيناء في العقبة على حدود مصر فسرت انا معه للانتفاع بعلمه وحباً في خيره لعلي اقنعه وارده الى مذهب الكنيسة فرحب بنا رهبان طورسيناء واعجبوا بعلمه وفضله فاقمنا هناك مدة . ثم ورد كتاب من ديره الاول الى رئيس دير طورسيناء ان يخرجهُ من ديره

(١) دائرة المعارف

فأمرهُ بذلك او يتحول عن مذهبه فخرج وخرجت انا معه واتينا الى هذا الدير واقمنا في هذه الصومعة معاً الى امد غير بعيد فانه ذهب الى مكان في جزيرة العرب لم يسمه ولم اعد اراه من ذلك الحين ثم علمت ان بعض اليهود قتلوه غيلة (١)

فقال حماد ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب اليه

قال كلا ولكنني ظننته ذهب الى الحجاز لحادثة جرت معه على مشهد مني منذ نيف واربعين سنة

قال حماد وما هي

قال جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب او غيرها ان تقف هنا للاستراحة من حرّ الصحراء والاستقاء فيجلس بحيراء بينهم وخصوصاً اذا كانوا من الوثنيين او المجوس — وقد اجلسُ انا معه ايضاً — فيأخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم الاّ خيراً . وكان يعتقد ان الله ظهر له في الرؤيا وانبأهُ انه سيكون واسطة لهداية بني اسماعيل سكان جزيرة العرب . لان هؤلاء العرب كانوا يعبدون الكواكب او الاوثان الاّ جماعة منهم كانوا نصارى او يهوداً وجماعة اخرى كانت تقر وتصدق بالبعث والنشور والثواب والعقاب وفئة قليلة كانت تقر بالخالق وتنكر البعث (٢) فكان بحيراء يفكر ليلاً ونهاراً في مصير تلك الجزيرة واهلها فرأى مرة رؤيا قصها علينا قال « رأيت فتى جميل المنظر شهماً مولده ببرج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل علمت انه هو الذي سيهدي ابناء جلدته بني اسماعيل الى معرفة الله وان به يقوى امرهم ويشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذللون ابناء عمهم بني اسحاق

---

(١) دائرة المعارف (٢) المسعودي

ويتسلطون عليهم مدة كما اشار اليه دانيال في نبوته وانه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة »[١]

فاتفق منذ نيف واربعين سنة اي في نحو سنة ٤٨٠ بصروية[٢] ان قافلة من قوافل الحجاز وصلت هذه الساحة وفيها جماعة كبير من عرب قريش الذين يقيمون في مكة وعندهم مقام شهير يأُمه الناس من سائر انحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة · وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة ولهم نسب وشرف يتصل باسماعيل · فنزلت القافلة تحت تلك الشجرة الكبيرة التي تراها شرقي هذه الصومعة فظللتهم جميعاً[٣] وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وانزلوا الاحمال التماساً للراحة ثم قدموا للاستقاء · فخرج بحيرا لمخاطبتهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلاماً جميلاً تلوح عليه ملامح المهابة والنجابة والذكاء فلما رآه بغت والتفت فقال لي انظر الى هذا الغلام فانه مولود في البرج الذي قلت لكم عنه وهو الذي سيهدي بني اسماعيل · ثم سأل كبير التجار عنه فتقدم رجل كهل تتجلى في وجهه دلائل الجلال والوقار فخاطبه بشأنه فقال من يكون هذا الغلام · فقال هو ابن اخي فانبأه بحيرا بمستقبله وقال له احذر عليه من اليهود فانهم اذا عرفوه كادوا له كيداً[٤] وسأله عن اسمه فقال اسمه محمد واسم عمه ابو طالب · واقام اولئك الركب عندنا مدة وقد آنست من بحيرا

(١) دائرة المعارف (٢) التاريخ البصروي يبتدئ سنة ١٠٥ بعد الميلاد وهي السنة التي اتخذ الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوها تروجانا الجديدة وهو تاريخ مشهور كانوا يؤرخون به فيقولون ان البناء الفلاني بني سنة ٥٢٠ بصروية مثلاً ويريدون انه بني سنة ٥٢٠ بعد صيرورة بصرى عاصمة

(٣) ابن هشام (٤) السيرة الحلبية

اكراماً لهم وترحاباً بهم لم اعهده به مع غيرهم . ثم ساروا الى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك الى مكة ثم كانوا كلما مروا بنا اقاموا عندنا كالعادة

فقال حماد وهل صحّت نبوة بحيرا

قال نعم لأن ذلك الغلام القريشي اصبح نبياً كبيرًا تسمى ديانته الاسلام وقد انتشرت سطوته في كل جزيرة العرب ويسمى اتباعه المسلمين . ويحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن اعماله وحروبه وانتصاراتهِ ما يفوق طور التصديق . فسكان جزيرة العرب بعد ان كانوا قبائل مشتتة يغزو بعضها بعضاً اتحدت كلها قلباً وقالباً تحت لوائه ولا يبعد ان يحمل بهم على الشام والعراق

فقال حماد واظنني سمعت شيئاً عن هذا النبي يوم كنت في العراق فما رأيك اذا حمل على الشام والعراق

فبهت الشيخ وفكر برهة ثم اغرورقت عيناه بالدموع وقال آه يا ولدي لا أظنه ألا يستولي عليهما جميعاً لما نعلمه من اختلال الاحوال فان قيصر الروم لم يكد يتم حروبه مع الفرس وهذه قلاعنا وحصوننا لا تزال متهدمة وحكامنا في شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل الشقاء ألا ترى بطاركتنا في جدال دائم على أمور ما انزل الله بها من سلطان فبطريرك الاسكندرية يقاوم بطريرك القسطنطينية ويخالفهما بطريرك انطاكية . وقد كانت ديانتنا واحدة لان السيد المسيح واحد علم تعليماً واحداً فأبت مطامع بني الانسان الاّ الانقسام فتعددت الفرق المسيحية واشهرها ثلاث الآن وهي (١) الملكية القابلون مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع

بين نسطور يوس وكرلس وهم الروم (٢) اليعقوبية القائلون بمقالة كيرلس الاسكندراني ويعقوب البردعاني وساورس صاحب كرسي انطاكية (٣) النسطورية القائلون بقول نسطور يوس[١] وترى الشعوب منقسمة ايضاً مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداء بينها حمانا الله من عواقب الغرور ناهيك باليهود وهم ألدّ اعداء الدوله وقد يبذلون اموالهم وارواحهم في سبيل خرابها[٢]

وما أتم الراهب الشيخ كلامهُ حتى انهكه التعب لما أثر فيه من حال الروم وما خافهُ عليهم من سطوة العرب فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانه كأنه يطلب الاتكاء فنهض حماد وقد علم اموراً لم يكن عالماً بها قبلاً ومال ميلاً كثيراً الى معرفة التفصيل ولكنه خاف التثقيل على الشيخ بعد ما آنس من تعبه ومللهِ وشغل عن ذلك باستبطاء هند عن المجيء فودع الراهب وقبل يده وطلب رضاه وخرج فاذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة فجلس على حجر منحوت قائم تحت شجرة كبيرة قد لعب النسيم في اوراقها وتطايرت الطيور بين اغصانها فالقى ظهره على جزعها واخذ يفكر بما سمعه من ذلك الراهب فغلب عليه الملل وهو لم ينم بالامس الا قليلاً فغمضت عيناه لحظة رأى فيها حلماً من قبيل ما سمعه من الراهب فخيل له انه سار الى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وان نبيهم قال لهُ « انت لست حماداً وستلاقي عذاباً ولكنك تجد بعد العسر يسراً »

ثم افاق من صوت صهيل الخيل فالتفت فاذا بفارسين بلباس اميرات البلقاء وراءَها خادمان وقد وقف الفارسان تحت شجرة بالقرب منه فنهض

(١) الكندي (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١

للحال فرآهما ثنائمان ولكنه عرف من الفرسين انها هند واحدى خادماتها فتشاغل ببعض الشؤون لئلاً ينتبه احد الى حاله ولبث ينتظر اشارتها وقلبه يخفق فمشت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكاً حتى صعدت اليها ودخلت الباب فانتظر هنيهة فلم تعد . فمشي نحو الصومعة يتردد بين الصعود والبقاء فاذا باحدى الملثمتين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها انها ليست هند . فلما دنت منه قالت له أتعرف تاجراً يبيع الحلي كان واقفاً هناك فادرك ان هنداً تسأل عنه باسم أحد باعة الحلى لتخفي امره عن الخادمة فاجاب على الفور انا هو ذلك التاجر فما غرضك

فقالت ان سيدتي تفتش عنك

قال وهل تريد ابتياع شيء الآن

قالت نعم فاين بضاعتك

قال هي في مخزني على مقربة من هذا المكان ولكن الحلي التي ابيعها غالية الثمن لا يستطيع اقتناءها الاّ الاغنياء فاذا كانت سيدتك من اهل اليسار أتيتها بما تريد

فتبسمت المرأة تبسم الاستخفاف وقالت نعم انها أقدر نساء حوران والبلقاء على ذلك

فقال اين هي

قالت في الصومعة فتفضل

فصعد وركبتاه ترتجفان حتى دخل الصومعة فرأى هنداً جالسة على مقعد من الحجر فلقى التحية وتجاهل قائلاً أين التى تريد الحلى

فقالت هند هي انا فاين حلاك

قال هي في الخزن على مقربة من هذا المكان هل اذهب لاستجلابها

قالت لا ندري ما نحتاج اليه منها فربما اتيت بما لا حاجة لنا به وتركت ما كانت اليه حاجتنا

فقال قولي ما هي انواع الحلى التي تحتاجين اليها فآتيك باحسن ضروبها واعود حالاً ولا سبيل لنا غير ذلك

قالت حسناً تفعل فنحن نحتاج الى اقراط من اللؤلؤ واساور من الذهب المرصع فأت بما تصل اليه من احسن انواعها

الفصل التاسع

﴿ لقاء الحبيبين ﴾

فقال سمعاً وطاعة وعاد فركب فرسه وسار باسرع من لمح البصر حتى دخل بصرى وهرول الى سوق الصاغة وكان لا يخلو جيبه من بدرة لما قد يحتاج اليه في غربته فابتاع بضعة اساور وبضعة اقراط من اجمل الازياء الشائعة اذ ذاك وعاد حالاً . فلما دخل الصومعة لاقاه بعض الخدم وقال له الملك بائع الحلى قال نعم قال ان مولاتنا تنتظرك في بعض غرف دير بصرى [1] فعاد الى الدير فلاقته ودخلت به على سيدتها وهي في الغرفة على انفراد وكانت قبل مجيئه مضطربة استعداداً لساعة اللقاء فلا تسل عن خفقان قلبها

(١) دير بصرى اسم من اسمائه دير بحيرا . ويقال له ايضاً دير نجران ودير الباعقي (المعجم)

واصطكاك ركبتاها ولكنها تجلدت لئلا تلحظ خادمتها منها شيئاً يكشف حقيقة امرها فلما دخل استقبلته استقبالها رجلاً غريباً فأمرت له بوسادة جلس عليها وجلست هي على وسادة اخرى

فجعل حماد الاساور والاقراط بين يديها فقلبت بعضها وتظاهرت انها اعجبت باحدها . فقالت ما رأيك بهذه الاساور . قال هي من صنع القسطنطينية وصناعتها دقيقة يفضلها العارفون على هذا النوع فانه صنع خرسان

قالت له باي ثمن تبيعها قال انها غالية الثمن يا مولاتي فهي تساوي خمسماية دينار (ولم تكن تساوي حقيقة الاّ عشرة دنانير)

قالت لا باس من غلائها ولكنني لا استطيع ابتياعها ما لم أرها لوالدتي

فقال حماد حسناً تفعلين واين هي والدتك

قالت في منزلنا على بعض غلوات من هذا المكان ولكنك لا تعرف من نحن فلا تأمن ان نسير بها جميعاً فسارسلها مع هذه المرأة وابقى انا هنا ريثما تعود فاذا استحسنتها والدتي ارسلت الثمن معها فاشتريتها ودفعت الثمن والاّ فاني اعيدها اليك كما هي

فقال ولكنني لا استطيع البقاء هنا طويلاً

قالت لا تخف فان هذه المرأة ستسير على جواد سريع الجري واذا ابطأت عوضنا عليك الخسارة كن مطمئناً

فقال ارجو اذن ان تحتفظ بالاساور لئلا يقع شيء من احجارها اثناء التقليب

قالت لا تخف اني احرص منك عليها ولولا ذلك لارسلتها مع ... ا

من الخدمة وهي ايضاً متى عادت نالت حظها من بضاعتك · قال حسناً

فتناولت الاساور ولفتها في منديل وناولتها الى الخادمة وقالت لها اركبي الفرس وخذي معك الخادمين واسرعي الى والدتي واعرضي هذه الاساور عليها واخبريها عن الثمن كما سمعتِ وعودي بالجواب حالاً

قالت سمعاً وطاعة وركبت وسارت وقد أملت ان تحظى من مولاتها بهدية من تلك الحلى

اما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد فقضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم خاطبته هي قائلة

لقد احسنت فهم مرادي يا حماد

فنظر اليها وتنهد وقال كيف لا افهم مرادك وانت اذا نطقت انما تنطقين بلساني او افتكرت انما تفتكرين بجناني · فاطرقت حياءً برهة تفتش بين الحلى الملقاة امامها كأنها تريد التكلم ويمنعها الحياء · ولبث هو ينظر الى وجهها وقد هام بحسنها وانبهر لما يتجلى في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من اشعة الذكاء وما زال صامتاً يرجو ان تفوه بكلمة تجر الحديث ليشكو ما في فؤاده

فقالت اظنك تستخف بي وتحسب جسارتي هذه وقاحة

فتنهد وقال حاشا لي ان ابخس فتاة غسان حقها او ان اجحد النعمة التي اولتني اياها بهذا الاجتماع وكيف احظى بمشاهدة بنت ملك غسان ولا اعد نفسي اسعد خلق الله

قالت ان هذه الملكة اصبحت اسيرة بكاء لا تعرف ما تقول فقل انت

لعلك تعبر عن بعض مابي

قال اذا سمحت مولاتي اقول اني اسيرها وعبدها ولا احسب تنازلها الاَّ منة وكرماً

قالت اتعلم يا حماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهو من بيوت الله

قال لا ادري يا سيدتي فلعلكِ أمرتِ باجتماعنا لتوبيخي على جسارتي لاني تطاولت على مقام الملوك

قالت كلاَّ فانك لم تفهم مرادي ولا أنت تتكلم بلساني ولا تفكر بجناني

قال ماذا اذن

قالت وقد توردت وجنتاها جئت لأُهنئك بتلك الدرع التي دلَّت على سبقك فانت السابق وفي الاشارة غنى

قال اما تلك الدرع فانها اثمن ما نلت وسأنال من خيرات هذا العالم فهي واقيتي من نوائب الزمان وتعويذة اتقي بها جبائل الشيطان · ولكن من اين لي ان اكون السابق وانا رجل غريب لا تعرفون من أمري شيئاً والمقام مقام ملوك

فنظرت اليه بطرف عينها وقد ذبل جفناها وابرقت حدقتاها وقالت ولكن لكل مجتهد نصيب وما الملك يا حماد الاَّ من ملك القلوب وتسلط على العواطف لا من جميع الاموال وحاز حطام الدنيا الفانية · وما السابق الفائز الاَّ من حاز جائزة السباق ولبس الدرع على مشهد من الناس

فالتفت اليها وقد تحقق رسوخها في حبه وقال ذلك سخاء عهدناه ببني غسان فهل تتعطفين على عبدك بكلمة تشفي غليلهُ وتبرد لظاه

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام وقالت ماذا اقول وكل جارحة من جوارحي تنطق بما في هذا القلب (واشارت الى قلبها) ولكنني مالي ارى حماداً يبخل علينا بكلمة

قال بماذا يبخل حماد ولم يبق لهُ ما يجود به ولا يرى حاجة الى القول وليس جارحة من جوارحه الا وقد كتب عليها انهُ اسير هواك

فنظرت اليه وقد اخذ الحياء منها مأخذاً عظيماً وقالت اعذرني يا حماد على ضعفي لجنس النساء مهما بلغت قوتهُ انه ضعيف فاشفق وقل كلمة

فمد يده الى يدها فاذا هي باردة كالثلج وخيل لهُ انها ذائبة بين انامله وما لمسها حتى شعر بقشعريرة اشبه بمجرى كهربائي سرى في سائر اعضائه ولا ريب انها شعرت هي بمثل ذلك ايضاً فجعل يدها بين يديه وقال اقول كلمة وارجو ان لا تكون ثقيلة عليك

فاطرقت ثم قالت قل لقد نفد صبري واخشى ان يخوننا الوقت

قال اعلمي اني اسير حبك ولا ابغي من هذا العالم الاَّ رضاك فماذا تقولين

قالت انك تعبر عن عواطفي

فادرك حماد انها تحبه وتميل اليه ولكنهُ مازال خائفاً من ان يسبقه ثعلبة اليها مع انها غير مخطوبة لهُ ولا هي تحبه ولكنهُ خاف ان تحلو في عينه حسداً فيطلبها و يتراضى والداها جبلة والحارث ويتغلبا على رأيها فاراد اختبارها من هذا القبيل فقال لها وما شأن ابن الحارث

قالت لا شأن لهُ فهو حارث غير حاصد . فقال وما شأن من لم يحرث او يغرس

قالت ان الغرس غرس الله واذا لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون

فضغط على اناملها وهم بتقبيل يدها فمنعه الحياء فاعادها وهو يرنو اليها وقال ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبه فلا نأمن ان يطالبنا ابن الحارث غداً بحقوق القرابة

قالت ان من القلب الى القلب دليل ولا نعرف لنا قرابة توجب مطالبة ولا نحن نرضى بالتقرب منه بعد ما عرفناه من خساسته

فقال وما الذي دلك على خساسته

قالت لقد دلتني تلك القصبة فانها جماد ناطق

فعجب لاشارتها الى القصبة وظهر انها عالمة بامر ثعلبة بالامس فاراد تحقق ظنه فقال وماذا قالت لك القصبة

قال لقد نطقت نطقاً صريحاً ان ابن الحارث جبان دنيء

فقال وقد ملّ الالغاز فما قولك بمن لا تعرفين حسبه ولا نسبه

قالت فمن كان قلبه دليله لا يخش العطب فحماد لا يمكن ان يكون من السوقة لان اخلاقه جديرة بالملوك فاذا لم يكن ملكاً فهو امير جليل

قال ولعله من قوم بينهم و بين والدك عداوة

فجذبت يدها من بين يديه بلطف وتنفست الصعداء ولسان حالها يقول

أحبك ما لو كان بين عشائرٍ * وقد كانوا اعداء لجرّ التصافيا

فلم يبق عنده ريب بصدق حبها له فاعتدل في مجلسه وقال لها ان اسيرك يا حبيبتي ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقة بل هو امير ابن امير ولكنه دون مقام جبلة ابن الايهم ملك غسان

فاطمأن بالها بانه ليس من السوقة فارادت ان تعرف من اي القبائل هو وكانت قد لحظت من لهجته انه من امراء العراق فقالت ألعلك من امراء العراق

قال نعم يا سيدتي فهل غيّر ذلك شيئاً من شعورك

قالت كلاّ بل انت فوق ما تمنيت فانكم بنو لخم اصحاب نسب وحسب ومنكم بنو ماء السماء [1]

... قال اما وقد تنازلت الى حبي فاني طوع اشارتك فهل ترين لهذا الاسير حظاً من قربك

قالت لقد ابنتُ لك مرادي وكشفت لك عواطفي وانت على ما رأيتهُ فيك من الحزم والدراية فلا تعدم وسيلة في استرضاء والدي

فعظم عليه الامر لعلمه ان استرضاء والدها من اصعب الامور عليه وهو يعلم منزلته منها فضلا عن الضغائن بين لخم وغسان فبهت برهته ولم يتكلم

فابتدرته قائلة ما بالك تتردد فهل خفت الطريق

قال لا اخاف شيئاً في سبيل قربك ولكنني ارى الطريق وعراً لما اسسه اجدادنا من الضغائن بين لخم وغسان . فتبسمت وقالت لا تخف ياحماد ان ما يصعب عليك يهون عليّ فكن مطمئناً اني معك وهذا يكفي

قال قد رضيت بذلك فان رضاك من رضى المولى وها اني قد كرست حياتي في خدمتك

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب واظلمت الدنيا ولم تعد تتعارف

(١) امراء الحيرة

الوجوه فهماً بالخروج من الغرفة وفيما هما يودعان والقلبان يخفقان ويودان البقاء هناك طول العمر اذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغتة · فقال حماد ما الذي راعك يا حبيبتي

قالت اظن ثعلبة قادماً للدير فلعله علم باجتماعنا فجاء يريد بنا سوءاً فالاولى ان نفترق لئلا نفتح باباً للكلام

وما أتمت كلامها حتى دخل عليها رجل عليه ملابس الباعة ببصرى ومدَّ يده فالقى قطعة من الحلى في جيب حماد ثم استخرجها مدعياً انها كانت في جيبه وان حماداً سرقها فتناولها الرجل وقال هذه الاساور لي فمن اين جئت بها انها مسروقة من مخزني · فلم يجبه حماد ولكنهُ صفعه على وجهه فقلبه على قفاه خارج الغرفة واذا بجماعة من جند بصرى قد هموا بحماد فامسكهُ احدهم بذراعه وقال له انك سارق· فنفر منه حماد وصاح به قائلاً اخساء يا كلب العرب وصاحت بهم هند دعوه فهمس هو في اذنها « احذري ان تخبريهم من انت لئلاَّ يفتضح امرنا » فتجمهروا حوله وهموا بالقبض عليه ثم سمعوا صوتاً يقول « امسكوا هذا اللص وائتوني به حياً او ميتاً انه جاسوس ذميم » فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج نحو الصوت والجند يفرون من امامه ويتفرقون حوله ولم يستطع احد القبض عليه فصاح به تقدم انت يا جبان لنرى من هو الخائن · واستل حماد خنجره وهجم على الجموع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفهُ بينهم فاعترضه احدهم وهمَّ بالقبض عليه فطعنه حماد طعنة أصابت كتفه فصاح من شدة الالم فتفرق الناس فاراد حماد الفرار خوف الفضيحة فتذكر هنداً فخاف ان يفتك بها ذلك الخائن فعاد اليها وقال لها انجي

بنفسك لئلاَّ تقع كلانا وفي وقوعك عار علينا . فقالت حاشا لي ان أتركك بين ايدي هؤلاء اللئام والله لن يظفر منك بطائل — وهمت باحدهم فامتلت حسامهُ وهجمت على الجنـد وكانوا عديدين فتفرقوا ايدي سبا فقالت خسيء الانذال هلمَّ الي وخرجا معاً والليل قد سدل نقابه فاسرعا الى فرسيهما فركبهما وسارا

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح الغدير كما قدمنا فقضى ليلتهُ هاجساً في امر حماد وما ناله من السبق في ذلك اليوم وكيف تظاهرت ابنة عمه بميلها اليه واستخفافها بثعلبة وكان كلما تصوَّر هنداً تلبس حماداً الدرع والناس يرتلون وينشدون اتقدت نيران الغيرة والحسد في صدره وهاجت فيه حاسة الغدر وشعر بميل نحو هند حتى أصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد ان كان يترفع عنها وكل ذلك من عوامل الحسد فان الرجل قد يرى فتاة فلا يعتدُّ بها ولا يظن بها نفعاً فاذا سبقه اليها احد وآنس منها ميلاً الى هذا واستخفافاً به حسنت في عينيه وخصوصاً اذا وقع بينهما تناظر او تسابق . فكان ثعلبة يتوقع من خطبته هنداً انتقاماً من حماد وتشفياً من هند لانه لحظ منها شماتة به ففي حرمانها من حبيبها شفاءٌ لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة . فبات ليلتهُ تلك في قصر الغدير يفكر في ذلك فلما أصبح اخذ يتجسس لعله يعلم شيئاً من اخبار هند فسار الى المطابخ وتظاهر بالتفرج بمناظر الاطعمة وكيفية ذبح الذبائح فسمع بعض الخدم يتحدثون بعزم هند الى دير بحيراء في ذلك اليوم

أما هند فلم تستطع الخروج قبل ذهاب ثعلبة فلما علمت انه سار مع

والدها ووالدتها تنكرت وسارت كما قدمنا

أما هو فاضطر لمرافقة جبلة وامرأته الى قرب البلقاء استجلاباً لاعجابها ثم عرج الى بصرى فلم يصلها الا عند الغروب فدبر حيلة بالقبض على حماد بتهمة اللصوصية والجاسوسية حتى اذا انتفت الواحدة ثبتت الاخرى فجاء باحدى خماري بصرى واوعز اليه ان ينتحل حيلة يتهم بها حماداً بالسرقة ليكون له بذلك ذريعة للقبض عليه فاذا قبض عليه اتهمهُ بالجسوسية او فتك به بلا تهمة · ولتمام حيلته كان ابوه الحارث قد سار الى بيت المقدس في عصارى الامس اثناء غياب ثعلبة في السباق وسبب ذهابه ان هرقل امبراطور الرومان ويسميه العرب قيصر الروم كان قد تغلب على الفرس واخرجهم من الشام وانتهى من حروبه · معهم في تلك السنة وكان قد نذر انهُ اذا كشف الله عنهُ جنود الفرس سار ماشياً على قدميه من حمص الى بيت المقدس (١) فلما نصره الله بعث الى الحارث بن ابي شمر ان يوافيهُ الى بيت المقدس ليعد لهُ الانزال ويرمم ما تهدم من الاسوار والحصون في اثناء الفتح · فاستغنم ثعلبة غياب والده واستخدم الجند كما شاء فجاء بشرذمة منهم الى الدير وفعل ما فعله كما قدمنا

فلما سمع صوت حماد ورأى السيف بيد هندفر هو ورجاله على ان يكمنوا لهم في بعض الطريق



(١) السيرة الحلبية جزء ٢

الفصل العاشر

﴿ النجاة ﴾

أما حماد وهند فساقا جواديهما نحو صرح الغدير ولكنهما سارا في طريق غير الذي ظنا الخادمة تعود منه لئلا تلتقي بهما فيكشف امرهما فلما خلوا في الصحراء وامنا من العيون . قال حماد تباً لذلك الخائن والله لوددت ان تكون تلك الطعنة في صدره فنتخلص من شره

فقالت ياليتها كانت كذلك ولكن هذا الخائن سينال جزاء فعلته هذه على انني اخشى ان يكون قد كمن لنا في بعض الطريق

فقال حماد طيبي نفساً يا حبيبتي فان جنود غسان كلها بل جنود قيصر وكسرى لا تستطيع ان تمس شعرة منك ما دمت حياً مقيماً الى جانبك ولقد شهدت منكِ اليوم شجاعة حقرتني في عيني نفسي فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء . واني ساعة وقفت وذلك الحسام بيدك حسبت الجنود تفر من امامك وشعرت بقوة فوق العادة ولو اجتمعت حولي جيوش محيشة ما حسبت لها حساباً

قالت تلك دوافع المحبة قد تذهب برشد صاحبها فيقتحم الاهوال ولا يبالي بحياتهِ ولعلي اتيت بما اواخذ عليه ولكنني فعلت ذلك مدفوعة بحب حماد

فقال لا تكرهوا أمراً لعله خير لكم فقد شعرت بعد هذه الواقعة ان روابط المحبة بيننا قد زادت متانة ولا أرى في السماء او الارض ما يمكن ان

يحول بيني وبينك

فاوقفت هند فرسها كأنها تريد التصريح بامر ذي بال فاوقف حماد فرسهُ فمدت يدها اليه فمد يده وتصافحا· وقالت أُعاهدك عهداً مقدساً اني باقية على حبك الى آخر نسمة من حياتي ولو حال دون ذلك كل مصاعب بني الانسان

فنسي حماد موقفهُ لعظم غرامه بها وسروره بما شاهده من حبها وقال لها ان هذا العهد يا هند لينسيني كل اسباب الشقاء ووالله لاقتحمنّ اعظم الاخطار واجوب الفيافي والقفار في سبيل حبك يشهد علينا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله اكبر الشاهدين

فاطرقت هند وقد غلب عليها الحياء ولسان حالها يقول وانا اعاهدك بذلك ايضاً

فقال لها حماد اما وقد تعاهدنا على الحب فلتكن تلك الاساور عربون المحبة وقد قدمتها لك عن غير قصد وهي تقدمة حقيرة بجانب مقام بنت ملك غسان فهل تقبلين بها تذكاراً

فنظرت اليه وفرسها يشاغلها بالاقدام والاحجام كأنه شعر بما يتقد فوقه من لواعج الغرام وقالت ذلك يدلك ان على حبنا مقدر منذ الازل وقد اراد الله ان تكون هذه الاساور عربوناً لذلك الحب فسأُحافظ عليها ما بقيت ولكن اتعلم ما هو تذكاري عندك· قال كيف لا اعلم وصلصلة تلك الدرع لا تزال ترن في اذني فهي ستقيني غائلات الزمان باذن الله

قالت قد احسنت فهم المراد حرسك الله ووقاك

فلما تبادلا العهد وخزا الفرسين ولم تمض برهة حتى صارا على مقربة من صرح الغدير وقد عرفاه من النيران الموقدة بالقرب منه وهي نار القرى كان يوقدها الغسانيون لاهداء المارة ممن يريدون طعاماً اوميتاً (١)

فوقف حماد وقال هذا قصرك فسيري اليه فاني عائد الى منزلي

فقالت اخاف عليك ذلك الخائن واخشى ان يكون كامناً برجاله في بعض المكامن والليل بهيم فربما اراد بك سوءا

فهزّ رأسه استخفافاً وقال ذريه وكل جند ابيه ولا تخافي عليّ بأساباذن الله . فالحت عليه ان يدخل القصر بحيلة الضيافة فقال انك لتزيدينني رغبة في المسير منفرداً واني لاستحيي من نفسي ان اخاف ابن الحارث ورجاله ولو كانوا الوفا . فلما لم تجد سبيلاً الى اقناعه ودعته فقبض على يدها وضغط عليها وجدّدا الوعد وعداً طاهراً وقالت سر بحراسة المولى وكلائه وسارت هي نحو القصر فلبث هو واقفاً حتى تحقق دخولها الحديقة فتحول نحو منزله وهو على مسافة بعيدة عنه فوخز جواده وجدّ في المسير زميلاً وقد ترك قلبه في صرح الغدير ونسي نفسه فلم يشعر الاّ وهو في مكان لم يعرفه . فاوقف جواده ونظر الى ماحوله فاذا هو في ارض قفرة لم يعهدها قبلاً فتفكر برهة لعله يفقه اين هو فلم يستطع فنظر الى النجوم وابراجها وكان خبيراً بعلم الفلك فرأى انه اخطأ الطريق وان منزله في جهة غير التي كان سائراً فيها فشكر علم الفلك لانه كان وسيلة في اهدائه الى سواء السبيل وحوّل عنان جواده نحو الجهة التي ظن انها تؤديه الى منزله حتى وصل الى البساتين والمغارس

---

(١) صناجة الطرب

وفيما هو سائر زميلاً بين الاشجار والطريق كثيرة الحصى سمع وقع حوافر جواده مسرع نحوه فاصاخ بسمعه واحدق بعينيه لجهة الصوت فاذا به يقترب نحوه فامسك بعنان جواده حتى مشى خبباً وهو ينظر الى جهة الصوت والظلام حالك فاذا بالفارس يدنو منه ثم سمع صوتاً يناديه حماد فعرف انه صوت احد خدمته فاجابه (سلمان) وهو اسم ذلك الخادم قال نعم يا سيدي قف عندك فوقف حتى تقابل فقال حماد ما الذي جاء بك الآن

قال ادر عنان جوادك واتبعني لاخبرك الخبر واسرع فتبعه وسارا اهماجاً وهما لا يتكلمان وقد انشغل خاطر حماد لذلك حتى بعدا عن مساكن الناس وانفردا في الصحراء فامسكا عناني الفرسين فقال حماد قل يا سلمان ما سبب هذا العدو وما الذي جئت من اجله

قال جئت بامر من سيدي والدك ان تفرّ من غسام الى عمّان

قال ولماذا . قال لان صاحب بصرى بعث شرذمة من رجاله فقبض على سيدي والدك واستولى على كل ما في البيت

فبغت حماد وقد علم السبب ولكنه تجاهل وقال ولماذا فعلوا ذلك

قال زعموا انه جاسوس من ملك العراق فساقوه مخفوراً الى بصرى وسمعت الرجال يسألون عنك في بادىء الرأي فلما لم يروك قبضوا على سيدي ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئاً فأسرّ اليّ والدك ان اقتفي اثرك وافرّ بك الى عمان تنتظره هناك شهراً فان ابطأ علينا بحثنا عنه في بصرى

قال وهل أصابوه بسوء

قال كلاّ ياسيدي ولكنهم اوثقوه وساقوه الى بصرى ولا بد من ان

يقتصوا اثرك للقبض عليك وهذا ما حمل سيدي على تحذيرك فنحن ذاهبون الى جهات عمان نقيم فيها متنكرين شهرًا ثم يقضي الله بما يشاء

فانقبضت نفس حماد عند ذلك وكادت تخنقه العبرات وعلم ان الذين قبضوا على والده هم ثعلبة ورجاله فحدثته نفسه ان يثني عنان جواده الى بصرى وقد كبر عليه الفرار ولكنه اطاع والده وسار مع سلمان صامتاً يفكر في حاله مع هند وكيف ساقه الحب الى هذه العاقبة · فبعد ان مشيا مدة صامتين قال حماد اتعرف هذه الطرق يا سلمان

قال نعم يا سيدي اعرفها جيدًا وقد طرقتها مرارًا مع سيدي والدك منذ بضعة اعوام · وكان سلمان شاباً في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في اكثر اسفاره حتى حنكته التجارب وعلمته الايام وكان نبيهاً فطناً يستهلك في خدمة مولاه وكان عبد الله يركن اليه في مهماته ويثق به في معظم اعماله فلما تحقق وقوعه في الاسر عهد اليه العناية بحماد وهو يؤمل ان يتخلص من اسره فيجتمع به فامره ان يسير به الى عمان وهي مدينة قديمة واقعة على نحو ستين ميلاً من بصرى جنوباً مع انحراف نحو الغرب كانت تسمى في عصر الاسرائليين (ربَّان عمون) وكانت عاصمة العمونيين الذين تضافروا هم والموابيون واخرجوا سكان شرقي البحر الميت والاردن واحتلوا مكانهم · ولهذه المدينة ذكر كثير في التوراة وقد تخرَّبت مرارًا حتى بناها بطليموس فيلاذلفوس ملك الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد وسما فيلاذلفيا[1] ثم صارت في اوائل الميلاد اسقفية ذات اهمية كبرى يقيم بها اسقف تحت

(١) مري

ادارة اسقف بصرى الاكبر وفيها كثير من الابنية الرومانية كالقلاع والهياكل والكنائس (١)

وما زال حماد وسلمان يسيران زميلاً حتى انتصف الليل وبعدا عن بصرى كثيراً فوقفا وقد تعبا وتعب الجوادان وطلع القمر وكان في ربعه الاخير فارسل أشعته على تلك السهول والجبال والارض خالية لا أثر للآدميين فيها ولكنها مكسوة بالغابات واكثرها من شجر الزيتون والجوز فسارا حثيثاً وحماد غارق في بحار التأمل تتقاذفه الهواجس وقلبه يخفق تارة حنوّاً الهند وطوراً خوفاً على والده فاذا تصور ثعلبه اتقدت نيران الانتقام في جسمه وود لو يلقاه ليقطعه ارباً اربا ولكنه كظم ما في نفسه وعاد الى الحديث مع سلمان والجوادان يجريان على الرمل لا يسمع لحوافرهما صوت والجوّ هادئ وضوء القمر ضعيف.

فقال حماد اخبرني ياسلمان كيف فعل هؤلاء الطغام بوالدي وبالمنزل

قال كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك من الصباح وهو لا يدري الى اين سرت فلما غابت الشمس ولم تأت ازداد قلقه فهمّ بالركوب للتفتيش عنك وفيما نحن في ذلك وقد اسرجت جوادي لارافقه اذ سمعنا صهيل الخيول ووقع حوافرها رتقاطر الرجال عشرات فاحاطوا بالمنزل فسألناهم عن الخبر فقالوا اين الامير حماد واغلظوا بالمقال فسألنا عن أمرهم فلم يجيبونا الا بالشتم والسباب فاجبناهم بمثل مقالهم فهموا بسلاحهم وخيلهم وقبضوا على سيدي الامير بعد ان دافع دفاعاً حسناً وكان اعزل فاوثقوه وسقطوا على المنزل فنهبوه فغنمت فرصة اشتغالهم في النهب ودنوت من سيدي فاوصاني ان اقتفي

(١) معجم البلدان

أثرك واحذرك من المجيء كما اخبرتك ولولا التقادير لقبضوا عليّ ولكني بحمد الله تمكنت من الفرار وجئت اليك

فقال وهل اخذوا متاعنا واموالنا

قال انت تعلم يا سيدي ان المثمنات من الذهب والفضة مكنوزة في مكان لا يعرفهُ احد سوانا ولكنهم اخذوا ما عثروا عليه من الاثاث

فتذكر حماد الدرع فقال وهل اخذوا الدرع التي جئت بها الامس

قال كلاَّ فانها في هذا الخرج على فرسي وقد حفظها الله صدفة لوجودها في الخرج

فسرَّ حماد لبقاء الدرع لانها تذكار من حبيبته هند

وفيما هما في الحديث آنسا نارًا عن بعد فقال حماد وما هذه النار ألعلنا على مقربة من القرى

فوقف سلمان ونظر ما حوله وفكر قليلاً ثم قال ان النور الذى تراه هو في بلدة يسمونها بيت الجمال او ام الجمال (1) فاذا شئت ان نتحول اليها فعلنا والاَّ فاننا سنشرف على جدول فيه ماء نشرب منهُ ونسقي جوادينا ونبيت فيه بقية ليلتنا

قال دعنا من البيوت لئلاَّ ينشكف امرنا



(1) ميريل

الفصل الحادي عشر

﴿ مسبعة الزرقاء ﴾

وسارا حتى اشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق الى المغرب وقد غطته الاشجار من الجانبين فوقفا ونظرا في اعلاه الى اسفلة فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدو الليل وضعف الاظلال لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وقرقرة حبل القر وحفيف الشجر بمرور النسيم وشعرا ببرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءهما وضوء القمر لضعفه لم يكن يريهما الطريق الاَّ بصيصاً · وكانا يسمعان لوقع حوافر الخيل دويا يردده الصدى من جوانب الوادي حتى يخال لهما ان فرساناً آخرين قادمون اليهما ثم لا يلبثان ان ينتبها الى الصدى · على ان هيبة المكان كانت متسلطة عليهما وخصوصاً سلمان فقد كان اكثر وجلاً من حماد ليس لضعف فيه بل لعلمه انهما على مقربة من الزرقاء وهي مسبعة مشهورة بالضراوة وفيها السباع (١) ولكنهُ كتم ذلك عن حماد لئلا يثير هواجسه واتخذ التدابير اللازمة للدفاع عند الحاجة · فظلاَّ سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا الى ما فوقهما فاذا هما في واد بين جبلين والوادي تكسوهُ النباتات وبينهما اشجار هائلة

فشد سلمان الفرسين الى شجرة على مسافة من الماء ريثما يستريحان قبل الشرب وسار مع حماد الى الماء فغسلا وشربا فنزع حماد كوفيتهُ وقص شعره لئلاَّ يرف على كتفيه ووجهه ثم افترش سلمان عباءته على منبسط من الارض

(١) المعجم والمشترك

تحت شجرة جلسا عليها والجوادان يصهلان و يفحصان الارض في طلب الماء

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان بجانبه يحادثه وحماد ساكت وذهنهُ مشتغل بنقيق الضفادع ونعيق الغربان على تلك الاشجار وحفيف الورق والاغصان وخرير الماء ولولا شواغله بهواجسه في والده وهند وثعلبة لخاف منظر ذلك الوادي ولكنه كان لا يزال متهيجاً تتقاذفه الشواغل . فلبث صامتاً لا يتكلم . فتركه سلمان وسار الى الجوادين فحلهما وجاء بهما الى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من مجلس حماد وضم العنانين وربطهما ووقف بجانبهما يتلاهى ببند حسامه وعيناه شاخصتان في قمم تلك الجبال كأنه يتوقع محذوراً وحماد غافل عن كل ذلك بهواجسه . فلما روي الفرسان اعادهما الى مربطهما وجاء الى مجلس سيده فجلس واسند ظهره الى جزع الشجرة . وكان التعب قد أخذ من حماد مأخذاً عظيماً فالتف بعباءته وغلب النعاس عليه فنام اما سلمان فلم يستطع رقاداً خوفاً من غائلة السباع وجعل يتوسل الى الله ان يمضي ذلك الليل بسلام . فما زال كذلك الى قبيل الفجر فذبلت عيناه وهو جالس ولم يكد يغمضهما حتى سمع صهيل الجوادين معاً وقرقعة اللجامين فانتبه ونظر اليهما فاذا بهما قد اجفلا فخفق قلبه واستعاذ بالله ونهض لساعته والتفت يمنة و يسرة فلم ير شيئاً . ثم سمع قرقعة حجارة تتدحرج من قمة الجبل المقابل لهما حتى وصل بعضها الى الماء على مقربة منهُ واجفل الجوادان واكثرا من الصهيل فانتبه حماد وصاح ما هذا يا سلمان

فقال انهض ياسيدي اننا في خطر فنهض حماد واسرع سلمان اليه قائلاً نحن على مقربة من الزرقاء فلعل بعض السباع جاءت ترد الماء ولا خوف

علينا منها لان الماء يفصل بيننا و بينها· فهلم الى جوادك ولنعد من حيث جئنا فهمّا بالجوادين وما كادا يركبان حتى رأيا اسدًا منحدرًا نحو الماء يتمايل عجبًا بمشيته المعهودة والاحجار تتدحرج امامه وعيناه تتلألآن كأنهما سراجان متقدان فحوّلا العنانين نحو الجبل فسمعا صوتًا كالرعد القاصف ارتجت له جوانب الوادي · فقال سلمان هذا هو زئير الاسد يا سيدي فاسرع بنا ولا تخف فان الماء حائل بيننا و بينه

فوخزا الجوادين وصعدا حتى وصلا الى مرتفع والاسد يزأر عن بعد وهما يحسبانه وراءهما لهول صوته ومجاوبة الصدى · فلما وصلا قمة الجبل التفتا الى الوادي وكان النور قد لاح فشاهد الاسد عند الماء يشرب

فقال حماد ما فعلت بنا يا سلمان وكيف جئت بنا الى هذا المكان

قال جئته مضطرًا وعهدي به بعيدًا عن مسبعة الزرقاء والظاهر ان هذا الاسد قد بعد عن عرينه كثيرًا فورد الماء ولا يلبث ان يعود ولا خوف علينا باذن الله · فوقفا برهة ينظران الى مجرى الغدير في اسفل الوادي فاذا بالاسد بعد ان شرب التفت يمينًا وشمالاً وزأر زأرة اصطكت لها مسامعهما وكان ذلك أوّل عهد حماد بالزئير اما سلمان فكان قد شاهد الاسد وسمع زئيره في بعض حدائق كسرى بالمداين ورآها تتغالب وتتصارع

أما حماد فما زال يراعي الاسد في صعوده الجبل وهو يتمايل بمشيته تيهًا وقد ارسل ذنبه فوق ظهره حتى توارى عن نظرهما وكانت الشمس قد اشرقت او كادت واحسّ حماد بالجوع فضلاً عن التعب فقال ما عهدك بالطعام هنا قال خلِّ عنك الاهتمام به فاني كافل كل اسباب الراحة فسر

بنا قليلاً فاننا لا نلبث ان نصل الى دير على مقربة منا نقيم فيه يومنا ضيوفاً ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين · قال حسناً ومشيا برهة فاشرفا على بناء فوقه قبة عليها صليب فعلما انه دير وفيه كنيسة فنزلا هناك فاستقبلهما الرهبان بالترحاب وانزلوهما على الرحب والسعة فقضيا ذلك النهار في الراحة والطعام وكان طعامها قاصراً على الوان بسيطة لكنها لذيذة وفي جملتها انواع من الجبن والقشدة واللبن واللحم المقلي مع البيض وانواع التين المجفف والزبيب والجوز والمشمش المجفف فضلاً عن الخمر المعتقة فان خمر الديور مشهورة بجودتها· ولاقيا من حسن وفادة اهل الدير ما شغلهما عن هواجسهما· على ان حماد لم يهدأ له بال ولا برحت صورة هند من مخيلته كما كانت لما فارقها المرة الاخيرة ليلاً راكبة الى قصر الغدير وهو ينتظر وصولها اليه

فباتا تلك الليلة في الاحاديث المتنوعة واكثرها مما جرَّ اليه حديثهما عن ذلك الاسد · فعلما ان المسبعة بعيدة عن الدير ولكنها في طريقهما الى عمان ولا بد للسائر الى عمان من المرور فيها الاَّ اذا دار في طريق طويل بعيد

ولما اصبحا تزوَّدا وصلَّيا وسارا على بركة الله وسلمان يفضل المسير في الطريق البعيد خوفاً من السباع وحماد يأنف من خوفه ويثنيه عن عزمه

الفصل الثاني عشر

عبد الله في السجن

فلنتركهما سائرين الى عمان ولنعد الى عبد الله وما كان من أمره فقد تقدَّم انه سار الى بصرى بتهمة الجاسوسية مخفوراً وهو يعجب للعنف الذي

اتخذه الرجال في القبض عليه ونظرًا لعلمه ببراءة ساحته تحقق انهُ لا يلبث ان يقف امام الحارث حتى يثبت براءته فيفرج عنه فيذهب الى عمان حيث يلتقي بحماد ثم يأتيان لوفاء النذر بدير بحيراء · وهذا ما حمله على ضرب الاجل شهرًا وقد فاته السبب الحقيقي للقبض عليه

أما الجند فساروا به الى بصرى وحجروا عليه في غرفة من غرف قلعتها جنوبي السور (١) فبات بقية ليلته قلق البال على حماد لئلاّ يأتي المنزل وهو لم يلتق بسلمان فيقع في الفخ فلما مضى الليل ولم يأتوا به ترجح عنده نجاته · وفي الضحى جاءهُ رجلان عليهما لباس الجند الروماني وهو الخوذة من النحاس الاصفر يتدلى منها خصل من شعر اذناب الخيل والادراع من الفولاذ تحتها اثواب حمراء لا تتجاوز الركبة · وكان هذان الجنديان يحمل كل منهما حربة صغيرة وترسًا من الفولاذ وعلى صدر كل منهما شرائط من الحرير مزركشة بالذهب على شكل حرفين احدهما H عرف انه الحرف الاوّل من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيره ولكنهُ الحرف الاوّل من اسم الفرقة التي ينتمي اليها الجنديان · ولكن هذه العلامة قلما كان يتقلدها غير الخيالة منهم (٢) وكان مع الجنديين رجلان من جند ثعلبة بلباسهما العربي فاشاروا الى عبد الله فتقدم وصعدوا به الى طابق علوي في القلعة حتى وصلوا قاعة مفروشة باحسن الاثاث الروماني وفي صدرها عظيمٌ رومانيٌّ علم من لباسه ومقعده انه رئيس الحامية الرومانية كان جالسًا في صدر القاعة على كرسي مذهب يصعد اليه بدرجتين متشحًا بقميص مدرّع بحراشف

(١) ودنتن (٢) تاريخ الرومانيين

من نحاس محلاة بالذهب تحته ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين الاّ قليلاً [١] وكان ضخماً كثير العضل والدهن · وشاهد بين يديه رجالاً اكثرهم في مثل لباسه وهم اهل مجلسه من الروم الاّ رجلاً جالساً بالقرب منهُ عليه لباس العرب عرف انه ثعلبة بن الحارث · فتحقق عبد الله انهم يسوقونه الى قائد جند الروم في بصرى فدخلوا به اليه فوقف متأدباً وهو موثق فخاطبه القائد وكان اسمه رومانوس [٢] بواسطة الترجمان قائلاً ما اسمك

قال عبد الله

قال من اي البلاد انت

قال من العراق

« وما هي مهنتك

« اني من امراء العراق اعيش من ريع املاكي او اتجر ببعض اصناف التجارة

قال وما الذي جاء بك الى هذه الديار

« جئت لأفي نذرًا نذرته لدير بحيراء

« وما هو نذرك

« ان اقص شعر ولدي في العشرين من عمره

فالتفت رومانوس الى ثعلبة وتخاطبا سرًّا ثم نظر ثعلبة الى عبد الله واستقدمه حتى دنا منه فقال له كيف تدّعي انك جئت لقص شعر ابنك وانت مقيم هنا منذ اشهر ولم تقصه

(١) تاريخ المملكة الرومانية الشرقية (٢) السيرة الحلبية جزء ٢

قال لاني نذرت ان لا اقصه الاَّ في احد الشمانين القادم

فضحك استخفافاً بتلك الحجة وقال تلك حجج واهية لا تردُّ عنكم تهمة فانتم جواسيس من قبل ملوك الحيرة ولولا ذلك ما اقمتم في قرية بعيدة وتسترتم عنا وحاولتم اخفاء امركم فمن كان في مثل ما انتم فيه من اليسار لا يترك مدينة بصرى بمتنزهاتها وشوارعها ومرسحها وملاعبها و يقيم في قرية حقيرة مثل قرية غسام فاعترف بالحقيقة لئلاَّ يزداد العقاب عليك

قد قلت لكم الصدق كل الصدق

فقال ليس للصدق نصيب من مقالك وزد على ذلك انكم تدعون بالانتساب الى امراء العراق وقد امسكنا غلامك امس بسرقة

فلم يفهم عبد الله معنى هذا القول وظنهُ يقولهُ ليستطلع شيئاً جديداً عنهُ فقال لعلكم اسأتم الفهم فاننا لانعرف مثل هذه الاعمال ولدينا من نعم الله ما يكفينا مؤونة السرقة او غيرها

فهز ثعلبة رأسه استهزاء ثم اخذ يلاعب شاربيه عجباً وقال قد تحققنا الآن جاسوسيتك وسنكشف ذلك عياناً . ثم قام اليه واخذ يفتش اثوابه وجيوبه بدعوي البحث عن اوراق او اشياء اخرى تؤيد تهمته فوجد في بعضها حقاً فتحه فاذا فيه خاتم فيه فص كبير من العقيق الاحمر فتأملهُ ثعلبة فرأى عليه كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الاقلام التي كانت مستعملة في العراق فحالما قبض ثعلبة على الخاتم ظهرت البغتة على عبد الله ولكنهُ تجلد

فجعل ثعلبة يقلب الخاتم بين يديه و يتأملهُ فلم يستطع قراءته فالتفت الى رجل من التراجمة حولهُ وقال له وهل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم

فاخذه وقرأه وجعل ينظر الى عبد الله تارة والى الخاتم اخرى حتى ظهرت على وجه عبد الله ملامح الخوف والحضور ينتظرون ما يقوله الترجمان حتى ملّ ثعلبة الانتظار فقال له قل ماذا قرأت

قال ان على هذا الفص اسم «النعمان بن المنذر» وعليه اشارة الملك. فبهت الجميع وجعلوا يتأملون ذلك الخاتم واحداً واحداً وينظرون الى عبد الله واخيراً خاطبه رومانوس قائلاً كيف اتصل هذا الخاتم اليك

فاجاب وهو يحاول ان لا يتلجلج وقال ابتعته من بعض الصاغة

فانتهره ثعلبة قائلاً اتقول بعد هذا انك لست جاسوساً وانت تدعي انك ابتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض الصاغة. متى كانت خواتم الملوك تباع في الاسواق..؟ قل ما الذي اوصل هذا الخاتم اليك. فلم يجب فاعاد السؤال عليه ثانية وثالثة فاصر على الصمت

فتفاوض ثعلبة ورومانوس سرًّا ثم قال لعبدالله ان وجود هذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة بخيانتك الاّ اذا اخبرتنا كيف وصل اليك وما هي حكايته

فسكت ولم يجب. فازداد حنق ثعلبه وقال له قل أجب

فقال عبد الله قلت لك اني لا اعرف عنه غير ما قلته لك وهو انه وصل اليّ بطرق العرض في سوق الصاغة فالظاهر ان حضرة المترجم لم يحسن القراءة او لعل ما قرأه اسم رجل يشبه الملك النعمان

فضحك ثعلبة وقال هذه دعوى فاسدة ولو كان والدي الحارث هنا الآن لاثبت نسبة هذا الخاتم الى النعمان ملك العراق لانه شاهد ختمه على كتبه مراراً. وعلى كلٍ فانك ستبقى في السجن حتى تعترف بالحقيقة والاّ

فانت مقتول شرَّ قتلة

قال عبد الله افعل ما بدا لك فما انا ممن يخافون القتل لاني بريء

قال سترى عاقبة وقاحتك هذه عند ما يأتي بابنك الغلام الغرور يك خيانته رأي العين

ثم التفت ثعلبة الى الحراس الاربعة وكانوا لا يزالون وقوفاً على الباب وقال خذوه بعد امر البطريق (القائد رومانوس) الى برج القلعة وابقوه محفوراً ريثما ننظر في امره

وكان لقلعة بصرى برج متشامخ يستحيل الفرار منه لان المسجون اذا حاول الفرار لا طريق له الا النافذة فاذ وثب منها لا يدرك الارض الا ميتاً

فصعدوا به طابقين آخرين وادخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير فاقفلوا الباب عليه وتركوه وشأنه : فلما خلا بنفسه اخذ يتأمل في ما مرَّ به في الليل الماضي وذلك الصباح ويراجع ما سمعه عن ابنه فلم يفهم معنى اتهامه باللصوصية . ولكنه شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لانه ما زال متحققاً نجاءه من تلك التراك . على ان ظهور ذلك الخاتم عرقل مساعيه ولبث برهة يفكر ثم نهض الى نافذة البرج الشرقية فاشرف منها على مدينة بصرى كلها ببناياتها وشوارعها واسوارها وحولها الاحواض المائية الكبيرة واشعة الشمس تعكس عن اسطحتها وكان الجو صافياً فنظر الى ماوراء ذلك فشاهد في عرض الافق جبلاً عليه بناء يكاد البعد يحجبه عن نظره ولكنه عرف انه قلعة سرخد (صلخد ، الشهيرة و بينها و بين بصرى طريق حجري على استقامة واحدة مرصف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع

الرومانية الكبرى· وخيل له ان بصرى وضوا حيها حديقة يانعة في وسط صحراء قاحلة لأن بلاد حوران جبلية جرداء غبراء اللون (١)

وتحوّل من هناك الى نافذة جنوبية فاشرف على ارض اكثر خصباً من تلك يتراءى فيها عن بعد قرية ام الجمال لا يتميز شيء من ابنيتها لبعدها فتذكر حماد ومسيره الى عمان فقال في نفسه لعله الآن بقرب هذا المكان مع سلمان · ثم هاجت به هواجسه وتذكر ما مر به منذ شبوبيته وخاف ان يقتل قبل ان يبوح لحماد بسره وقد كتمه عنه وعن سائر اهل الارض نيفاً وعشرين سنة فتراكمت عليه الهواجس حتى نسي موقفه وما هو فيه من الخطر الشديد

فقضى نهاره في مثل ذلك فجاؤوه ببعض الطعام فلم يتناول منه شيئاً وبات تلك الليلة وعاد في صباح اليوم التالي الى النافذة فحدثته نفسه ان يثب من ذلك البرج لعله ينجو فنظر الى اسفله فاذا هناك هوة عميقة لا يمكن ان يصل الى قاعها حياً فصبر نفسه ينتظر ما يجيء به القدر

وفي اليوم الثالث افاق على اصوات النواقيس من الاديرة والكنائس فاطلّ من النافذة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زينت الشوارع بسعف النخل واغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحداناً يحملون الشموع واغصان الزيتون يامون الديور والكنائس (٢) وفيهم الرجال والنساء واولادهم بين ايديهم يحملون الازهار والشموع وقد تزينوا باحسن ما لديهم من اللباس وانواع الزينة فعرف انه يوم احد الشعانين والناس

(١) فوجيه وبيربل (٢) المقريزي

يحتفلون به على جاري العادة فهاجت هواجسه وتذكر حماداً وموعده بنذره فعظم عليه الامر واشتد به ذلك حتى بكى ولكنه ما لبث ان عاد الى صوابه وتجلد تجلد الرجال المحنكين الذين خبروا الدهر وعرفوا تقليبات الزمان فقال في نفسه ان الدهر لا يستقر على حال فلا بد لهذه الازمة من انفراج

فقضى ذلك اليوم و بضعة ايام اخرى لا يأكل الاّ قليلاً وقد هدأ روعه وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة وهو في كل ذلك يحمد الله لنجاة حماد من ذلك لانه لا يصبر على الاذى ولا تعوّد مشاق الزمان وكوارث الحدثان · ففي ذات صباح جاءه الحراس وامروه بالنزول الى المجلس فنزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي رومانوس وثعلبة قال له هذا كيف ترى نفسك

قال ارى اني اسير بين يدي حضرة البطريق

« لماذا لا تعترف بحقيقة امرك ونحن نعدك بالافراج

« قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني

« انبئنا اين هو ابنك فنعفو عنك

« من اين لي ان اعلم ذلك وقد اخذتموني على غرة وهو خارج البيت فلا اعلم مقره

ثم ناداه رومانوس قائلاً انظر ياهذا اذا انت صررت على الانكار لا نرى بدّاً من ارسالك الى مولانا الامبراطور في حمص فهو اولى بالاقتصاص منك واذا وصلت اليه لا ينجيك من بين يديه حيلة فالافضل لك ان تعترف بالحقيقة هنا وتنجوا بنفسك

قال قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم

فامر رومانوس باعداد خفر يسير بعبد الله والخاتم الى حمص فيدفعهما الى الامبراطور هرقل · فقال عبد الله بنفسه لعل في ذلك باباً للفرج فان الامبراطور اكثر رأفة وتعقلاً من هؤلاء · فاركبوه فرساً وهو موثق وحوله عشرة خفراء بينهم خمسة من جند الروم بلباسهم المتقدم ذكره وقد ركبوا الخيل بلا ركاب على جاري عادتهم

الفصل الثالث عشر

﴿ هرقل ﴾

وكان هرقل اذ ذاك في حمص جاءها على أثر انتصاره على الفرس انتصاراً لم يكن يتوقعه فنذر ان يسير الى بيت المقدس ماشياً (١) فوصل عبدالله الى حمص وقد خرج هرقل منها على قدميه وفاء لنذره والحارث بن ابي شمر الغساني قد جاء حمص ليتولى تدبير ما يلزم لذلك المسير · فكان هرقل يسير ماشياً والبطاركة والاساقفة بين يديه وقد لبس التاج وتوكأ على الصولجان متزملاً بوشاح ارجواني مزركش (٢) وامامه الحارث ورجاله يفرشون له البسط في الطرق ليمشي عليها فسار عبد الله مخفوراً وراء الموكب من حمص الى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب وكلهم مشاة يتقدم كل فرقة منها علم في اعلاه نسر من الفضة او صليب الامرية صليبها من الذهب مرصع

(١) السيرة الحلبية (٢) الواقدي

بالياقوت والالماس كانت تحيط بالموكب عن قرب · وكان الناس في اثناء الطريق يخرجون من القرى لمشاهدة الامبراطور ماشياً وحاشيته حوله يسيرون جميعاً على البسط والسجاد والناس يلقون الازهار على الطرق وبعضهم ينثرها على الامبراطور ورجاله وآخرون يرشون الطرق والمارة بالارواح العطرية على انواعها [1] حتى وصلوا بيت المقدس وقد زينها اهلها وخرج البطريرك والاساقفة بالصلبان والمباخر يحرقون فيها البخور والند والعنبر يسيرون بالمشاعل امامهم فاستقبلوا الامبراطور على مسافة خارج المدينة وعادوا به بالترتيل والاناشيد والصلوات والناس يزاحم بعضهم بعضاً يتسابقون لمشاهدة الامبراطور · وكانت شوارع بيت المقدس تعج عجيجاً بالمارّة فضلاً عن المطلين من النوافذ والشرفات والاسطحة حتى وصل الموكب الى كنيسة القيامة والنواقيس تدق والقسس يرتلون ويسبحون · ثم اقيمت الصلاة شكراً لله على ما اولاهم من النصر على اعدائهم الفرس

كل ذلك وعبد الله وحراسه يرافقون الجماهير فلاحظ عند اشرافهم على اسوار المدينة انها منهدمة وآثار منجنيق الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالارض وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الحكومة فساقوا عبد الله الى السجن فلما اصبحوا ساروا الى الحارث بن ابي شمر فبلغوه الرسالة وسلموا اليه عبد الله واحكوا له حكايته ودفعوا اليه الخاتم فحفظه حتى يعرضه على هرقل · فبقي عبد الله في محبسه شهراً لم يتمكنوا في اثنائه من تقديمه الى هرقل لتزاحم الوفود من سائر الانحاء يهنئون الامبراطور بما

---

(١) الاغاني جزء ٦

أُوتية من النصر

فلما تمت مهمة الحارث وهمّ بالرجوع الى بصرى تذكر عبد الله فاستاذن هرقل ان يدخل به عليه فاذن له فساقوه مخفوراً الى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة اعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولته قد احدق بها الخفر باسلحتهم وملابسهم الرسمية وقوفاً اجلالاً للامبراطور · فدخل اولاً الحارث ثم استدعى عبد الله فدخل القاعة وقد هاله ما فيها من مظاهر الابهة والعظمة فشاهد الامبراطور جالساً في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكاد لمعانه يبهر الناظرين وعلى رأسه تاج مرصع يتلألأ كالمصابيح وعلى منكبيه وشاح من الخز سماوي اللون مزركش بالذهب وفي يده صولجان الملك وهي عصا طويلة من الذهب المرصع في اعلاها رسم النسر الروماني مرصع بالحجارة الكريمة · وكان هرقل كبير الجثة عظيم الهيئة زاد المشهد وقاراً والى يمينه بطريرك اورشليم بملابسه الرسمية وعصاه والى يساره سرجيوس بطريرك القسطنطينية والى كل من الجانبين القواد والاساقفة وسائر رجال الدولة على كراسٍ من الذهب · وكانت ارض القاعة مكسوّةً بالسجاد المزركش والابسطة الثمينة

ورأى بين الاساقفة اسقفاً شاهده مرة في الحيرة وهو كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد وكان يسمع بسعة علمه ودهائه فعجب لوجوده هناك وازداد عجباً لما رآه بجانب البطريرك الاورشليمي في منزلة البطاركة ورأى بجانب البطريرك القسطنطيني بطريركاً لم يعرفه

فلما دخل عبد الله هاله الموقف ولكنه تجلد وقد علمته الايام ان ما يراه

من مظاهر الأبهة ليس الأ اعراضاً زائلة وان الحق سلطان يعلو ولا يعلى عليه ٠ ولم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى الجزئية لولا ما همه من امر الخاتم فاحب استطلاع امره بنفسه فلما مثل عبد الله بين يديه خاطبه والحارث يترجم بينهما فتناول الامبراطور الخاتم بيده وقال لعبد الله

من أين اتيت بهذا الخاتم

فاجابه عبد الله مطرقاً قد جاءني بطريق العرض يا مولاي فاشتريته بالثمن

قال لا يعقل ان مثل هذا الخاتم يباع بالاسواق او يلقى على الطرق وهب انك وجدته على قارعة الطريق ألم يكن الاجدر بك تسليمه الى صاحبه

فقال عبد الله مولاي يعلم ان صاحب هذا الخاتم اذا صح انه النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة فهو في عداد الاموات منذ نيف وعشرين سنة

قال الامبراطور أليس من ابنائه احد حياً تسلمه اليه

فسكت عبد الله

فقال الامبراطور ما بالك لا تجيب ٠ أجب ولا تخف وهب انك جاسوس او شبه جاسوس فنحن لانخاف الجاسوسية بعد ان منحتنا العناية الصمدانية أكاليل النصر على أكاسرتكم

فقال عبد الله لقد نطق مولاي ببراءتي من الجاسوسية من تلقاء نفسه والحمد لله اذ لم يبق ثم حاجة اليها والصلح قد عقد بين جلالته وكسرى ملك الفرس بعد ان كان ما كان من ظهوره عليه

قال هرقل نعلم ذلك ولكننا شديدو الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا

الخاتم اليك وسبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة متنكرًا على ما علمت من عاملنا هناك

فظل عبدالله مطرقًا ولم يجب

فقال الامبراطور قل يا رجل قل فان هرقل امبراطور الروم يخاطبك

فجثا عبد الله عند قدمي الامبراطور كأنه يحاول تقبيلها وقال انا اعلم ذلك ياسيدي ولكنني لا استطيع التصريح باكثر مما فهت به بين يديك

قال اذن انت تكتم مرًا تحاذر ان تبوح به

قال أجل لقد صدق مولاي

قال أتكتم ذلك عن امبراطور الرومانيين ألا تخاف بطشهُ او تخشى الحكم عليك بالاعدام

قال لا أظن احدًا لا يخاف الموت ولكنني افضله على التصريح بهذا السروها اني بين يديك فأمر بما تشاء

فتعجب هرقل لهذا الاصرار وقال يا للعجب اتقول ذلك ولا تخاف

قال اني على يقين يا مولاي بان موتي وحياتي بين شفتيك ولكنني لا استطيع غير ذلك

فالتفت هرقل الى من حوله من البطاركة والاساقفة والقواد وقال ما قولكم بهذه الجسارة فاني اراني ازداد ميلاً لمعرفة سرّ هذا الخاتم · فالتفت البطريرك الاورشليمي الى عبدالله وحرضه على الاقرار عبثًا وفعل مثل ذلك ايضًا البطريرك الانطاكي وغيرهما بلا جدوى

فاراد هرقل تهديده فامر بالجلاد فجاء و السيف بيمينه فقال له إأتني

برأس هذا الرجل فقاده الى باحة الكنيسة وعبدالله يسرع امامه لا يتردد لحظة فربط عينيه واركبه على نطع ودار حوله دورة والامبراطور يراه من داخل فلما دار الدورة الثانيه استقدمه هرقل وأمر بحل رباط عينيه وقال له ألا تزال مصرًّا على الكتمان

فقال عبدالله اقسم برأس مولانا الامبراطور وسر التثليث المقدس ان ليس في أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتكم بوجه من الوجوه ولكن كتمانه فرض عليَّ واجب لا استطيع التحوُّل عنه

فازداد الامبراطور استغراباً وقال لمن حوله وكيف العمل اذاً

فقال عبدالله اذا اذن مولاي في امر يكون فيه راحة لخاطره فعلته

قال وما هو

قال اننا معشر النصارى نحترم سرّ الاعتراف فاذا شئتم ان ابوح بسري هذا لغبطة البطريرك الاورشليمي على شرط ان يشير الى جلالتكم في علاقة هذا السرّ بكم اوعدمها بغيران يصرح بتفاصيل قصتي فاذا قال لكم ان لا علاقة لها بكم تحققتم صدق قولي وعذرتموني على كتمانه

قال لا بأس من ذلك واشار الى البطريرك فخلا بعبد الله في الكنيسة ساعة اطلعه فيها على سرّ ذلك الخاتم

ولما هماَّ بالرجوع الى القاعة قال عبدالله ارجو من مولاي البطريرك ان يخبرني عن البطريرك الجالس بجانب البطريرك سرجيوس من هو

قال هو اثاسيوس بطريرك اليعاقبة ومقامه في الاسكندرية وقد جاء لمقابلة الامبراطور ولعله يغتنم الفرصة للمداولة معه بما . و جار من الاختلاف

المذهبي بين الملكية واليعاقبة في القطر المصري

فقال وهل ذلك الاختلاف لا يزال متمكناً فقد بلغنا انه كاد يزول

فتنهد البطريرك وقال ظنناهُ كاد يزول ولكنه لم يزل فان مولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأي سديد وقد علم بعاقبة هذا الانقسام فلاح له ان يختلق له وسيلة للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والطبيعة والمشيئة فاستعان بالبطريرك سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لهما مشيئة واحدة وفعل واحد وعرض عقيدته هذه على البطاركة والاساقفة فقبلها اكثرهم . وفي عزمه ان ينقل البطريرك اثاسيوس الى كرسي انطاكية و يرسل الاسقف كيرلس الى الاسكندرية فيجعله بطريركاً وواليًا عليها ولعله يصدق بذلك بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري ولكنني لا اظنهما يتفقان [1] فان التعصب متمكن من الجانبين وليست هذه الاختلافات في اعتقادي الاَّ مماحكات لفظية يتمسك بها بطاركتنا التماساً للسلطة الدنيوية ولكن لتكن ارادة الله . فما اجمل المملكة المسيحية ان تكون مذهباً واحداً تقول قولاً واحداً تأييداً لدولة الروم العظمى فقد كفانا ما نجم عن هذه الاختلافات من الاحن والمصائب . ناهيك بما نقاسيه من مساعي اليهود ضدنا فانهم لو استطاعوا اهلاكنا جميعاً لبذلوا كل ما يملكون في سبيل ذلك فنطلب الى الله ان يلطف بعباده

فعجب عبدالله لهذه الاختلافات واعجب برغبة هرقل في جمع كلمة رعيته وتحقق ما سمعه عن تأنيه وحزمه ولكنهُ لم يكن يرجوله الفوز بغيته

(١) تاريخ الانشقاق جزء ١

لما يعلمه من تمكن الشحناء بين الاحزاب ثم قبل يد البطريرك وخرجا

وفيما هما عائدان نحو القاعة شاهد الحرس في هرج وبينهم رجل غريب بلباس اهل البادية ليس عليه غير الشملة والعمامة تقلد حساماً اعقف وحمل رمحاً وحربة وقد علاه الغبار ولوحته الشمس وظهرت على وجهه آثار الاسفار وكان عبدالله خبيراً بقبائل العرب لكثرة اختلاطه بهم فلاح له ان الرجل من اهل الحجاز فعجب لمجيئه وليس في بيت المقدس كله احد في مثل لباسه وشكله ولولا اشتغاله بامر نفسه لخلا به وسأله عن حاله ولكنه اضطر لمرافقة البطريرك الى قاعة الامبراطور فدخلا وجلس البطريرك في مجلسه ووقف عبد الله في موقفه

فقال هرقل للبطريرك كيف رأيت الرجل قال رأيته صادقاً في لهجته وهو معذور في كتمان امره وامر هذا الخاتم وقد اطلعني على خلاصة حكايته فاذا هي مستقلة عن جلالتكم ولا علاقة لها بالروم قاطبة ولكنه سرٌّ مقدس اقسم على كتمانه فلا يستطيع التصريح به الاّ في حينه

الفصل الرابع عشر

﴿ دعوة الملوك الى الاسلام ﴾

فاقتنع هرقل والتفت الى عبدالله وعبدالله مطرق اجلالاً ووقاراً وقال قد اخبرنا غبطة البطريرك بعذرك في الكتمان فصفحنا عنك فكن مطمئناً

(١) ابن خلدون

آمناً وناوله الخاتم بيده ونادى الحارث فوقف بين يديه فبلغه عفوه وامره ان يدفع اليه كتاب الأمان فتقدم عبد الله وجثا امام الامبراطور وشكر نعمته وتقهقر يريد الخروج فرافقه الحارث الى باب القاعة ثم رأى ذلك البدوي قد اذن له بالدخول وفي يده رقٌ من جلد يريد تقديمه الى الامبراطور فاعترضه الحارث فقال البدوي بيدي كتاب الى جلالة الامبراطور اريد تسليمه اليه فاخذ الحارث الكتاب فاذا هو مختوم بالطين [1] فقدمه الى هرقل فاغتم عبدالله انشغال الحارث وانزوى في بعض جهات القاعة بين الجمع ووقف ينظر الى ما يكون من امر ذلك الكتاب

فرأى هرقل قد فضه وتأمله فلم يستطيع قراءته فناوله الى ترجمانه فنظر اليه ثم قال انه مكتوب باللغة العربية

فقال هرقل اتله علينا فقرأه فاذا فيه

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم والسلام على من اتبع الهدى اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان توليت فان اثم الاكابر عليك [1] (الختم) محمد

رسول

الله [2]

فلما اتم قراءته ترجمه فبغت كل من في الجلسة لشدة لهجته فالتفت هرقل الى من حوله كأنه يستشيرهم في شأنه وهو لم يفهم المراد منه لانه لم يكن يسمع بتلك الدعوة الا همساً فقال ومن ينبئني بحكاية هذا الرجل فلم

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) الواقدي

يستطع احدٌ ايضاحاً كافياً فنظر الى اطراف القاعة فشاهد عبد الله فاشار اليه فهرول نحوه متأدباً فقال له هل سمعت شيئاً عن صاحب هذا الكتاب وامر بالكتاب فدفع اليه فقرأه وقال نعم يا مولاي ان صاحبه نبيٌ ظهر في مكة من بلاد الحجاز من قبيلة يقال لها قريش دعا الناس الى عبادة الله وكان اكثر العرب يعبدون الاوثان فاجابه جماعة كبيرة منهم بعد ان قاسى مشقات جسيمة من اضطهاد بعض اقاربه واعمامه واهل وطنه فهاجر الى يثرب فنصره اهلها وشدوا ازره وانتشرت دعوته في اقاصي بلاد العرب ويظهر من كتابه هذا انه يدعو مولاي الامبراطور الى التصديق به

فلما سمع ارباب المجلس قوله كثر اللغط فيما بينهم واظهروا الاستخفاف فالتفت هرقل اليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا له ان في كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة اذ لا نرى مسوغاً ان يحتقر الامبراطور الى هذا الحد . فاشار هرقل اشارة فهم الحاضرون منها انه يلتمس سكوتهم فسكتوا والتفت الى البطريرك عن يمينه فاستخصه بالسؤال

فقال البطريرك اني ارى في هذا الكتاب جرأه لم يسبق لها مثيل لان كاتبه يبدأ في خطابه بذكر اسمه ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال « من محمد رسول الله الى عظيم الروم » والعادة في خطاب الامبراطور ان يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه (١) فارى بعد امركم ان لا تعيروا هذا الكتاب التفاتا

فقال هرقل ولكن علينا ان نبحث عن سيرة هذا النبي وصفاته ثم نحن

(١) السيرة الحلبية

مخيرون في ما نفعله فهل تعرفون احداً من قريش نسأله عنه

فقال الحارث اعرف اميرًا من امراء مكة اسمه ابو سفيان قدم في هذه الاثناء لتجارة في غزة وهو اقدر من يخبرنا عن صفات هذا النبي

فقال هرقل اليّ به

فقال الحارث سمعاً وطاعة فسيكون هذا الرجل هنا بعد بضعة ايام ان شاء الله

قال الامبراطور فلنعقد مجلساً اذ ذاك يحضره هذا العراقي لانه يعرف العربية فلعله يفيدنا شيئاً

الفصل الخامس عشر

﴿ ابو سفيان ﴾

فقبل الارض بين يدي هرقل و وقف متادباً ثم ارفضت الجلسة

فخرج عبدالله في جملة من خرج وقد اسف لتاخره هناك وود الاسراع الى حماد وقد داهمه الوقت ولكنه كان قد شاهد ابا سفيان في بعض اسفاره الى مكة ولم يكلمه فاحب ان يراه ثانية ويسمع حديثه عن صاحب هذه الدعوة فسار توًا الى دار الضيافة بالدير فاقام على الرحب والسعة وخرج في اثناء ذلك الى المدينة فطاف احياءها وتفرج بمشاهدها فراى فيها اخلاطاً من يهود ولغتهم جميعاً العبرانية المشوهة بالالفاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان وراى جماعة كبيرة من الروم وفي ايديهم اعظم مناصب البلاد

وما منزلة الوطنيين بينهم الاّ منزلة الخدمة ولم يسمع في احاديث الناس الاّ الجدال بين القائلين بالطبيعة والقائلين بالطبيعتين فتيقن ان ذلك الخصام سيكون سبباً لسقوط هذه الدولة

فلما كان الوقت المعين للاجتماع اجتمع بالحارث وسارا معاً الى كنيسة القيامة فدخلا صحنها فشاهدا جماعة من البدو عرف عبدالله من لباسهم انهم من عرب الحجاز ففطن انهم رجال ابي سفيان ونظر فيهم فراى رجلاً يمتاز عنهم جميعاً بحسن زيه وكبر عمامته (١) واتساع عينيه عليه العباية المزركشة وقد تقلد الحسام بخلاف سائر رجاله فقد كانوا يتقلدون الرماح ومعظمهم مكشوفو الرؤوس وفيهم من قد شد رباطاً حول شعره من الاعلى

فلم يتكلم عبدالله ولكن الحارث تقدم الى ابي سفيان فوقف له هذا وقد عرفه انه الحارث بن ابي شمر فالقى عليه التحية واخبره انه جاء انقياداً لامر الامبراطور. فقال له تربص ريثما ندخل على مولانا ثم نبعث اليك

ثم وصل الحارث وعبدالله الى القاعة فعلما من وقوف الحرس عند الباب ان الامبرطور هناك فدخلا وتأدبا فأمر هرقل باستقدام القرشي فخرج الحارث ثم عاد وحده واخبر الامبرطور ان الرجل ابى الدخول الاّ بحسامه قال هرقل فليدخل ولم تمض لحظة حتى دخل ابو سفيان ومعه بعض رجاله فبهرهم ما في القاعة من انواع الزينة ودلائل البذخ فوقف ابوسفيان امام الامبراطور ثم قبل الارض بين يديه وحياه قائلاً «ابيت اللعن» وهي تحية الملوك في الجاهلية (٢) فتعطف معه وامره بالجلوس فتربع على الارض

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) صناجة الطرب

وجعل سيفه عرضاً على فخذيه وجلس رجاله وراءه فعلم هرقل انها عادتهم في الجلوس فلم يعترضه ثم خاطبه بواسطة الترجمان قائلاً

من اي القبائل انت

قال من قريش حماة الكعبة

« وما تعني بالكعبة

« هي حج الناس الى الآلهة

« اتعرف رجلاً اسمه محمد ظهر فيكم يدعو الناس الى دين جديد

« نعم اعرفه وهو من ذوي قرابتي لكنني لست على دعوته فقد جاءنا بدعوة جديدة ونحن على دين ابآئنا وطالما نهيناه عن ذلك فلم ينته

قال هرقل لقد همني امر هذا الرجل واود ان اعرف حقيقة حاله فهل تنبئني عنه وعن دعوته وما يدعو الناس اليه

فاصلح ابو سفيان مجلسه في تربعة كانه يعد نفسه لجلوس طويل ومشط لحيته باصابعه واطرق طويلا يفكر في امر ذي بال

فاستبطأه هرقل فقال له ما بالك لا تجيب وقد اقترحنا عليك امراً يهمنا الاطلاع عليه . لعلك تجهله ؟

قال كلاّ يا مولاي ولكنني تذكرت بدء امر محمد هذا وتذكرت والده ثم ما كان من دعوته وانتشارها فتجدد استغرابي له فاذا اذنت بان اقص عليك خبره فعلته

قال ذلك ما اقترحنه عليك فقل



الفصل السادس عشر

سيرة صاحب الشريعة الاسلامية

فاسند ابو سفيان كوعه على ركبتيه ليستريح في جلوسه والتفت الى من حوله فاذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطاركة والامراء والقواد فعلم انه يقص حكايته على اعظم رجال الروم والترجمان يترجم كلامه للحضور الاّ من كان عارفاً العربية منهم كالحارث وعبدالله فقال :

اعلم ايها الملك ابيت اللعن ان محمداً صاحب هذه الدعوة الذي توصل الى مخاطبة قيصر الروم قد ربي يتيم الابوين صفر اليدين على انه من اصل عريق في الشرف والسؤدد من قبيلة قريش التي انا منها ويتصل نسبنا بعدنان ونسب عدنان يتصل باسماعيل بن ابراهيم فنحن من اشرف العرب نسباً واطيبهم طينة ۰ وكان جدنا اسماعيل قد بنى لنا بيتاً تحج اليه الناس من اقطار العالم اسمه الكعبة بناه في مكة بالحجاز وهي مسقط راسي ومحل اقامتي ومركز تجارتي ومقام اهلي

وكانت ولاية هذا البيت تارة في قريش وطوراً في سواهم حتى اغتصبها منهم منذ قرنين اواكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية ۰ اذ لا يخفى على مولاي القيصر ان العرب كافة يرجعون في انسابهم الى ابوين هما (١) اسماعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز (٢) قحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن ۰ ولم تستطع خزاعة الاستبداد بولاية الكعبة الاّ لما كان من تفرق امر قريش وضعفهم الى ان ظهر جدنا قصيٌّ فبذل

الدم والمال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل اعمال الكعبة وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

فلم يستطع الترجمان فهم هذه الالفاظ واشكل عليه تفسيرها فقال هرقل افهمنا ما معنى هذه الاعمال

فقال ابو سفيان اعلم يا سيدي ان مكة لا حكومة فيها مستقلة كحكومة القيصر بل هي في مكان عبادة لان الكعبة حجٌّ يزوره الناس كما يزور النصارى ديرًا من الديور ولكنها اعظم من ذلك كثيرًا فمن تولى اعمالها كانت اليه حكومة مكة وولاية امرها على نسبة ما يتولى من تلك الاعمال . فمن تولى الحجابة كانت له حجابة الكعبة اي ان مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن اراد ويمنعها عمن اراد . واما السقاية فهي ان بجانب الكعبة بئرًا قديمة يقال لها بئر زمزم احتفرها جدنا اسماعيل [1] فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهدته يسقي الحجاج منها . اما الرفادة فهي خرج اومال تدفعه قريش الى من يتولى الرفادة فيصنع منه طعامًا للحجاج الذين يزورون الكعبة من اقطار الارض لانهم ضيوف عليه . واما اللواء فهو العلم الذي يعقدونه للحرب وصاحب اللواء يعقد الالوية للجند الذاهبين للقتال وهو بمنزلة قائد الجند عندكم . اما الندوة فهي مجلس القضاء ولها بيت في الكعبة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة وصاحب هذه الدار هو صاحب الشور والرأي [2] واليه يرجع الامر . ففي هذه الامور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة لمن يتولاها للدين والدنيا فيكون القضاء والجند والكعبة والمال في قبضته — فقد حاز جدُّنا قصي

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير

شرف مكة كله [١] وقطع مكة ارباعاً بين قومه وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت اليها سطوتها وعلا نجم سعدها فتيمنت بامره حتى صارت لا تزوج امراة لرجل من قريش الاّ في داره ولا يتشاورون في امر نزل بهم او يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الاّ في داره يعقدها لهم بعض ولده ولا تدرع جارية اذا بلغت ان تدرع الاّ في داره يشق عليها فيها درعها ٠ وجملة القول كان امره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره [٢]

وكان لقصي هذا اربعة اولاد وهم عبد الدار وعبد مناف جدّنا وعبد العزى وعبد ٠ فلما شاخ قصي كان عبد مناف قد شرف في زمان ابيه وعظم أمره وكذلك عبد العزى وعبد [٣] فاراد قصي ان يشرف عبد الدار وكان بكره فدعاه اليه واوصى له بمناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كله الى عبد الدار وبنيه من بعده

فخلف عبدالدار اولاداً وخلف عبد مناف اولاداً آخرين وهم عبد شمس وهاشم وعبد المطلب ونوفل وكانوا رجالاً اشداء وعبد شمس هو جدّي فغبط بنو عبد مناف بني عمهم عبدالدار على ما في ايديهم من امر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضي امرهم الى الحرب ثم تداعوا الى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فأعطيت السقاية والرفادة الى بني عبد مناف واعطيت الحجابة واللواء والندوة الى بني عبدالدار وتمّ الصلح على ذلك وانحسم الخلاف ٠ ولا تظنوا اني اطلت الكلام على غير طائل او اني دخلت فيما لم اسأل عنه فان لما قلته علاقة كبرى فيما سألتموني عنه

(١) ابن الاثير (٢) ابن هشام والسيرة الحلبية (٣) السيرة الحلبية

فتولى السقاية والرفادة اولاً عبد شمس ولكنه كثير الاسفار لا يقيم في مكة الاّ قليلاً فعهد بهما الى اخيه هاشم وهاشم هو جدُّ محمد الذي تسألونني عنه اي ابو جده · ثم مات هاشم فوليهما اخوه المطلب وكان سمحاً سمته قريش الفيض لسماحته (١)

وولد لهاشم اسمه ولدٌ سماه شيبة ثم سمي عبد المطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد ابو أبيه · فلما مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن اخيه هذا اي عبد المطلب · وولد لعبد المطلب عشرة اولاد ذكور منهم عبد الله والد محمد

وكان عبد المطلب قد اراد حفر بئر زمزم فمنعه اقاربه من ذلك فلاقى اموراً صعاباً ولكنه فاز اخيراً بحفرها فنذر انه اذا ولد له عشر اولاد ثم بلغوا منه حتى يمنعوه من مثل ذلك لينحرنّ احدهم عند الكعبة · فلما بلغوا ومنعوه جاء الكعبة ليفي نذره ولم يكن يدري من ينحر من اولاده فاستخار هبل الصنم الاكبر القائم في الكعبة (٢) بواسطة القداح

فاشكل امر هذه القداح على الترجمان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها

فقال ابو سفيان ان لنا في الكعبة اصناماً كثيرةً اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبد واعظمها صنم اسمه هبل عنده سبعة قداح (اي اسهم بلا ريش) كل قدح عليه كتابة بمعنى · قدح قد كتب عليه (العقل) وقدح عليه (نعم) وقدح عليه (لا) فاذا ارادوا امراً ضربوا به في القداح فاذا

(١) ابن اسحاق (٢) ابن هشام

خروج (نعم) فعلوا ما جاؤا من اجله او (لا) لم يفعلوه وقدح فيه (منكم) اوقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) اذا ارادوا ان يحفروا الماء ضربوا القداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به [١]

فجاء عبد المطلب الى هبل وقال لصاحب القداح اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره · فاصطنع لاولاده عشرة قداح واعلى كل رجل منهم قدحه وقد كتب اسمه وكان عبدالله والد محمد الذي نحن في صدده اصغر بني عبد المطلب وكان احبهم اليه · فلما ضربت القداح طلع القدح ان يذبح هو فهمّ عبد المطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك قالوا لا بل يجب ان تعذر فيه فانطلق الى عرافة في المدينة (يثرب) فوجدوها بخيبر فجاؤها فسالوها عذراً مسألتهم كم دية الرجل عندكم قالوا عشرة من الابل قالت فخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها بالقداح فان خرجت عليه فزيدوا من الابل عشرة فعشرة حتى يرضى اليكم وتخرج القداح عليها فنحروها [٢] فخرجوا وضربوا بالقداح فما زالت تخرج على عبد الله حتى بلغ عدد الابل مائة فخرجت عليها فذبحوها ونجا عبد الله وبقي حياً وتزوج فولد له محمد

ولم اطل عليكم الكلام الاّ لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة واصنامها فانها ضالتنا وغايتنا نستشيرها ونستخيرها واليها تحج الناس من سائر اقطار الارض ولنا بها منفعة من حيث الاتجار لما يأتينا بواسطتها من اصناف الناس عربها وعجمها · وقد ذكرت لكم كم سفكنا من الدماء في سبيل

---

(١) ابن هشام وغيره (٢) السيرة الحلبية

استبقائها فهي مصدر نعمتنا ومنبع اقواتنا ومرجع آمالنا . وقد مضى عليها القرون الطوال قائمة والناس يكرمونها ويعظمونها ويذبحون عند اصنامها الذبائح ويقدمون اليها بالهدايا الى اليوم . فهذه كلها قام صاحب هذا الكتاب (واشار الى الرق امام هرقل) يدعو الناس الى ازالتها وهدم ما بناه اجداده فيها

فلما بلغ ابو سفيان من كلامه الى هذا الحد ظهرت على وجه هرقل مظاهر الاستغراب وخاطب البطريرك الى يمينه باليونانية قائلاً ارى هذا الرجل يشكو ممن يريد هداية قومه عن عبادة الاصنام . فاذا كانت هذه هي غاية هذا النبي فنعمت الغاية فتداول الحضور هذا الحديث برهة على نحو ما قال الامبراطور وازداد شوقهم لمعرفة بقية الحكاية وكيف استطاع القيام بهذا المشروع على خطارته مع ما ذكر ابو سفيان من يتمه وضعفه . فالتفت هرقل الى ابي سفيان وقال له قد افصحت فيما قلت فهل لك ان تحكي لنا حكاية هذا النبي وكيف توصل الى ان يدعوكم الى ذلك

فقال ابو سفيان قد رأيت أيت اللعن كيف نجا عبدالله بن عبدالمطلب من الموت وكان ابوه يحبه فازوجه امرأة من قريش اسمها امينة ولم يمكث عبدالله مع امرأته الاّ برهة يسيرة ثم قضت عليه الاحوال بالسفر الى غزة التي انا آتٍ منها الآن ولكنهُ مرض في سفرته هذه فعادوا به الى مكة فمات قبل ان يدركها وهو بجوار يثرب فدفن هناك وامرأته لم تره

وكانت امينة حين مات عبدالله حاملاً [1] ولم يترك لها الاّ اربعة

(١) ابن هشام

من الابل وقطيعاً من الماشية وجارية اسمها بركة · وكانت امينة تقيم في بيت بضواحي مكة عند جبل شرقي مكة اسمه جبل ابي قبيس · وهناك ولدت ابنها هذا في عام الفيل الذي جاء به ابرهة الاشرم من قبل الحبشة لفتح مكة سنة (٥٧٠م) فلما ولدته كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه اليه فباركه وسماه محمداً · ومن عادتنا ايها الملك ان نرضع اولادنا من المراضع ويندر ان يعيش لنا ولد على لبن امه ونختار المراضع من اهل البادية لصحة اجسامهن فاختارت له امه مرضعاً من اهل الطائف اسمها حليمة فارضعته حولين قضاهما في سهول الطائف واوديته فنشأ نشيطاً وسمعت الناس يتحدثون عن طفوليته اخباراً غريبة لم نسمع بمثلها من ذي قبل منها ان مرضعه تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فاذا بولدها قد جاء يقول ان اخي القرشي اخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقاً بطنه · فخرجت هي تلتمسه فوجدته منفرداً فسألته عن امره فقال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا ادري ما هو وغسلاه بالثلج [1] فخافت حليمة على الغلام فحملته الى امه بمكة فقضى فيها مدة يرعى الغنم و يطوف الاحياء مع الاولاد [2] وكان كل من رآه اعجب بذكائه وجماله ونور محياه ولكنه لم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت والدته في الابواء بين مكة والمدينة فدفنت هناك فاصبح الغلام يتيم الابوين فاحتاطه جده عبد المطلب واحبه اكثر من حبه اولاده فكان الناس يكرمونه من اجل جده وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ

(١) ابن الاثير وابن خلدون (٢) ابن هشام

ويحادثهم بما يجتذب به قلوبهم وعواطفهم و بعد سنتين توفي عبد المطلب فولي السقاية ابنه العباس · اما الرفادة فانيطت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا فاصبح محمد يتيماً غريباً فكفله ابو طالب احد اعمامه · وكان ابو طالب اقل من العباس مالاً ولكنه كان وجيهاً مقدماً في قريش فاحتضن الغلام وتولى تربيته والسبب في احتضانه اياه دون سائر اعمامه ان ابا طالب وعبدالله والد محمد كانا اخوين من ام واحدة [1]

وأعترف لك ايها الملك العظيم ان كفالة ابي طالب هذه كانت سبباً عظيماً في نجاح دعوة محمد وبقائه حياً لأن ابا طالب كان وجيهاً في قريش محترماً مكرماً فقام محمد في بيته كأحد اولاده · وكان ابو طالب اذا خرج الى تجارة او سفر اصطحب محمداً فينزل الديور و يجالس الرهبان والعلماء · واشهر حادثة سمعناها عنه نزوله في دير بحيراء قرب بصرى · فقد اخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته تلك ان الراهب بحيراء انبأه بامور كثيرة من مستقبل حياته واوصى عمه ابا طالب ان يعتني به و يخاف عليه اليهود · وكان محمد اذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره في الكعبة يحادث الناس و يجادلهم و يطارحهم و يعجبون لذكائه وقوة برهانه فقد كان على صغر سنه ذكي الفؤاد فصيحاً واسع الاطلاع بما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في اسفاره مع انه امياً لا يعرف القراءة وهو لا يزال كذلك الى الآن وكان مع ذلك مخلصاً حسن الطوية حتى لقبوه بالامين فاذا جاء او ذهب قالوا جاء الامين اوذهب الامين

---

(1) السيرالحلبية

واهل مكة ايها الملك اهل تجارة يحملون الاموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق الى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيرًا حتى ان نساءهم كن يتعاطينها . وكان في مكة امرأة مشهورة بالغنى اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصي الذي قدمت ذكره وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط [1] فعرضت عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجرًا وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد اكسبها مالاً طائلاً فاحبته وعرضت عليه ان يتزوجها ففعل وولدت له اولادًا وهم القاسم ويكنى به (فيقال ابو القاسم) والطاهر والطيب وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة . اما القاسم والطاهر فماتا قبل ان ظهر بدعوته

واتفق اذ بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من امره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته ان قريشًا اجتمعت لبناء الكعبة وكنت في جملتهم . وسبب اهتمامنا بذلك ان نفرًا سرقوا كنزًا للكعبة كان في بئر في جوفها ووجدنا تلك السرقة عند رجل من خزاعة فقطعنا يده وعمدنا الى بناء الكعبة وتسقيفها . وكان البحر قد رمى بسفينة عند جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فاخذنا خشبها واعددناه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطي يحسن صناعة النجارة فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها فاقتسمنا العمل لكيلا يحوز احدنا من التصرف في ذلك اكثر مما يحوزه الاخر

(١) السيرة الحلبية

فجئنا بالحجارة والاخشاب حتى تم البناء ولم يبق الا الركن فاختصم الناس في من يرفعهُ منهم وكانت كل قبيلة تدعي الاحقية في رفعه حتى تعاظم الخصام وهموا بالقتال فاتفق · راي عقلائنا اخيراً ان يحكموا فيما بينهم اول داخل من باب المسجد في ذلك اليوم · فكان اوّل داخل محمداً فقالوا هذا هو الامين قد رضينا بحكمه فاخبروه الخبر فرأى رأياً حسناً لم يخطر على قلب احدمنا · وذلك انه اتى بثوب واسع جعل ذلك الركن فيه وقال لتاخذ كل قبيلة بناحية منه فرفعناه جميعاً حتى بلغنا به موضعه فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف [1] وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة وحدث حرب الفجار بعد عام الفيل بعشرين سنة [2] وكان لعمله هذا اثر حسن جدًّا في اذهاننا نخرج الناس من الكعبة وهم يتحدثون بفطنته وتعقلة وكنت في جملة المعجبين به ولا ازال اعترف بفضله لولا ما اراد من تحقير آلهتنا وتعييب اصنامنا كما سأقصه عليكم

وفيما نحن نتحدث بحسناته ونعجب باخلاقه حتى بلغ الاربعين من عمره فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في الشعب والجبال حتى صار يأوي الى الكهوف ويقول ان الملاك جبرائيل ظهر له وعلمهُ الصلاة فعلمها لامرأته خديجة ولزيد بن حارثة مولاه ولعلي ابن عمه ابي طالب · وكان عليٌّ غلاماً صغيراً · وعلمها ايضاً لعبد الله بن ابي قحافة الذي يسمونه الآن ابا بكر وتبعه آخرون وهو يتلو عليهم آيات يقول ان ربه علمه اياها ونحن لا نعبا بذلك لانه لم يمس آلهتنا بعيب ولكنه · ما لبث ان جمع عمومته واهل عشيرته الاقربين الى وليمة

(١) ابن هشام ـ (٢) الطبري

ودعاهم الى ترك الآلهة فاجابه عمه عبد العزي (ابولهب) منكراً عليه جرأته هذه ونصح له ان يرجع عن ذلك (١) فابى ولم يزدد الا تمسكاً

ثم بلغنا انه سب آلهتنا وعاب اصنامنا فشق ذلك علينا فاجتمعنا وفينا نخبة من اشراف قريش وتداولنا في امره وما جاء به فتهيأ لبعضنا ان نقتله . فقال البعض الآخر « اذا قتلناه انما نسيء عمه ابا طالب وهو رجل جليل القدر فالافضل لنا ان نخاطبه بشان ابن اخيه وخصوصاً ان ابا طالب هذا ظلّ على دين ابائنا حتى مات ولم يؤمن بدعوة ابن اخيه » فسرنا جميعاً الى ابي طالب في منزله فتلقانا على الرحب والسعة واكرم وفادتنا على جاري عادته فلما استقر بنا المقام قلنا « يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبّ آلهتنا وعاب دينا وسفه احلامنا وضلل اباءنا فاما ان تكفه عنا او ان تخلي بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » فاجابنا ابو طالب جواباً لطيفاً ووعدنا وعداً حسناً وردنا رداً جميلاً فانصرفنا عنه على امل ان يردع ابن اخيه عن عمله (٢) فاذا هو باق على ما كان عليه وما زلنا نسمع مثل ما كنا نسمعه عنه قبلاً . وكان ممن ايد دعوته من قريش ابن عم امراته خديجة وكان اسمه ورقة بن نوفل وكان نصرانيا مثلكم فاشتد غضبنا وهممنا بان نفتك به ثم رجعنا الى مجاملة عمه فاجتمعنا اليه مرة اخرى وقلنا له « يا ابا طالب ان لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا وانا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى يهلك احد الفريقين » (٣) فآنسنا هذه المرة من ابي طالب انصياعاً وكأنه عول

(١) الطبري (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن اسحاق

على اجابة سؤالنا اذ لا صبر له على فراق قومه وعشيرته ومعاداتهم . وبلغني انه لما خرجنا من منزله بعث الى ابن اخيه فقال له « يا ابن اخي ان قومك قد جاؤا الي فقالوا كذا وكذا فابق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا اطيق » فآنس من اصراره على معتقده وبقائه على عزمه ما كاد يغضبه لولا ان محمداً قال له « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره او اهلك فيه ما تركته » ثم بكى فرق له قلب عمه وتذكر ان ابن اخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد الى نصرته وطمأن قلبه ووعده انه لن يسلمه ابداً

ثم علمنا ذات يوم ان محمداً ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال « أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الاخرى تلك الغرانيق العلى ان شفاعتهن لترتضى » (١) وذلك ما كنا نعتقده فسررنا سروراً لا مزيد عليه وقلنا هاقد تم الوفاق . ثم ما لبث ان رجع عن ذلك وابدل هذه الفقرة بفقرة تزيدنا نفرة منه فقال « ان تلك انما القاها الشيطان على لسانه » ثم ذكر آلهتنا بكل سوء فقال « انها اسماء سميتموها انتم وآباؤكم » الى غير ذلك مما زادنا نفوراً وبعداً

فحرنا في امرنا مع هذا الرجل ولبثنا نتوقع فرصة نتخلص بها منه ونرجو رجوعه فاذا هو باق على عزمه وكثيراً ما كان بعض رجالنا اذا التقوا به تهددوه وهو لا يبالي وفيما نحن في ذلك اذ سمعنا ان عمه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته واخذ بناصره وحمزة هذا رجل شديد تهابه قريش فاشتد به ازره وازداد ثباتاً

(١) الطبري

في دعوته فقلنا لندعون محمداً الينا نكلمه ونخاصمه حتى نعذر فيه فاجتمعنا في الكعبة وفينا كل اشراف قريش واستقدمناه فجاء فقلنا « قد بعثنا اليك لنكلمك فانا لا نعرف رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرّقت الجماعة فما امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك (والرئي التابع من الجن) بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك »

فاجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً « ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولاً وانزل علي كتاباً وامرني ان اكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » فاردنا ان نمتحن اعتقاده فقلنا له « ان كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك فانك قد علمت انه ليس من الناس احد اضيق بلداً ولا اقل مالاً ولا اشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فيسير عنا هذه الحال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادا وليفجر لنا فيها انهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب فانه كان شيخ

صدق فنسألهم عما تقول أحق هو ام باطل فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عندالله وانه بعثك رسولاً كما تقول » فاجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلاً « ما بهذا بعثت اليكم انما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغت ما ارسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليّ أصبر ان الله تعالى يحكم بيني وبينكم »(١) وطال الجدال بيننا في مثل ذلك وهو باق على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلاً الى الايقاع به

وكان ابو سفيان يتكلم والجميع صامتون يتطاولون باعناقهم فلما وصل الى هذا الحد جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم يعجبون لما سمعوه . فقال بطريرك القسطنطينية لهرقل اني لا أرى هذا الرجل الا قد جاءهم بالحق وهم انما يشكون من دعوته اياهم الى دين الله . ثم عادوا الى استماع بقية الحديث فقال هرقل وما جرى بعد ذلك

فقال ابو سفيان وما زال امر هذا الرجل يستفحل حتى كثر انصاره ومن غريب ما رأينا منهم انهم كانوا يحتملون منا الامور الصعاب والاضطهاد الشديد على ان يكفروا به فلم يفعلوا حتى اذا ضيقنا عليهم فرّ جماعة منهم الى بلاد الحبشة فحماهم ملكها واخذ بناصرهم . اما محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون حتى سمعنا باسلام عمر بن الخطاب وهو من أعظم رجال قريش فتأيدت دعوته به كما تايدت بحمزة فعظم امره واشتد ازره فصار دعاته يتكاثرون يوماً بعد يوم بما ينضم اليهم من القبائل فخفنا عاقبة ذلك فاجتمعنا وائتمرنا على ان نكتب كتاباً نتعاقد فيه على بني هاشم

(١) السيرة الحلبية

وبني عبد المطلب ان لا ننكح اليهم ولا ننكحهم ولا نبيعهم شيئاً ولا يبتاعوا منا شيئاً فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها و تواثقنا وعلقناها في جوف الكعبة ولكنها ما لبثت ان نقضت لاننا تعهدناها يوماً فاذا هي قد اكلتها الارضة فتشاءمنا بذلك واسقط في يدنا فلبثنا ننتظر ما يأتي به الزمان

فمنذ عشر سنوات تقريباً [١] توفي ابو طالب وخديجة فذهب الذي كنا نهابه ونجل مقامه فنلنا من محمد ما لم ننله قبلاً فسمناه انواع العذاب والاضطهاد حتى كثيراً اما كنا ننثر التراب على رأسه فخرج من مكة الى الطائف يلتمس النصر من قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعته بينهم فلم ينل خيراً بل كانوا يسبونه ويؤذونه و يعترضون له في الطريق و يسومونه الوان العذاب حتى ظنناه يرتجع و يترك دعوته ولكنه لم يزدد الا ثباتاً · وكان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشراء كموسم عكاظ وغيره و يعرض نفسه عليهم و يدعوهم الى دينه · فكان اكثرهم اقبالاً عليه قبائل الخزرج من اهل المدينة (يثرب) فانهم بايعوه بيعات تعرف ببيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمه العقبة بقرب مكة

فقال الترجمان عند ذلك وما معنى المبايعة عندكم · قال ابوسفيان هي ان يتراضى الفريقان على امر كالبيع والشراء وسمعت ان لهذا الرجل مبايعة يؤخذ منها تعهد المبايعين ان يكونوا على دعوته· ومن امثلة ذلك قولهم له «بايعناك على ان لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين ايدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف» [٢] وقد كان بيعة العقبة

---

(١) الطبري (٢) ابن هشام

هذه اول امر الانصار وهم اهل المدينة وسماهم الانصار لان امره ضعف بعد وفاة عمه وخديجة كما قدمت فجاء الخزرج وبايعوه ونصروه فسماهم الانصار وهؤلاء ساروا الى المدينة ونشروا دعوته بين اهلها فتبعه منهم كثيرون فلما رأى تضييقنا عليه بمكة أمر اصحابه بالمهاجرة الى المدينة وسماهم المهاجرين تمييزًا لهم عن الانصار المتقدم ذكرهم

فلما علمنا بذلك وتبين لنا انه اذا سار هو الى المدينة سيتمنع بانصاره واصحابه وربما عادوا الى مناوأتنا فاجتمعنا في دار الندوة التي ذكرت لكم ان قصياً جعلها بجانب الكعبة للشورة وتفاوضنا في ماذا نفعل بهذا الرجل فقال بعضنا ننفيه وقال آخرون ان ننفيه لا يمنع اجتماعه باصحابه وانصاره

فقال آخرون فلنقتلهُ ونجعل دمه متفرقاً بين القبائل لئلاَّ يجتمع أعمامه بنو عبد مناف على المطالبة بدمه فجئنا برجال من كل القبائل وسرنا جميعاً خلسة حتى أتينا منزله وتربصنا له ريثما ينام فلما ظنناه نام وقد شاهدنا رجلاً ملتفاً ببردة حسبناه هو ثم خرج هو الينا ونحن نظنه سواه فكلمنا وحثا التراب على عيوننا وفرَّ من امامنا فتركناه ودخلنا على النائم فاذا هو عليٌّ ابن عمه ففرَّ الآخر من امامنا ونجا الجميع وتبعه من بقي من اتباعه في مكة الى المدينة (١) وهناك نصره المهاجرون والانصار وهم جنده الى هذا اليوم مع ما انضم اليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربها والغزوات التي غزاها فانه لم يدع قافلة لنا تمرُّ بالمدينة الاَّ غزاها وفرق اسلابها واموالها بين رجاله حتى كانت بيننا وبينه واقعة بدر الكبرى والصغرى وواقعة أحد وغير ذلك

(١) السيرة الحلبية

مما يطول شرحه

فعجب هرقل لحديث أبي سفيان ورآه لم يفرغ من حديثه حتى علا وجهه الاكتئاب والاسف فقال له وكيف حال صاحبك اليوم

قال قد انتشر أمره بين القبائل في سائر بلاد العرب الاً مكة فانها لا تزال ممتنعة عليه ونظنها ستمتنع برجالها وقد بلغني انه سيقدم لفتحها ولكنه سيلقى مناً غير ما لاقاه في وقائعه الاخرى . ومما يدلك على اغتراره بنفسه انه خاطب الامبراطور هرقل قيصر الرُّوم بمثل هذا الخطاب على اننا ما برحنا نسمعه من بدء دعوته يقول ان كنوز كسرى وقيصر ستفتح له [1]

فقال هرقل يؤخذ من كلامك ان الرجل جاءكم بالقول الحق فان عبادة الله اولى من عبادة الاصنام وانتم انما قاومتموه ظلماً

فقال أبو سفيان ان اكثرنا ايها القيصر يعتقد بالله ولكننا نتخذ الاصنام « ليقربونا الى الله زلفى » [2] ونعترف بالبعث والاعادة ولكننا لا نؤمن بالرسل [3]

فاعترضه احد البطاركة قائلاً فلا نظنكم قاومتموه الاً خوفاً على تجارتكم ان تبور اذا هدمت كعبتكم وقلّ توارد الناس اليها فهي مصالح دنيوية آثرتموها على مصلحة الاخرى

ثم اشار هرقل اشارة فهم الحضور منها انه اكتفى من حديث ابي سفيان فتقدم الحارث الى ابي سفيان وأومأ اليه فوقف وقبل الارض بين يدي هرقل فقال له الامبراطور لقد سرّنا لقاؤك واستفدنا من حديثك ولكنك

(١) الطبري (٢) القرآن (٣) المسعودي

تكبدت المشقة بالقدوم الينا جزاك الله خيرًا فقبل ابو سفيان الارض ثانية وقال ابيت اللعن ايها الملك العظيم فاني بالمثول بين يديكم افاخر اهل الحجاز كافة اذ قلما تيسر لاحد منهم ان يخاطب قيصر الروم · قال ذلك وخرج ورجاله معه فامر له هرقل بخلعة من الحرير المزركش

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وامر ان يحفظ في قصبة من ذهب (١) وامر بهدية الى دحية حامل الكتاب وسلم اليه الكتاب وصرفه

الفصل السابع عشر

﴿ عود عبد الله ﴾

أما عبدالله فما صدق ان فرغ ابو سفيان من حديثه وخرج حتى خرج هو معه فلما التقيا في صحن الدار سلما وكان ابو سفيان لا يذكر وجه عبدالله ولكن عبدالله رآه في مكة في بعض السنين على انهما تعارفا وتصافحا حالاً لما بينهما من رابطة اللغة في ارض قلّ فيها العرب فسأله ابو سفيان عن مسيره او اقامته فقال اني مسافر الى عمان فقال ابو سفيان لكن في طريقك اليها اودية وعقبات فهل انت معتاد السفر فيها

قال قد سرت اليها من هذا الطريق منذ بضعة اعوام

فقال ابو سفيان أما وقد تعارفنا وترابطنا فلنسر معاً لاننا عازمون على الحجاز وقد يسهل علينا المرور بعمان فاذا اقمت هناك ودعناك وسرنا في

---

(١) السيرة الحلبية

سبيلنا ولكن قافلتنا لا تزال في غزة وفيها جمالنا واثقالنا وخيولنا فلنقم هنا يوماً او يومين ريثما نستقدم القافلة ونسير جميعاً

فقال عبدالله حسناً تفعل فها اني ذاهب لوداع الحارث ثم اقضي بعض المهام ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة

قال ابو سفيان نعم الرأي رأيت

وافترقا فعاد عبدالله الى القاعة وكانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث خارجا يبحث عنه فلما لقيه سأله الحارث عن غيابه فاعتذر بانه كان في شاغل

فقال له هل تسير الى بصرى فتكون بمعيتي

فتحير عبدالله بماذا يجيبه وخاف اذا ابى الذهاب معه ان يحمل ذلك محملاً سيئاً وهو بالحقيقة لا يريد الذهاب الى بصرى قبل ان يلتقي بحماد وخاف ان يخبره عن عزمه على عمان مع ابي سفيان لئلا يستغشه فوقع في حيرة ولكنه اثنى على تلطفه في استصحابه وشكر عنايته في انقاذه وقال له ان مجيئي الى بيت المقدس قد حبب اليّ الاقامة فيها مدة قبل ان اسير الى بصرى على اني حيثما كنت انما اكون في ظل حمايتكم وحماية مولانا القيصر

فوافقه على ذلك وسلمه كتاب الامان وودعه فسار عبدالله حتى التقى بابي سفيان فقضيا بضعة ايام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأوا للسفر وكانت القافلة تنتظرهم خارج المدينة وفي صباح اليوم الثالث أعدت الخيول لركوب ابي سفيان وحاشيته

فقال ابو سفيان لعبدالله هل عندك جواد لركوبك

قال كلا لاني تركت فرسي في بصرى

فأمر ان يعطى له فرس من افراس حاشيته وقال له اركب هذا الجواد الآن فاذا وصلنا القافله اعطيناك فرساً يليق بك

الفصل الثامن عشر

﴿ جواد حماد ﴾

فركبوا حتى جاؤوا القافله خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلاً وعبدالله لا يرتاح الاّ بالسفر استعجالا لملاقاة حماد ولكنه اطاعهم فجاؤوه بفرس عليه سرج ثمين فلما وقع نظره عليه اختلج قلبه في صدره لانه يشبه فرس حماد ثم تأمله جيداً فاذا هو بعينه فاعاد نظره على السرج فاذاهو سرج فرس حماد فدنا منه ولمسه بين عينيهِ فآنس بالفرس حنوًا اليه وارتياحاً الى لمسه فتحقق انه هو فرس حماد بعينه فبغت وكان ابو سفيان واقفاً على مقربة منه يراعيه فلما رأى ذلك منه سأله عن امره

فقال اني في ريب من امر هذا الفرس لانه فرس ولدي

فقال ابو سفيان وكيف عرفته

قال عرفته من لونه وقده وسرجه وقد رأيته مذ كان مهرًا رضيعاً واعرف امه قبله

فتعجب ابو سفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال له واين كان ولدك

قال كان راكباً من بصرى الى عمان فأين ظفرتم بهذا الفرس

قال ظفرنا به تائهاً بالقرب من الزرقاء

فخاف عبد الله ان يكون لضياع هذا الفرس سبب يوجب قلقاً فاعاد السؤال ثانية عن كيفية عثورهم عليه

فقال ابو سفيان كنا قادمين من الحجاز الى الشام منذ بضعة اسابيع وفيما نحن بالقرب من الزرقاء نحاذر ان نقترب من مسبعتها اذ شاهدنا هذا الفرس تائهاً في الصحراء فارسلت بعض رجالي في اثره وبعد العناء والمشقة قبض عليه فجاء به اليّ فسقناه معنا الى غزة ثم جئنا به الى هنا كما ترى

فبهت عبد الله ولبث صامتاً لا يتكلم وقد غلبت الهواجس عليه مخافة ان يكون حماد قد ذهب فريسة السباع وفرّ جواده منه وهو يعلم ان الفرس اصيل لا يترك صاحبه الاّ اذا مات او أسر او غاب عنه فترقرقت الدموع في عينيه رغماً عنه ولكنه تجلد وقال اراني كثير القلق على ولدي ولا يهدأ لي بال حتى انفقد المكان الذي وجدتم الفرس فيه

فقال ابو سفيان هو في طريقنا الى عمان فاذا شئت عرجنا اليه وبحثنا معك عما تريد فان امر ولدك يهمنا كما يهمك

ثم ركبوا اما عبدالله فلم يشاء ان يركب فرس ابنه بعد ما رابه من امره فاركبوه غيره وساروا وهو لا ينبس ببنت شفة لاشتغاله بالهواجس فقضوا يومين سائرين وعبدالله لا يأكل ولا ينام الاّ قليلاً حتى صاروا على مقربة من الزرقاء فقال ابو سفيان ها اننا بقرب المسبعة فلنترك القافله وجمالها واحمالها ولنصحب بعض الفرسان الى ذلك السهل حيث عثرنا على الفرس يركض فيه

فعرجوا وهم عشرة رجال وفيهم ابو سفيان وعبدالله وساروا يحاذرون ان يلقاهم اسد او وحش آخر على انهم لم يكونوا يخافون ذلك والوقت نهار وهم كثار . فلم يسيروا الا قليلاً حتى وقف ابو سفيان وقال هذا هو المكان الذي عثرنا فيه على الفرس فقد رأيته يركض في هذا السهل

فقال عبدالله واين هي المسبعة

قال هي الى يميننا فاذا رأيت ان نعرج نحوها فعلنا

فقال عبدالله لا اراني قادراً على العود قبل ان اقتفي اثر حوافر الجواد لعلي اقف على اثر ولدي فاني اخاف ان يكون قد ذهب فريسة الوحوش والعياذ بالله . فقال ابو سفيان مربما تشاء فاننا بين يديك وامر رجاله فتفرقوا بين التلال يبحثون عن آثار الآدمين وبعد برهة عاد احدهم يسوق جواده زميلاً حتى دنا منهم فقال رأيت آثار اناس بالقرب من شجرة هناك

فهمز عبدالله جواده وتبعه ابو سفيان في اثر الرجل حتى دنوا من المكان فاذا هناك شجرة كبيرة تحتها آثار جواد مقتول لم يبق منه الا جمجمته وسرجه وبعض عظامه فعرف عبدالله من السرج انه جواد سلمان خادمه فصاح قائلا هذا هو جواد سلمان فاين حماد واخذ يبحث حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار نسيج عرف بالتأمل انها عباءة فظنها عباءة حماد قد مزقتها انياب الوحوش فلطم كفاً بكف وقال هذه هي عباءته فأين بقاياه ألعل الاسود اكلته كله قال ذلك وتناول قطع العباءة وجعل يقلبها ويذرف الدموع ويصيح واولداه قد اكلتك السباع آه اين انت . ولم يعد

يستطيع الوقوف

فتأثر ابو سفيان وكل من حضر من حالة ولولا خشونة البداوة وتعودهم القتل والنهب لبكوا معه ٠ أما ابو سفيان فقال له هون عليه يا اخا لخم فاننا لم نتحقق موت الغلام بعد وانت لم تعثر باثر جثته واخذ يخفف عنه ويطمئنه بمثل هذا الكلام وهو لا يهدأ له بال ولا ينفك عن البكاء بل جعل يلطم كفاً بكف ويقول أهذه هي آخرة حياتك يا حماد آه من لي بالانياب التي نهشت جلدك الناعم فاحطمها واين تلك المخالب التي غرست اظافرها في لحمك فأمزقها كما مزقته آه واولداه أهذا هو وفاء النذر أهذه عاقبة الاصطبار عشرين عاماً لنقص لك شعرك

فلما رأى ابو سفيان شدة اضطراب عبدالله وعظم بكائه رقّ له وخاف عليه فجلس الى جانبه وامسكهُ بيده واخذ يخفف عنه بما يؤمله ببقاء ابنه حياً وقال له ان ما رأيناه من الآثار لا يدل على شيء مما خفته فلو كان الاسد فتك بالغلام لرأيت شيئاً من بقاياه وهب ان الاسد اكل ثيابه فهو لا يستطيع ان يزدرد سيفه ورمحه فلو كان ما تظنه صحيحاً لرأيت سلاحه باقية هنا على الأقل فلعله فرّ ونجا ولم يفتك الاسد بغير هذا الفرس ارجع الى صوابك وتبصر في الامر فانك رجل عاقل خبير وزد على ذلك ان البكاء لايجديك نفعاً هلمّ نبحث في هذا الجوار لعلنا نقف على ما يكشف لنا الغامض

فقال عبدالله صدقت يا أخا قريش ان البكاء لا يجدبني نفعاً ولكنني اخاف اذا بحثت ان لا أزداد الاّ فشلاً ويأساً فدعني ابكي ولدي واقبل عباءته في هذه الصحراء حتى يلقاني الاسد الذي افترسه فاما ان أنتقم له منه

او ان يفترسني فنموت جميعاً فان ذلك خير لي وابقى

فما زال ابو سفيان يدافعه حتى سكن روعه فنهض وسار ماشياً بين التلال والصخور وابو سفيان يصحبه ورجاله منبثون في انحاء السهل يساعدونهما في التفتيش . فوصل عبدالله وابو سفيان الى غدير صغير اشرفا عليه من اكمة فآنس عبدالله عند الغدير شبحاً فهرول نحوه فاذا به ثياب وسلاح فتأملها فاذا هي عباءة حماد ورمحه وسيفه فضم السيف الى صدره وصاح هذا هو سلاحه وهذه هي عباءته لا تلك فاين هو . فاخذوا يبحثون في ذلك الجوار حتى ملوا التفتيش وكادت الشمس تميل الى الاصيل ولم يجدوا شيئاً فتحقق عبدالله ان حماداً قد ذهب فريسة الاسد فعاد الى البكاء والنوح حتى انفطر قلب ابي سفيان له واشفق عليه فاخذ يعزيه ويخفف احزانه وهو لا يزداد الاَّ بكاء

فقال ابو سفيان ما يجدينا البكاء يا اخا العرب اننا لا نستطيع رد الضائع ووالله لو كان ابنك اسيراً في ايوان كسرى اوقصر قيصر لبذلنا انفسنا في سبيل انقاذه لان لك علينا حق الجوار وزد على ذلك انك رجل قد وقعت من نفسي موقعاً عظيماً فسررت بلقائك وها اني بين يديك فافعل ما تراه فاني اطوع لك من بنانك

فسكت عبدالله برهة ولم يجب ولبث برهة غارقاً في بحار الهواجس يراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من اجله الى بصرى وما كان من اجل النذر ثم رجع الى صوابه وتجلد تجلد الرجال المدبرين فعلم ان البكاء لا يجديه نفعاً ورأى من الحزم ان يتدبر الامر بالصبر والتروي فلاح له ان يسير الى

عمان يفتش فيها عن حماد فلعل احداً اذبئه بحاله ونظر الى الشمس وقد قاربت الزوال وبينهم وبين الطريق بضعة اميال ورأى ابا سفيان ورجاله واقفين في خدمته ينتظرون امراً يطيعونه فيه فخاف ان يسبب لهم بالبقاء هناك اذية فقال لابي سفيان اني يا اخا قريش شاكر لحسن صنيعك واخشى ان اكون سبباً لضرر ينالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي فسيروا الى مقصدكم بحراسة الله ودعوني اسير في طريقي

فاجابه ابو سفيان قائلاً دع عنك الهواجس واعلم اننا لا نبرح هذا المكان الاّ وانت في مقدمتنا فلسنا بتاركيك وحدك فاذا رافقتنا فاننا في خدمتك حتى تصل مأمنك واذا شئت المسير معنا الى مكة فانك تنزل بيننا على الرحب والسعة فاختر لنفسك

فهمّ عبدالله بابي سفيان وضمه الى صدره لما آنسه من تعزيته وقال لقد وفيتم الكيل واجزلتم الجميل · اما المسير معكم فغير مستطاع ولا بد لي من النظر في الامر فاما ان اسير الى عمان او اعود الى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء

قال اننا اذن في ركابك الى عمان ثم الى حيث تشاء. قال ذلك وامسك بيده وسار به فمشى عبدالله وسيف حماد بيده يتنسم منه رائحته وعادوا جميعاً الى القافلة

وكان عبدالله في اثناء عودته صامتاً يفكر في حاله ويتردد بين ان يسير الى عمان وهو لا يدري ما يلقى هناك بعدما داخله من الريب في امر حماد وهو موته · على انه لما نظر في الامر طويلاً وراجع ما مرّ به من اهوال ذلك اليوم

اعترضه امل رأى من خلاله بصيصاً هيأ له حماداً حياً وذلك انه فكر في امر ما اعثر عليه من بقاياه فلم يجد دليلا قاطعاً بموته وهو لم يعثر بشيء من جثته فقال في نفسه لو اكلته السباع لبقيت منه بقية مثل بقية ذلك الجواد من جمجمة او عظام او قطع من ثوبه ممزقة . ثم فكر في ما وجده من السلاح فاذا به لم يره في الموضع الذي رأى فيه بقايا الجواد فقضى مدة يتردد بين اليأس والرجا حتى وصلوا القافله

فقال ابو سفيان ما ترى يا اخا لخم هل تسير معنا الى الحجاز او تزمع الى المكان نوصلك اليه في انحاء الشام ام تريد امراً تقضيه لك

فقال عبدالله اني والله لا ادري ماذا اقول ولا اعلم ماذا اعمل فأرى ان تتركوني في هذا المكان افكر في امري حتى الهم امراً اعمله فاني لا افقه من امري شيئاً

فقال ابو سفيان لسنا تاركيك وانت في هذه الحال

فقال عبدالله لقد غمرتموني بفضلكم وانسيتموني حزني بتعزيتكم اما وقد اصررتم على ذلك فاني اود الذهاب الى عمان لعلي استطلع خبراً جديداً

وكانت الشمس قد اذنت بالزوال فباتوا ليلتهم هناك واصبحوا باكراً يريدون عمان فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبدالله استودعكم الله فاني معرج الى عمان انتظر ما يأتي به القضاء



الفصل التاسع عشر

عمان

فودعه وانصرف وقد تركوا عنده فرس حماد وبعض الزاد فلما انفرد عبدالله بنفسه نظر الى عمان وقد اشرف عليها من مرتفع فاذا هي مدينة خربة لم يبق من ابنيتها الرومانية الاَّ بضعة متهدمة اعظمها هيكل خرب على تل بالقرب من غدير كاد ماؤه ان يجف ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتاً حقيرة يسكنها بعض الفقراء لا تكاد تزيد على قرية حقيرة· فسار نحو الهيكل وقطع اليه على جسر يظهر من منظره انه كان عظيماً وتهدم (1) فوصل الهيكل ماشياً يقود الفرس وراءه وهو يحرص عليه حرصه على ابنه لانه من اثاره

فما وصل ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبرَّ وجه الافق فجلس على حجر من احجار الهيكل ملقى عند بابه وامسك بزمام الفرس ونظر اليه فرآه هادئاً كئيباً كأنه شعر بما يخامر قلب عبدالله من الهواجس فشاركه في الاسف على فقيده ثم نظر عبدالله الى ما حوله فاذا هو في ارض خالية من انفاس الناس لا يسمع فيها صوتٌ ولا يرى فيها الاَّ اشباح بعض التلال او الاحجار او الاشجار والتفت الى ذلك البناء على عظمه فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليه لما يتجلى فيه من آثار الخراب فكان له بذلك عبرة عن مصير الانسان فتذكر حاله مع حماد وما مرَّ به في ذلك اليوم من الاهوال فغلب عليه

---

(1) قاموس التوراة لسميث

القلق واشتد به الحزن حتى ترقرقت الدموع في عينيه ثم حانت منه التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثته هواجسه انه سيجد حماداً بين اهلها فنهض بغتة يريد الذهاب اليها · ثم عاد الى صوابه فقال في نفسه لا اراني الاّ في اضغاث احلام ان حماداً قد اصبح في عداد الاموات فعادت اليه احزانه فجلس على ذلك الحجر وعاد الى البكاء

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد سدل نقابه وعلا نعيق الغربان وضجت اصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء فخاف ان يكون في بقائه هناك خطر على حياته من وحش يفترسه او لصوص يسطون عليه فيقضي نحبه قبل ان يتحقق امر حماد فعاد · الى ذكرى احزانه فأمسك بحسامه وقبله وأجهش في البكاء

وما زال في مثل ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على اثر ما قاساه من تعب المشي فاسند رأسه الى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام وعنان الفرس في يمينه فما شعر الاّ والجواد يصهل و يفحص الارض بحوافره فعلم ان هناك امراً ذا بال فوقف واصاخ بسمعه وحدق بعينيه فلم يرَ شيئاً ولا سمع صوتاً فعاد الى متكإه وهو لا يستطيع الرقاد لشدة هواجسه فالقى باذنه الى الارض ليستطلع سبب اضطراب الجواد لعله يسمع صوتاً او يستنبيء نبأ جديداً · فسمع وقع اقدام كثيرة فعلم ان الجواد لم يجفل عبثاً وان جماعة قادمون الى ذلك المكان فهيأ نفسه للدفاع وصعد الى ربوة بالقرب منه لعله يرى اشباحاً عن بعد فلم ير شيئاً لان الظلام كان شديداً فعاد الى مكانه وهو يتوقع امراً خطيراً فشغله ذلك عن هواجسه برهة فقضى بقية ذلك الليل

في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر وكان قد غمض جفنه قليلاً فافاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منه جماعة كثيرة من الرجال في لباس البدو فظنهم لاوّل وهلة من رجال ابي سفيان لأنهم في مثل زيهم وقيافتهم ولكنه ما لبث ان سمع بعضهم يناديه منتهراً ثم هموا به يريدون القبض عليه فهمّ بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسه فتجمهروا حوله وهم كثار فلم يستطع دفاعاً فقبضوا عليه واوثقوه وساقوه وهو يكاد يتميز غيظاً فقال لهم ماتريدون مني ولا ثار بيني وبينكم فناداه أحدهم قائلاً كيف لا ترى ثارًا بيننا وبينك وانت من رجال غسان وقد قتلتم رسولنا واهنتم نبينا

فقال لقد اخطأتم المرمي فما انا من غسان وانما انا غريب في هذه الديار

فقالوا ان كنت صادقاً فيما تقول فبرىء نفسك امام اميرنا قالوا ذلك وساقوه موثقاً واخذوا سلاحه وفرسه فمشى معهم برهة فأشرف على خيام مضروبة ورأى جموعاً كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الاحمال والاثقال والخيول والجمال فساروا به الى فسطاط كبير علم من العلم المنصوب امامه انه فسطاط الامير وكان العلم ابيض (١) ولم يكد يدنو من الخيمة حتى تقاطر الرجال زرافات ووحداناً وكلهم من اهل البادية مكشوفو الرؤوس تغطي ابدانهم شملات يلتحفونها الاّ قليلاً منهم وقد لوحت وجوهم الشمس وظهرت عليهم آثار الاسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال

فلما وصل الفسطاط اوقفوه خارجاً ودخل بعضهم ثم عاد فقاده الى داخل فرأى في صدر المجلس رجلاً بعمامة وجبة جالساً على بساط وبين يديه بضعة

(١) السيرة الحلبية

من رجال في مثل لباسه فعرف انهم امراء ذلك الجيش فاستعاذ بالله مما هو مساق اليه نخاطبه الامير قائلاً

من انت يا اخا العرب أَلعلك من رجال الحارث بن ابي شمر

قال لست من اهل هذه الديار

فقال أَلست من غسّان

قال كلاً

قال ومن انت

قال من لخم

قال وماجاء بك الى هذا المكان ولخم تقيم في العراق . أَلعلك ممن جاؤوا لنجدة الروم من لخم وخذام وبلقين فقد علمنا ان هرقل جند جنداً فيه اخلاط من العرب المتنصرة [1]

قال لست من اؤلئك بل جئت في حاجة ولا أَلبث ان اعود

قال أَصدقنا الخبر فانك اسير بين ايدينا

قال قلت لكم الصدق

قال وما دليلك على ذلك

وكان عبدالله قد عرف من لغتهم ولباسهم انهم من قريش فتذكر ابا سفيان فظن استشهاده به ينجيه من الخطر ودليلي فقال اني كنت في الامس مع أَبي سفيان امير قريش وهو صديق لي حميم فاذا كان بينكم اسأَلوه فما أَتمّ كلامه حتى قطب الامير وجهه وقال له أَأَنت صديق لذلك

(1) السيرة الحلبية

المشرك فانك لم تزدنا في شأنك الا شكاً وما الذي جرّك الى صداقة هذ الزنيم

فارتبك عبدالله في امره ولم يدر كيف يخلص نفسه من ذلك الاقرار ولكنه تجلد وقال عرفته منذ بضعة ايام فقط وقد جاء لتجارة الى هذه الانحاء فاصطحبته زمناً يسيراً ثم افترقنا بالامس

قال ذلك وقد تذكر حكاية ابي سفيان وعداوته لصاحب دعوة الاسلام فأدرك انه بين يدي رجال صاحب الدعوة الاسلامية فلم يزد شيئاً

فقال له الامير لو اقتصرت على كونك من لخم لكان الامر سهلاً ولكنك اقررت بانك صديق لعدونا فانت مقيم في اسرنا حتى نري ما يكون من امرك ثم امر فاخرجوه مخفوراً الى خيمة منفردة جعلوه فيها

الفصل العشرون

غزوة موتة

ولو كان عبدالله ممن لم يتعودوا الاخطار لاستعظم الامر كثيراً ولكنه لعامه ببراءته صبر نفسه حتى يتمكن من اظهار حقيقة حاله على انه ما زال في ريب من امر هذا الجيش ومجيئه من الحجاز الى الشام فاحب الاطلاع على مهمته حتى يعرف كيف يخلص نفسه. فلما وصل الخيمة جاءه بعض الخفر واخذ يسأله عن ابي سفيان وكيف لقيه واين فارقه فاغتنم تلك الفرصة فقال للرجل الى اين تقصدون بهذا الجند

قال نقصد مشارف الشام لحرب الروم

قال وما الذي دعاكم الى حربهم

قال دعانا الى حربهم ما رأيناه من وقاحتهم

فقال وما اوجب ذلك وانتم من قريش على ما يظهر ومقامكم في الحجاز وليس بينكم و بينهم علاقة

فقال ان نبينا محمدًا الذي ارسله الله نذيرًا للناس كافة انذرهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسلام فما وصل الكتاب الى الغساني امير العرب المتنصرة حتى مزقه وقتل رسولنا (١) فاشتد الامر على نبينا فبعث مولاه زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم

فقال عبدالله قد رأيت رسولكم الى هرقل بمثل هذا الكتاب فلم يفعل به مثل ذلك

قال ذلك كتاب غير الذي ذكرته لك ارسله قبله أما قولك ان هرقل لم يفعل مثل ما فعل الغساني فلأنه هاب ملكنا واما الغساني فقد غرّه جهله وسوف يلقى منا ما لقيه عرب الحجاز واليمن ممن ابوا الاسلام

فقال عبدالله ومن هو الامير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الامراء الذين حوله

قال هو زيد بن حارثة مولى رسول الله أما الامراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينه هو جعفر بن ابي طالب ابن عم نبينا والجالس عن يساره عبدالله بن رواحة وقد اوصى لهما بالامارة على هذا الجيش لكل منهما عند الحاجة (٢) وقد أمرنا نبينا ان نأتي المكان الذى قتل فيه رسولنا وهي

(١) السيرة الحلبية (٢) ابن هشام

قرية يقال لها مؤتة فندعو اهله الى الاسلام فان ابوا قاتلناهم حتى نفنيهم عن آخرهم او يحكم الله بيننا وبينهم

فأدرك عبدالله سرّ الامر . فقال للرجل وماالذي جنيته انا حتى ستقتموني واسيرًا ما انا من الرّوم ولا من غسان

قال لا اظن عليك بأسًا من هذا الامر ولولم تتظاهر بصداقتك لابي سفيان لكان ذنبك خفيفًا ولكنك ستبقى في اسرنا لعلنا نحتاج اليك في أثناء الحرب

فسكت عبدالله وقد هان عليه ما خاف ولبث ينتظر ما يأتي به القدر ولكنه ما لبث ان هدأ روعه من قبيل الخطر عليه حتى عاد الى هواجسه بشأن حماد وكلما ترجح له موته تمنى ان يقتل فيلحق به

وبعد يومين من دخوله في الاسر تهيأت تلك الحملة للمسير الى مؤتة فلنتركهم في طريقهم ولنعد الى حماد وما تمّ له مع سلمان

الفصل الحادي والعشرون

﴿ حمّاد وسلمان ﴾

تركنا حمادًا وسلمان وقد خرجا من الدير وسلمان يفضل العدول عن ذلك الطريق لما خافه من مسبعة الزرقاء وحماد يحبب اليه المسير فيه خوفًا من طول المسافة اذا عدلا عنه

فلما رأى سلمان اصرار حماد اطاعه وسارا في اقرب الطرق ولكنه ما لبث خائفاً غائلة ذلك السبيل فعوّل على الاحتراس واتخاذ وسائل الوقاية فاوعز الى حماد فلبس درعه تحت اثوابه وسارا حتى امسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفته فما لبثا ان تناولا شيئاً من الزاد حتى تعاظمت هواجس سلمان وكأن نفسه حدثته بخطر قريب فهمّ بتجسس المكان قبل اشتداد الظلام · وكان حماد قد نزع عباءته وسلاحه وجعلها الى جانبه على ضفة الغدير فلما نهض سلمان نهض حماد معهُ وقادا فرسيهما وراءهما وصعدا الى اكمة أطلاً منها على السهل المحدق بهما وجعلا ينظران الى ما حولهما من السهول وفيها بعض الاكام تتراءى كأنها جماعات من الناس او اسراب من الوحوش فهالهما ذلك المنظر ثم سمعا زئيراً عن بعد فاجفل الجوادان واخذ يفحصان الارض بحوافرهما.

فقال سلمان ها قد احدق الخطر بنا وهذا ما كنت اتخوفه ياسيدي فهلمّ بنا الى النجاة · فقال حماد وماذا ينجينا · فالتفت فرأى شجرة فقال عليك بهذه الشجرة نتسلق أغصانها فان الاسد لا يقوى على الوثوب اليها · فاسرعا وقد نسي حماد سلاحه وعباءته فشد الجوادين اليها وتسلقا اغصانها والجودان لا ينفكان عن الصهيل

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتمسكا بالاغصان وهما يحاذران ان يراهما الاسد مع علمهما بامتناعها عليه ثم ما لبثا ان رأياه واثباً عن اكمة بالقرب منها اما الجوادان فانهما اجفلا وصهلا صهيلاً طويلاً ونفرا يريدان الفرار فانقطع زمام فرس حماد فطلب عرض الصحراء · واما فرس سلمان فلم يستطع التخلص قبل ان ظفر به الاسد فقبض على صدره بمخالبه فوقع

الفرس الى الارض فهمَّ به الاسد فمزق عنقه بانيابه فسال دمه فاخذ ينهش في لحمه

ثم وقف الاسد ونظر الى ما حوله فرأى عباءة سلمان فهمَّ بها كأنه ظنها رجلاً فمزقها بين انيابه ومخالبه اي ممزق واخذ يتمايل بمشيته المعهودة حول الشجرة وقد تنسم رائحة الرجلين في اعلاها مع عجزه عن ادراكهما فجعل يحك جلده بجذعها و يزأر اي زئير حتى مالت الشجرة بهما وخافا السقوط فتمسكا بالاغصان وثبتا في مكانيهما وقلبُاهما يخفقان خوفاً وحذراً والاسد لا ينفك عن الزئير والخطران ذهاباً واياباً وعيناه تتلألآن في الظلام كأنهما سراجان منيران والفرس يخور خوار الثور حتى مل الاسد فزأر زأرة دوى لها ذلك السهل الواسع ورددت صداها تلك الآكام وارسل ذنبه فوق ظهره وعاد من حيث أتى فلبثا يراعيانه في مسيره وهو يخطر الهوينا متبختراً تيهاً وعجباً حتى واراه الظلام عنهما ولكنهما ما زالا يسمعان زئيره عن بعد وهما صامتان لا ينبسان ببنت شفة · فلما تحققا النجاة منه وهما لا يصدقان انهما نجوَا قال سلمان أرأيت يا سيدي ما كنت اخافه فنشكر الله الذي انبت هذه الشجرة في هذه الصحراء لتكون سبباً لنجاتنا من الموت بين مخالب الاسد

فتحقق حماد عظم الخطر الذي نجوامنه ولكنه اسف لذهاب فرسه · فقضيا معظم الليل مستترين في تلك الشجرة يخافان الانحدار منها حتى انبلج الصبح فنزلا ونظرا الى فرس سلمان فاذا هو مضرج بدمائه ولا حياة فيه· فقال سلمان هلمَّ بنا نطلب عمان على اقدامنا وقد كان في طاقتنا ان نذهب اليها راكبين ولكن هذه ارادة المولى فنشكره لنجاتنا من مخالب الاسد وما خسرناه

انما هو متاع يسهل التعويض منه

فقال حماد ان الفرس عزيز عندي كما تعلم فهل تظننا نظفر به بعد

فقال دعنا والافراس فان منها شيئاً كثيراً حيثما حللنا فسر بنا حالا لنقطع هذه المسبعة قبل ان يدركنا الظلام

فقال ولكنني اعزل وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدير فعد بنا للبحث عنها

فقال لا اراني قادراً على تعيين المكان الذي كنا فيه لان الطرق تشابهت علي واخشى اذا اطلنا البحث ان تفوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الاسد مرتين فلا نامن ان نجوا منه في المرة الثالثة ونحن على اقدامنا فهلم بنا

فاطاعه حماد وسارا الى عمان فوصلاها واقاما فيها بقية الشهر المعين فلم يأت عبدالله فقضيا اسبوعاً آخر وهما على احر من الجمر فلم يأت احد فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما نحو بصرى عن طريق غير التي جاءا بها خوفاً من غائلة الاسود وهما في هواجس على عبدالله وغيابه واخذا يدبران وسيلة يدخلان بها المدينة او ما جاورها ولا يعلم بهما ثعلبة او احد من رجاله

اما حماد فكان بين هاجسين عظيمين هند من جهة وعبدالله من جهة اخرى ولكنه شكر الله لبقاء الدرع لانها تذكار ثمين عنده

فلندعوهما في حيرتهما ولنذهب بالقارىء الى بصرى وما كان من امر ثعلبة بعد ان تم له القبض على عبدالله وارساله مخفوراً الى بيت المقدس كما قد رأيت

الفصل الثاني والعشرون

﴿ عوامل الغيرة ﴾

تركنا ثعلبة بعد ذهاب عبدالله في بصرى وفي نفسه غل على هند لا يهدأ له بال الا بالايقاع بحماد فبث رجاله في ضواحي المدينة للبحث عنه فلم يقف له على خبر فانفذ نفراً من خاصته سرًّا يتجسسون حال عبدالله بعد ذهابه الى هرقل فأنبأوه بما كان من عفو الامبراطور عنه ومسيره مع ابي سفيان ولكنهم لم يعرفوا عنه شيئاً بعد ذلك لانهم لم يتجرأوا على مرافقة القافلة خوفاً من انكشاف امرهم

اما ثعلبة فانه اندفع بعوامل الغيرة على الانتقام من حماد وايقاع الاذى بهند وشعر بانعطاف اليها لا حباً بها بل رغبة منه في ان يحرمها من حبيبها وقد تكون تلك الغيرة سبباً للحب الحقيقي على ما نراه عادة في الناس — فقد يعاشر الشاب فتاة اعواماً لا يهمه من امرها شيئاً ولا يخطر له الاقتران بها وربما كان في نفسه ترفع عنها وهو يزعم انها لو عرضت عليه لا يرضاها فاذا آنس منها ميلاً الى غيره او رأى غيره ميالاً اليها وخصوصاً اذا كان الحب متبادلا بينهما فان عوامل الغيرة تثور في قلبه ويتحول حبه الفاتر الى شغف شديد ولا يرتاح له بال الا بنيلها ولا يقتصر ذلك على هذا النوع من الحب ولكنه يتناول سائر انواعه . فقد ترى عقاراً او متاعاً معروضاً للبيع ولا يهمك ابتياعه فاذا رايت الناس يقبلون عليه آنست في نفسك ميلاً الى شرائه والظاهر ان ذلك غريزي في الناس على اختلاف ادوار حياتهم فاذا اردت ان تطعم الطفل

شيئاً لا يحبه ونفر منه فاذا تظاهرت باعطاء ذلك الشيء الى سواه رأيته يطلبه بلجاجة ويتناوله بلذة

فثعلبة لم يكن يهمه امر الزواج بهند ولا هو احبها حب الزواج الاَّ بعد ما آنس من ميلها الى حماد فدفعته عوامل الغيرة الى الاقتران بها ولكن خبث فطرته جعل ذلك الميل مقروناً بالانتقام . ولما لم يجد سبيلا الى ذلك بالقوة عمد الى الحيلة فحدثته نفسه ان يشكوها الى والديها و يكشف لها ما كان من انفرادها بحماد في الدير ولكنه خاف ان تكون تلك الوشية سبباً لغضب عمه حتى ينقلب عليه لعلمه بمنزلة هند عنده فربما صدقها وكذبه ورغب في حماد عنه . فلم يرى سبيلاً الى شفاء غله الاَّ بخطبتها من ابيها وهو يعلم ان والدها لا يرده فلما عاد ابوه من بيت المقدس بسط له عزمه على الاقتران بها لما بينهما من رابطة القرابة فسرَّ ابوه بذلك ووعده ان يخاطب جبلة في الامر

فركب ذات يوم الى البلقاء في موكبه وحاشيته فاستقبله جبلة بالتجلة والاكرام وان يكن في نفسه منه غيرة لاحرازه الوجاهة عليه لدى هرقل فلما التقيا ودار الحديث بينهما ذكر الحارث رغبته بمصاهرته فابدى له ارتياحاً ووعده بتمام الامر قريباً وهو غافل عما تضمره هند من البغض لثعلبة والاشتغال بحب حماد

فلما رجع الحارث الى بصرى خلا جبلة بامرأته تلك الليلة وذكر لها حديث الحارث فلم يسمع منها ايجاباً ولا سلباً لعلمها بما في نفس ابنتها من الاحتقار لثعلبة ولكنها استمهلته ريثما تطارح الفتاة وتطلع على رأيها وان

تكن عوائدهم لا تبيح للبنات حق الاختيار في مثل هذا الشأن ولكن هنداً كانت متغلبة على عواطف والديها حائزة على نفوذ يؤذن بمراجعتها واستشارتها



الفصل الثالث والعشرون

هند وأمها

اما هند فقد تركناها ليلة الدير عائدة الى القصر وقد تمكنت من حب حماد والاعجاب بشهامته الى درجة لم تعد تراعي معها حقوق الوالدية وخصوصاً بعد ماعاينته من غيرة ثعلبة وغدره ولكنها وصلت القصر وقلبها لا يزال مشيعاً حماداً في عودته وهي تدبر حيلة تتخلص بها من لوم والدتها على غيابها . فلما دخلت القصر رأت والدتها في قلق لغيابها فبادأتها بالعتب على تأخير الخادمة بالاساور . فقالت الوالدة انا استحسنا الاساور واعدنا الخادمة لتعجيل حضورك فادّعت هند انها انتظرت رجوعها حتى حلك الظلام فلما ابطأت استصحبت بعض خدمة الدير حتى اوصلها الى ذلك المكان . فاسغربت والدتها ذلك الاتفاق وجعلت تعتذر لها عما حملتها من المشقة وقالت لعل الخادمة سارت اليك من طريق غير الذي جئت به ولا تلبث ان تعود

فتظاهرت هند بالتعب وسارت الى غرفتها وهي غارقة في بحار الهواجس وقلبها واجس على حماد من غدر ثعلبة لما تعلمه من لؤمه وخيانته

فقضت تلك الليلة بمثل هذه الهواجس لم يغمض لها جفن الى قبيل

الصباح فنامت قليلاً فلما اصبحت جعلت تتنسم الاخبار ممن يذهب من خدمة صرح الغدير الى بصرى لابتياع حاجيات القصر

فما لبثت ان علمت بالقبض على عبدالله وفرار حماد وشكرت الله على نجاته ولكنها ظلت في خوف عليه وهي لا تستطيع سبيلاً الى الوقوف على خبره فقضت بضعة ايام منقبضة النفس لا يلذ لها طعام ولا يهنأ لها عيش حتى ظهر اثر ذلك على وجهها ووالدتها تبالغ في تسليتها وتستغرب ما ألمَّ بها وهند تعتذر بانحراف صحتها على أثر التعب من ليلة الدير

فجعلت تصطحبها في اثناء النهار الى ضواحي القصر تقضيان الساعات معاً في البساتين على ضفاف الغدير وهند لا تزداد الاّ انقباضا وضعفاً حتى امتقع لونها وقلّ طعامها فارتابت والدتها من امرها وازدادت حنوًّا لها وميلاً لاستطلاع حقيقة حالها فلم تجد الى ذلك سبيلاً . وقد قدمنا ان سعدى كانت من الذكاء والفطنة على جانب عظيم فأساءت في ابنتها الظن وخيل لها ان لذلك التغيير سبباً مهماً فعولت على اغتنام الفرص لكشف ذلك السبب فلما خاطبها زوجها بأمر ثعلبة ورغبته في هند اتخذت ذلك الامر وسيلة لاستطلاع ما في ضميرها فدعتها ذات يوم للخروج معاً الى الغدير على حدة فأمرت بعض الخدم فاعدوا لها وسائل الراحة فخرجتا حتى أتتا ضفة الغدير وكان الجو صافياً والنسيم عليلاً والماء يجري امامها وكانت هند بلباس البيت وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ارسلتها على ظهرها وشدت عصابة حول رأسها كمن يشكو الصداع فقضت مسافة الطريق من القصر الى المكان المقصود تسير الهوينا صامتة تجر ذيل ردائها وراءها وتتشاغل تارة في رفعه

عن الارض لئلا يعلق ببعض الاشواك النابتة في ذلك البستان وطوراً تلهو بالتأمل في ما يتطاير عن اشجاره من الطيور . فلما وصلت المكان اتكأت على وسادة من الحرير المزركش صنع دمشق فوق بساط ثمين تحت شجرة ظللتها ساعة العصر وكانت والدتها قد جمعت بعض الازهار في ضمة واحدة جاءت بها اليها فتناولتها وهي لا تتكلم فهمت بممازحتها فقالت اليك هذه الازهار فان لتقديمها معنى هل تفقهينه ؟

فتناولت هند الازهار وهي لا تفهم المراد

فقالت لها والدتها ما بالك لا تجيبيني على سؤالي

قالت اسأليني فاجيبك

قالت قد سألتك فاجبت

قالت لم تسأليني ولا اجبتك

قالت بلى قد أجبت

قالت كيف ذلك وانا لم أفه بكلمة

قالت ان تناولك هذه الازهار من يدي جواب على سؤالي

قالت لم أفهم مرادك يا أماه فافصحي

قالت اضمرت في باطن سرّي وانا أقدم هذه الازهار اليك انك اذا قبلتها من يدي كان اخذها جواباً على ما في ضميري

قالت مالي اراكِ تخاطبينني بالرموز فاني لم اقل شيئاً

قالت مالنا ولهذا فاني اسألك سؤالاً آخر فهل تصدقينني فيه

قالت قولي فاني طوع امرك

قالت أتحبين ابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمه بغتت وعلا وجهها الاحمرار ثم عقبه الاصفرار بغتةً وظهر الانقباض عليه ولم تجب

فقالت والدتها قد وعدتِ بالجواب ولا اراكِ تجيبين

قالت اني لم أرَ مسوغاً لهذا السؤال ولم افهم مرادكِ منه وانت تعلمين منزلة هذا الشاب عندي

قالت ما لنا وللمزاح فاني اسألك سؤالاً صريحاً فارجو الجواب عليه صريحاً فهل تحبين ثعلبة . فتجلدت هند وتجاهلت قائلة أليس هو ابن عمي فأُحبه محبة الاعمام وان يكن لا يستحق هذه المحبة

قالت ولكنني أُسالكِ هل تحبينه محبة غير هذه . فادركت هند مغمز كلامُ والدتها فنفرت ولم تجب

فاقتربت سعدى منها حتى احتك جنباهما وقالت ما بالك لاتجيبيني فان والدكِ كلفني بالسؤال عن ذلك فماذا اجيبه

فسكتت هند ولبثت برهة تفكر في مراد امها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئاً قرأَته على ملامح وجهها ولكنها تجاهلت واظهرت عدم الاكتراث فظلت متكئة تنظر الى والدتها شذراً كأَنها تقول لها كفي المزاح في هذا الموضوع

فكررت والدتها السؤال بهذا المعنى فاعتدلت هند في مجلسها ونظرت الى والدتها والاستغراب ظاهر على وجهها وقالت افصحي يا اماه فان لسؤالك معنى انقبضت له نفسي فما تعنين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذي

وجدته القرابة رغم ارادتي

ففهمت والدتها ما في قلب هند من الحقد على ثعلبة وكانت قد لاحظت منها ذلك قبلاً فارادت المبالغة في التجاهل حتى تستطلع افكارها فقالت لا تسارعي الى الطعن في ابن عمك فانه سيكون اقرب اليك من ذلك

فنفرت هند حتى وقعت الازهار من يدها ونظرت الى والدتها نظرة العتب وقالت لها ارجوان لا اسمع منك يا أماه ما يكدر عواطفني فاني لا ارى مسوغاً لتكديري بهذه الالغاز فليس لثعلبة وطر عندي ولا هو ممن يطمع بقرابة فوق هذه . فوحبك لو استطعت التبرؤ منه لفعلت وانت أعلم الناس بمنزلته عندي واظنك اقدر مني على الجواب عن هذا السؤال أم أنت تمازحينني ؟

قالت بل اقول الجد فان عمك الحارث خاطب والدك بشأنك فماذا نجيبه

فالتفتت هند الى والدتها باستخفاف كأنها تقول لا اصدق ما تقولين

فاجابتها بلامح عينيها وابتسامها انها تريد الجد وقالت لا بل اني اسألك سؤالاً صريحاً هل تحبين ثعلبة

فنهضت هند عند ذلك وتظاهرت بجميع الازهار التي كانت قد وقعت من يدها وازدادت امتقاعاً وظنت سكوتها جواباً كافياً . وظنها في محله لكن سعدى كانت تبالغ في التجاهل لعل الحديث يجرها الى معرفة سبب انقباض ابنتها بعد ليلة الدير فقالت لها ما بالي اخاطبك فتتشاغلين عن جوابي ألعل خطابي لا يستحق الجواب عندك

فترامت هند على صدر والدتها بدالة الوالدية وقبلت يدها وقد خجلت لهذا التوبيخ وقالت حاشا لي ان افعل ذلك يا أُماه ولكنني أعجب لسؤالك واصرارك على طلب الجواب وانت تعلمين اني اريد التبرىء من القرابة القديمة فهل اجرُّ عليَّ عيباً آخر ٠٠ ؟ فليس لثعلبة وطر عندي

فقالت أظنك شغلت عنه بغيره . قالت ذلك وتظاهرت بالمزاح ولكنها آنست في وجه هند تغيراً سريعاً فعلاه الاحمرار بغتة وسكتت

فقالت سعدى ما بالك لا تجيبيني وارى وجهك يتكلم وعيناك تعترفان فما بال لسانك لا ينطق

فتذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء وتصورت ما أتاه ثعلبة من الاذى له فاشتدَّ بها الامر حتى ترقرقت الدموع في عينيها فحولت وجهها عن والدتها اخفاء لما كاد يظهر من عواطفها وتشاغلت بمراقبة غزال نافر رأته يثب على التلال عن بعد وظلت صامتة ويكاد الدمع يتناثر من عينيها

فازدادت والدتها ارتياباً من شأنها فقالت في نفسها هذه هي الفرصة المناسبة لكشف المخبأ فقالت لها ما بالك تحولين وجهك عني يا هند ألعلك تخفين شيئاً

فظلت هند ملتفتة وتمنت ان تكون في خلوة لتطلق لدموعها العنان

فأمسكتها والدتها بيدها وحاولت تحويل وجهها نحوها فافلتت هند وغطت وجهها بكمها لئلاً يظهر بكاؤها فتحققت سعدى ان هنداً تبكي فكاد قلبها ينفطر عليها فقالت ما بالك يا هند ما الذي يبكيك ألعلي اصبت

ظني وهل انت تخفين شيئاً عني

فاوغلت هند في البكاء وهي تحاذر ان تسمع والدتها شهيقها حتى بللت كمها ولم تستطع التسلط على عواطفها · فتحققت سعدى ان هنداً قد وقعت في الشراك وان قلبها في شاغل ولكنها لم تفقه حقيقة الحال فحاولت استطلاع السرّ فقالت اذن انت في شاغل عن ثعلبة

فظلت هند صامتة خجلاً وقد سترت وجهها بكمها بين يديها

فسكتت سعدى واخذت تفكر في من عسى ان يكون ذلك الشاغل وخافت ان تلح على ابنتها بالسؤال فيزيدها خجلاً فلا تعترف لها بالواقع

فمضت بضع دقائق وهما صامتتان واخيراً تظاهرت سعدى بالجد ونادت هند قائلة · أما وقد ظهر منك ماظهر فلم يعد ثمَّ داع الى الاخفاء فقد تحقق لديَّ انك في شاغل ذي بال فافصحي يا ابنتي وقولي ما في ضميرك فاني والدتك وانت تعلمين حبي لك فاجعليني مكان سرك واتخذيني صديقة لا والدة واطلعيني على مكنونات قلبك فنحن الآن في خلوة لا يرانا احد وقد قضيت اياماً افكر في ما غيرك وقبض نفسك وانت تخفين عني حقيقة حالك · أما ابن عمك ثعلبة فانه لن ينال منك شعرة وانا اعلم الناس به وهبي ان والدك رضي به فانا لا ارضاه لك

ثمَّ همت بها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهند تبالغ في تغطية وجهها حياءً · فقالت لها سعدى افصحي يا ابنتي واخبريني فقد نفد صبري قولي ما في نفسك فاني معينة لك على المراد

فلما سمعت هند كلام والدتها رفعت رأسها من بين يديها فنظرت الى

والدتها بعينين قد اذبلتها الدموع وغيرها الهيام وحاولت الكلام فمنعها الحياء فاعادت وجهها الى ما بين يديها والقت نفسها على صدر والدتها وقد اخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً

فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت قولي ياولداه لا تخافي لاننا في خلوة لا يرانا احد هل تحبين احداً

فتنهدت هند تنهداً عميقاً ولم تجب فاخذت والدتها التنهد جواباً شافياً فقالت ومن ذا الذي تمكن حبه منك حتى تسلط على قلبك ونحن نحسبك اثبت جاشاً من الرجال وما عهدي بك مسترسلة لعواطفك الى هذا الحد

فاطرقت هند وقالت لا باس بي ولا انا احب احداً ولكنني احب التخلص من هذا العالم فاني تعبسة قد كتب علي العذاب من يوم ولدت · قالت ذلك وعادت الى البكاء

فانصدع قلب والدتها لذلك وجعلت تقبلها وتضمها الى صدرها وتقول ما هذا الكلام يا هند ألعلك يئسة ممن تحبين

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت نعم يا اماه اني يئسة فابكي على ابنتك فاندبيها لانها تعيسة شقية · فتحققت سعدى ظنها فارادت معرفة الباقي فقالت وما سبب تعاستك وانت فتاة غسان وزهرة هذه البلاد والناس يتحدثون بتعقلك ويحسدك اترابك على مقامك

فقالت على اي شيء يحسدونني وازدادت بكاء ولسان حالها يقول

هم يحسدوني على موتي فوا اسفي * حتى على الموت لا اخلو من الحسد

فازدادت سعدى تحرقاً وتساقط الدمع من عينيها وهي تحاول التجلد خوفاً على هند وقد ادركت انها عالقة بحب رجل لا سبيل لها اليه فقالت لها لا تذكري التمامة وانت الآمرة الناهية ولا تخشي بأساً وانا الآخذة بيدك العاملة على رضاك فافصحي عن ضميرك فقد كفانا بكاء واعلمي ان ثعلبة سيرتد خائباً ولو كان مستهلكاً في هواك

فحرقت هند اسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت ان الشر كله من هذا الخائن وهو وحده سبب الشقاء وهل تظنين رغب في خطبتي من عظم حبه لي

قالت وكيف اذن

قالت انه فعل ذلك انتقاماً من ذلك الشهم الذي ابقى على حياته كرماً وانفة

فتذكرت سعدى حكاية السبق وما كان من شهامة حماد واحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها فايقنت ان الفتاة مغرمة بحماد فبغتت ولم تبد جواباً لعلمها ان الرجل غريب من تلك الديار وكانت قد سمعت بفراره والقبض على والده بتهمة الجاسوسية فوقعت في حيرة على انها لم تنفر من ذكر هذا الشاب في عرض الحديث بل كانت ترتاح الى ذكره والتحدث عنه لما ظهر لها من شهامته وكرم اخلاقه ولكنها استغربت وقوع هند في هواه مع انفها وعلمها بغموض حسبه وعدم سنوح الفرصة لها للاجتماع به وحسبت وقوع ذلك من قبيل التقادير الالهية

فنظرت هند اليها لتستطلع ما يظهر منها بعد هذا التلميح فلما رأتها صامتة قالت ألم اقل لك اني تعيسة فما ان مجرد الاشارة الى سبب بلائي

اضاع حنوك والقاك في حيرة

فقالت كلاً يا مولاي فقد وعدتك بالانتصار لك ولا ازال على الوعد ولكن الخبر جاءني على حين غفلة فبغت له فهل انت تحبين ذلك الشاب انه بالحقيقة شهم كريم النفس وانت تعلمين منزلته عندي من يوم السباق

فسكتت هند وكان سكوتها جواباً صريحاً

فعادت سعدى الى استغرابها واستعظمت زفاف ابنتها الى رجل لا يعرف له حسب ولا نسب فضلاً عن اتهامه بالجاسوسية والقبض على والده وغضب الحارث وثعلبة عليه فلاح لها ان بقاء هند على عزمها سيكون سبباً لنفور بين زوجها وابن عمه ولكنها لم تستطع مكاشفة هند بذلك خوفاً عليها من سلطان الغرام بعد ما عاينت من شغفها وشدة تعلقها بحماد فعمدت الى الملاينة فسايرتها في مجرى عواطفها ريثما ترى ما يكون من أمر ثعلبة وقبضه على حماد فقالت لابنتها ان حماداً أهل لحبك ولكن كيف بلغت الى هذه الدرجة من الحب والرجل غريب عنا

فقطعت هند الكلام وقالت ألم اقل لك اني صائرة الى الهلاك لاني علمت بما يخامر ذهنك ولكن ما الفائدة من كل ذلك وحماد في مكان لا نعرفه ولعله ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقالت والدتها لا تجزعي يا هند ان الله على الباغي ولكنني استغرب تعمد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينهما علاقة

قالت هو الحسد والغيرة ولؤم الطبع فوالله ان هذا الخائن لا يساوي قدة من نعل حماد قالت ذلك وهي تشرق دموعها

فاخذت سعدى تخفف عنها وتطيب قلبها حتى سكن روعها فاحبت الاطلاع على تاريخ ذلك الحب وكيفية وقوعه فقالت لها كيف تسلمين قلبك الى رجل لا تعرفين حسبه ولا نسبه وانت في ما أعلمه من تعقلك ودقة نظرك وحسن رويتك

قالت انه حسيب نسيب وسيماه في وجهه

فقالت ان الوجوه لا تدل على الاحساب يا ولدي

فقالت قد علمت انه من امراء العراق وهذا يكفي وهبي انه اقل من ذلك فقد تسلط على عواطفي بقوة من الله تمجد اسمه فها قد اطلعتك على مكنونات قلبي · قالت ذلك واطرقت حياء وقلبها يرقص فرحاً لما آنسته من مجاراة والدتها ووعدها بالمساعدة

فقالت سعدى وكيف عرفت حسبه

فانتبهت هند لما ارتكبته من الكذب في ذهابها الى دير بحيراء فهمت بيدي والدتها وجعلت تقلبها وتقول اصفحي عن زلتي فقد ارتكبت ذنباً يوجب غضبك

فقالت وما ذا تعنين

فاحكت لها حكاية دير بحيراء واعترفت بكل ما دار بينها و بين حماد باختصار وحشمة وهي تطرق تارة وتبتسم اخرى ووالدتها مصغية تتطاول بعنقها حتى انت على آخر الحكاية فاحست كأنها افاقت من غفلة فسايرتها وطمأنت قلبها ولكنها صبرتها لتدبير وسيلة لا تشين شرفها او شرف عائلتها

فاطمأن بال هند من قبيل رضاء والدتها ولكنها ما زالت قلقة لفرار

حماد بل صارت بعد ما آنسته من تلك الملاطفة اكثر قلقاً عليه لأن خوفها من المعارضة كان شاغلاً لها عن التفكر بما وقع فيه حماد من الخطر فلما فرغت من ذلك الخوف تعاظم قلقها . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب وهما لا تعلمان لولم تريا الرعاة عائدين بالماشية من المراعي الى الزرائب بالقرب من الصرح فهمتا بالنهوض ومشتا الهوينا وكل منهما في شاغل فكانت هند في هاجس عظيم على حماد وما هو فيه وهمها كثيراً البحث عنه فرأت ان تغتنم تلك الفرصة للاستعانة بوالدتها على ذلك فدنت منها واسندت يدها على كتفها وهما ماشيتان وخاطبتها بدالة البنوّة قائلة ما الحيلة يا اماه لكف سعاية ثعلبة عن حماد أيحل في شرع الله ان يذهب هذا الشهم فريسة الحسد والغدر

قالت خففي عنك يا ولدي وكوني مطمئنة فاني كافلة نجاته باذن الله ولا بد من الصبر والتؤدة لنرى ما ذا تمَّ من امر حماد وفراره

قالت ذلك وهي ترتاب ببقائه حياً وكانت تحدثها نفسها باعظام عمل ابنتها وتنازلها الى حب رجل غريب وعدت نفسها مخطئة بمسايرتها في ذلك ولكن ضعف املها ببقاء حماد في قيد الحياة كان يهون عليها ذلك فبالغت في طمأنتها حتى وصلت الى صرح الغدير وقضتا بعض تلك الليلة في مثل هذه الاحاديث وفي الصباح التالي بدأت سعدى تشتغل باستطلاع خبر حماد فعلمت بعد ايام ان هرقل عفا عن عبدالله وامر له بكتاب الامان فاخبرت هنداً بذلك فاطمأن قلبها لعلمها انه انما فرَّ خوفاً من ثعلبة واتهامه بالجاسوسية فغدت تترقب من يعلمها بمقر حماد لتبلغه ذلك فلم تجد اليه سبيلاً

فلما طال غيابه زاد قلقها عليه فصبرت نفسها تنتظر ما يأتي به القدر وهي تنذر النذور سرًّا لدير بحيراء

الفصل الرابع والعشرون

﴿ منادي دير نجران ﴾

فبينما هي ذات يوم جالسة في غرفتها تفكر في امره سمعت مناديًا بجوار القصر يقول « من نذر نذرًا لنجران المبارك »[1] فاطلت من النافذة فرأت فارسًا متزملاً بعباءة وعلى رأسه قلنسوة الرهبان وفي يده صليب من الفضة فعلمت انه منادي دير بحيراء يطوف البلاد والقرى يجمع النذور على جاري عادته في كل عام

فلما سمعت اسم ذلك الدير هاجت عواطفها وتذكرت حبيبها وما دار بينها وبينه هناك فتوسمت في ذلك المنادي خيرًا لعلمها انه كثير التجوال فاحبت محادثته لعلها تستطلع منه خبرًا سمعه عن حماد اثناء تجواله فامرت بعض الخدم ان يستقدمه ففعل فتحوّل الرجل ودخل القصر حاملاً خرجًا فجاء به الى هند فحياها تحية الملوك وناولها الصليب فقبلته وقبلت يده وقدمت له وسادة جلس عليها ووضع الخرج الى جانبه

وكانت امها في شاغل ببعض مهام القصر وليس في الغرفة سوى هند فتأملت وجه الرجل فاذا هو غير الراهب الذي كان يمرّ بهم عادت فخافت ان

(١) معجم ياقوت (ونجران اسم من اسماء دير بحيراء)

يكون قد جاء بحيلة للسرقة او نحوها فسالته اذا كان يريد الذهاب الى قاعة الطعام فاثنى على كرم الغسانين واعتذر انه لا يحتاج الى الطعام

فقالت من اين اتيت يا حضرة الاب

قال اتيت من تجوالي في جهات البلقاء اجمع النذور

فقالت هل جمعت شيئاً كثيراً

قال نعم يا سيدتي ان المسيحيين في هذا العام اكثروا من النذور حتى ملأت خرجي هذا من خيراتهم وتناول الخرج بيده وهزه فسمعت له صوتاً يشبه صليل الحديد

فقالت ما هي انواع النذور التي جمعتها هذا العام اني اسمع لها صليلاً

قال ان في خرجي هذا نذوراً كثيرة لم يدخل دير بحيراء مثلها منذ عمر حتى العام · قال ذلك وتبسم فارتابت هند بقوله وادركت ان وراء تبسمه معنى خفياً

فقالت وكيف تأتى لك ذلك والنذور تحمل الى هذا الدير ذهباً وفضة وحجارة كريمة من اقاصي البلاد

قال لم اخرج لهذه المهمة الا في هذا العام فجئت بالعجائب والغرائب

فرأت في كلامه لهجة غريبة فلم تستغرب ذلك لعلمها ان الرهبان في دير بحيراء اخلاط من امم كثيرة ولغات شتى ولكنها ازدادت شبهة في مغزى كلامه

فقالت وما هي الغرائب التي اتفقت لك دون سواك

قال جئت الدير بنذر لم يسبق له مثيل لا لغلاء ثمنه بل لغرابته قال

ذلك وحل رباط الخرج ومد يده اليه وحاول اخراج ما فيه فسمعت صليلاً كصليل الدرع فتذكرت درع حماد فاختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار فقالت هات ما عندك فاستخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظرهند عليها حتى امتقع لونها وغلبت عليها البغتة لما آنست من المشابهة بينها وبين درع حماد فتناولتها وتأملتها فاذا هي هي بعينها فالتفتت الى الراهب فرأته يتغافل عنها ولكنها قرأت على وجهه سرًّا يحاول اخفاءه والابتسام يكاد يظهره فابتدرته قائلة من اين اتتك هذه الدرع ومن هو الذي اعطاكها

قال اعطانيها صاحبها

فقالت هل تعرف مكانه فانها مسروقة من عندنا

فالتفت اليها قائلا لا اظن صاحبها سارقاً بل هو رجل امين وقد ابتاعها بثمن غالٍ جدًّا

فقالت ربما كان ذلك كما تقول ولكنني اعلم ان هذه الدرع كانت عندنا فلا بدَّ لي من رؤية الذي اعطاكها فهل هو قريب من هذا المكان

قال هو قريب جدًّا واذا صدق ظني فهو في اقرب مكان منك وانت تعلمين انه ليس سارقاً

فادركت انه يلغز بحماد وانه عالم بشيء مما بينهما فتجاهلت ولكن الحياء والبغتة غلبا عليها فقالت ما تعني بهذا الكلام اراك تقول جزافاً

قال كلا يا سيدتي اني اتكلم عن ثقة ولكنك تتجاهلين والحقيقة ظاهرة على وجهك

فتحققت عند ذلك انه رسول من حماد ولكن سوء الظن سبق الى ذهنها

مخافة ان يكون قادماً بدسيسة من ثعلبة فتجاهلت ايضاً وقالت اراك تقول كلاماً لا افهمه او لعلك مخطىء في ظنك

قال لست مخطئاً لاني اتكلم عن ثقة وان شككت بمقالي سلي الاساور تصدقك الخبر

فقالت واي الاساور تعني

قال الاساور التي بيعت هذه الدرع بها واذا بالغت في التجاهل جئتك بتاجر الحلى عينه

فايقنت عند ذلك انه رسول حماد اليها وحدثتها نفسها ان تسأله عنه صريحاً ولكنها تجلدت ريثما تخبر والدتها بذلك فنهضت للحال ولم تفه بكلمة وسارت الى غرفت والدتها وخلت بها واخبرتها بما كان فقالت اخشى ان يكون الرجل جاسوساً من ثعلبة فلا تبوحي له بشيء قبل ان تتحقق رسالته

فجاءت سعدى وهند تتبعها فلما دنت من الراهب وقف لها وحياها فتظاهرت بالجفاء قائلة · العلك قادم من دير بحيراء الآن

قال كلاً يا سيدتي بل انا آت من البلقاء

قالت اريني الدرع فاراها اياها فتحققت انها الدرع التي نالها حماد جائزة سبقه يوم السباق فتناولتها من يده وقالت له ان هذه الدرع ماخوذة من عندنا ولعلها مسروقة فهل تعرف الذي اعطاك اياها

فتبسم الراهب تبسماً يمازجه ريب وقال اظنني اعرفه

فقالت واين تركته

قال تركته في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر

قالت هل هو مقيم هناك ام راحل

قال هو مقيم ينتظر عودتي

قالت (وقد استغربت ذلك) وماذا يتوقع من رجوعك وانت تقول انه دفع اليك هذه الدرع نذرًا نذره الى الدير فما معنى رجوعك اليه اني ارى في كلامك تناقضاً

قال لا مناقضة في ما اقول لان صاحب هذه الدرع شرط في نذره انها لايكون نذرًا الاَّ بعد ان اعود اليه بخبر عن امريهمه قال ذلك وهو ينظر الى هند بطرف عينه كانه ينتظر اشارة منها فآنس في وجهها اشراقاً فتبسم واومأ بجفنه نحو والدتها كانه يقول هل ابوح بالسر امامها

فتحققت هند ان الرجل مرسل من حماد اليها ولكنها تجلدت ولم تجبه

فجلس والدرع في يده ينتظر ما تأمر به هند

اما هي فاومأت الى والدتها وخرجتا معاً وتركتا الراهب في الغرفة فلما خلتا قالت هند وقلبها يرقص فرحاً لا ريب عندي يا اماه ان الرجل رسول من حماد ويظهر من اساليب كلامه انه آت ببشرى خير ولكنه لم يتجرأ على التصريح بذلك امامك لظنه انك لا تعلمين بما بيني وبين حماد ولا ريب عندي باخلاصه فاسمحي لي بمخاطبته صريحاً فنسمع منه الخبر الصحيح فاجابتها والدتها الى ما ارادت فجلستا في غرفة منفردة وارسلتا الى الراهب فجاءهما والخرج على ذراعه فلما جلس قالت له سعدى عزمت عليك ان تخبرنا بحقيقة حالك ومن هو صاحب هذه الدرع — وكان لعزمة الامراء عند العرب حق ان تطاع فنظر الراهب الى هند كأنه يستشيرها في الجواب . فقالت له قل ولا تخف

فمد يده الى الخرج واستخرج الخوذة وقال اذا كنت لا تعرفين الذي البسته هذه الخوذة بيدك فمن العبث ان اخبرك عنه

فخفق قلب هند وعلا وجهها الاحمرار وقالت نعم نعرفه فقل انت ما ما اسمه قال اسمهُ حماد يا سيدتي فابرقت اسرة الفتاة اي ابراق ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طرباً لذكره ولكنها امسكت نفسها فاكتفى الرجل بما قرأه في عينيها من آيات البشر فشاركها في ذلك وانتظر جوابها فقالت له صدقت هو حماد فاين هو الآن

قال هو في خلوة لا يجسر على القدوم الى هذه لديار لاسباب لا يجهلها عامة غسان فضلاً عن خاصتهم

فقالت سعدى قل لنا اذن من انت فاني لا اظنك راهباً فرفع القلنسوة من رأسه وقال لا اظنكما تعرفاني ولكنني اعرفكما بنفسي فاني عبدكما سلمان خادم سيدي الامير حماد

فاستأنستا به كثيرًا واخذت هند تسأله عن حال حماد وما مرَّ به فقص عليها الخبر منذ خروجها فرارًا من غسان الى ان نجوَا من الاسد وسارا الى عمان وعادا منها الى ان قال وقد جئت متنكرًا بهذا اللباس وتركت سيدي حمادًا في بعض القرى في قلق شديد على والده وفي شوق ولهفة لمولاتي (واشار الى هند)

فقالت سعدى ألم يبلغكما خبر سيدك الامير عبد الله بعد

قال (وقد حملق عينيه ومال بكليته لاستماع خبره) كلاَّ يا سدتي فما هو خبره

قالت قد علمنا ان الامبراطور هرقل عفا عنه وامر بصرفه مصحوباً بكتاب الامان

فانبسط وجه سلمان عند سماعه الخبر وود لو يكون طيراً فيسرع الى حماد يبشره بذلك ولكنه استشار سعدى في الامر فقالت ارى ان تسرع الى مولاك بالخبر وتطمئنه عن هند وقل له ان والدتها تهديك السلام ولكن احذر ان يعلم احد في الارض انك جئت هذا المكان او نطقت بهذا الكلام فليبحث هو عن والده وستتصل الاخبار بيننا عند الحاجة على مقتضى الاحوال وليكن هو مطمئن البال والايام بيننا · وكانت هند تسمع كلام والدتها فلا تبدي ملاحظة ولم تكتف بهذه المواعيد البعيدة بل كانت تود ان تضرب اجلاً للقاء ولكن الحشمة امسكتها عن الكلام · اما سلمان فسرَّ كثيراً لما آنسه في سعدى من الرضاء عن حماد ولكنه رأى قولها مختصراً مقتضباً لا يشفي غليلاً على انه اقتنع بما لقيه وما سمعه فلبس قلنسوته وودعها وخرج الى فرسه وسار قاصداً حماداً · اما سعدى فلما تحققت بقاء حماد حياً ورأت هنداً قد انتشعت قواها وزال امتقاع لونها الذي كان السبب الاول في تحريك حنوها حتى سايرتها في ما دار بينهما بشأن حماد مع ما كانت تظنه من موته وانقطاع خبره — فلما تحققت بقاؤه تمثل لها الامر مجسماً وندمت على ما فرط منها من مجارات هند بشأن حبها حماد على غموض حسبه مع ما تخشاه من ايقاظ الفتنة بين زوجها والحارث اذا منعت ثعلبة من ابنتها· ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت ردها طلبه ولكنها احست بصعوبة ذلك فلبثت برهة صامتة تفكر في الامر وهند تتأمل في ملامح وجهها وتنتظر ما يبدو منها · فلما طال

سكوتها توسمت فيها التردد فانقبضت نفسها وعادت هواجسها اليها فتركت والدتها وسارت الى غرفتها والقت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما قالت والدتها له فلم ترفي قولها ما يشفي غليلاً فاحست ان والدتها انما كانت تسايرها ظاهراً فعظم عليها الامر

وفيما هند في ذلك جاءت والدتها وكانت منقبضة النفس فرأت الدموع تتلألأ في عيني ابنتها فهاج حنوها ونسيت هواجسها ودنت منها وهي تبتسم واخفت ما في نفسها وهند تنظر الى وجهها لعلها تستطلع شيئاً جديداً فلما رأتها تبتسم اطمأن خاطرها ولكنها ادركت انها انما فعلت ذلك حنواً فعمدت الى اثار شفقتها التماساً لمساعدتها فتظاهرت بالغضب دلالاً وتيهاً واطرقت هنية لا تتكلم

فقالت سعدى مالي ارى الهواجس قد عادت اليك ألم يكفك ما سمعته عن حماد

فلم تجب

فازدادت سعدى حنواً والقت يدها على كتف ابنتها وقالت لها ما بالك ساكتة يا هند الم تشكري الله على انعامه

قالت شكرته كثيراً ولكنني اراه لم يأذن بانقضاء زمن تعاستي لانني لم اكد اسمع ما سرّني حتى رأيت ما كدرني

قالت وما الذي يكدرك بعد ذلك

قالت يكدرني ان ارى حبل المساعدة كاد ينقطع

قالت وماذا تعنين بذلك

قالت اعني ما أقرأه على وجهك من آيات التردد ولا لوم عليك فقد عاملتني بما استحقه · قالت ذلك وقد وقفت تتشاغل بحل ضفيرتها وعقصها امام المرآة فرافقتها سعدى وهي تنظر اليها وتتوقع منها ابتساماً فرأتها لا تزال منقبضة تخافت ان تعود الى حالها من الضعف فهان عليها كل ما تريده وصممت على مساعدتها فعلاً فتظاهرت بالاستغراب وهمت بها فقبلتها وضمتها الى صدرها قائلة انزعي عنك الظنون يا هند فاني على ما تريدين ولسوف ترين مني ما يسرك

فانتعشت هند لما سمعته ولكنها تظاهرت بانكار ذلك وقالت يكفيني املاً بلا عمل فاني اراك تسخرين بي

فضحكت سعدى حتى قهقهت واظهرت المزاح وهي تقول ذلك خلق المحبين فانهم لا يستقرون على حال

فنظرت هند اليها شذراً وشعرها لا يزال محلولاً واصابعها تتخلله · فلما رأت والدتها تضحك انبسط وجهها وعادت اليها الآمال فتبسمت ولكنها حولت وجهها نحو المرآة وتشاغلت بضفر شعرها

فمدت سعدى يدها الى الضفيرة وتناولتها وقالت وهي تتم ضفرها دعينا من ضفر الشعور فانا في ماهو ادعى الى الاهتمام

فقالت هند لا ارى الاهتمام بشيء آخر الاَّ عبثاً

قالت أمن العبث ان تتخلص من مطالب ثعلبة

فلما سمعت اسمه نفرت وانقبض قلبها ولكنها توسمت باباً للفرج فقالت يا حبذا ذلك لو صح

وكانت سعدى قد فرغت من ضفر الشعر فامسكتها بيدها واجلستها الى السرير ونظرت اليها نظرة فهمت هند منها انها تريد الجد فاصغت اليها فقالت دعينا من الهواجس يا هند ولنبحث في الامر بالتروي

فقالت قولي ما تريدين واذكري وعدك

قالت ما اقول الاَّ ما يرضيك ولكنني اعلم انك عاقلة رزينة ولا اظنك ترتابين من حبي لك وانعطاف والدك نحوك واذا اتينا امرًا ساءك او سرك انما نأتيه التماسًا لراحتك

فخافت هند ان يكون وراء هذه المقدمات نصيحة تمنعها من حماد فلبثت صامتة وقلبها يخفق في انتظار اتمام الحديث

فقالت سعدى لا يسعني الاغضاء عن اهمالك البحث عن اصل حماد وفضله فان الحب يعمي ويصم فانقدم اليك ان تستجمعي رشدك وتسألي عقلك هل هو مساعد لك على ما رضيه قلبك

قالت نعم يا اماه اني في كمال عقلي ولا ارى في عملي هذا خطأ · ولا ريب عندي اذا خاطبتِ حمادًا واستطلعت اخلاقه واطواره انك ترين فيه مثل ما رأيته انا فهو شاب كامل الصفات كريم الاخلاق ولا بد من ان يكون ذا حسب ونسب فاذا لم يكن ملكًا ارضيًا فهو ملاك سماوي ولا اقل من ان يكون اميرًا · وزد على ذلك ان ما شهدناه من شهامته وكرم اخلاقه يؤهله لمصاهرة والدي وقد قيل المرء باصغريه لا ببرديهِ فهبي انه غير حسيب فهو لا ريب شهم كريم · قالت ذلك وعلامات الهيام ظاهرة على وجهها تخالطها ملامح الخجل

فقالت سعدى اذا كان الامر على ما تقولين فاني اهنئك بهذا النصيب ولكننا يجب ان نتدبر الامر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يضر بمصلحة والدك او يأول الى حرب وانت تعلمين علاقته بابن عمه الحارث وما بينهما من المنافسة المموهة بالمجاملة فنخشى ان يأول عملنا هذا الى حرب تتقد نارها وتسفك الدماء من اجلها

فقالت اتريدين اذن ان ارضى بثعلبة و....

فقطعت سعدى كلامها قائلة كلاً لا اريد ذلك ولا ارضاه ولكنني اريد ان لا تستعجلي في الامر فان في العجلة ندامة

قالت وماذا افعل اذن

قالت اتركي تدبير ذلك الي على ما تقتضيه الاحوال ولا ريب عندي انك ستنالين مناك على اهون سبيل

قالت ها اني قد القيت حملي عليك وجعلت قيادي في يديك فافعلي ما تريدين . فقبلتها سعدى وطمأنتها وسارت الى غرفتها

الفصل الخامس والعشرون

التفتيش عن عبد الله

اما سلمان فعاد الى حماد وكان في مأمن خفي ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما لقيه استطلعه الخبر فاجابه وامارات الانبساط ظاهرة على وجهه وبشره بالعفو عن والده و بقاء هند على حبها ورضاء والدتها بذلك فلم يكن يوم اسعد

على حماد من ذلك اليوم فابرقت اسرته وتمثلت له السعادة خادماً مطيعاً وقضى بقية يومه يردد حديث سلمان عن هند وما ينطوي تحت كلام والدتها لكنه ما لبث ان عاد الى ذكرى والده وقد خاف عليه طول الغياب فاستشار حماداً في امره فقال ارى ان نبحث اولاً عنه فاذا التقينا به تركنا تدبير ذلك اليه

فقال حماد انسير الى بصرى متنكرين

قال لا خوف علينا بعد ما صدر من العفو ولكن أثعلبة ثعلب لا يركن اليه فامكث انت هنا ودعني اسير وحدي الى منزلنا في غسام ومتى وصلت المكان علمت حقيقة الخبر

فقال وكيف تعلمه

قال اني ذاهب للبحث عن المخبأة التي تركناها بجوار منزلنا لا يعلم بها احد سوانا فاذا لم اجدها علمت ان سيدي اخذها فنعلم انه عاد من سفرته فنبحث عنه في بصرى وجوارها والا فنعلم انه لم يعد بعد فأسير الى بيت المقدس للتفتيش عنه

فاستحسن حماد الرأي فباتوا ليلتهم ولما اصبحوا ركب سلمان بلباس الرهبان وترك حماداً في منزل رجل من بقايا الانباط الذين كانوا يقيمون في جنوبي البلقاء — وكان الانباط في الزمن القديم امة عظيمة ذات عز ومجد وكانوا واسطة عقد التجارة بين مصر والشام والعراق وبلاد العرب يقيمون شرقي العقبة بين مصر والشام وبلاد العرب ولا تزال بعض آثارهم باقية حتى الآن في ما يسمى باترا او بطرة ويغلب على الظن ان اصلهم من انباط ما

بين النهرين . وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرومانيون في اوائل القرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وتفرقوا في البلاد واختلطوا بقبائل العرب الاخرى . ومن طرق معائشهم التنجيم وقد حملوه معهم من بين النهرين (١)

وكان صاحب المنزل المشار اليه طاعناً في السن لم يرزق اولاداً يعيش من زراعة بقعة من الارض صغيرة ولم يكن يحب الغسانيين لانهم على زعمه احدث نعمة من الانباط وان الانباط اولى منهم بالسيادة . وسبب بغضه لهم الحسد وذلك طبيعي في من كان من سلالة الحكام ثم رأى السيادة في غير اهله فانه لا يستطيع حبهم او الاذعان لهم الاَّ قهراً فاذا خلا بنفسه ندد في حكومتهم وعدد معائبهم — وذلك من ادلة الضعف في بني الانسان

وكان سلمان لما عاد بحماد من عمان قد عثر على الرجل واستطلع حاله فعلم انه احسن ملجاء يلجأ سيده اليه ريثما يعود اليه بخبر هند فلما عاد يخبرها كما تقدم واتفقا على ذهابه الى غسام سار اليها وهو مطمئن البال ولكنه غادر حماداً على مثل الجمر في انتظار رجوعه

فلم يمض يومان حتى عاد سلمان ومعه التحف والنقود التي كانوا قد خبأوها بجوار منزلهم فدفعها الى حماد وهو منقبض النفس كاسف البال فسأله عن أمره

قال اني خائف على سيدي من دسيسة ابن الحارث واخاف ان يكون قد غضب لما ناله من العفو فانفذ اليه رجالاً اغتالوه

قال وما الذي حملك على هذا الظن

(١) الانسكلوبيذيا وغيرها

قال اني تدبرت الامر واستطلعت الخبر من اهل بصرى سرًّا فعلمت ان الخبر بالعفو وصلهم من عشرة ايام وان سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت الى الحجاز رأساً فهل تظنه سار معها

فقال حماد وكيف يعقل ان يسير الى الحجاز ونحن على موعد من لقائه في عمان فلا يبعد ان يكون قد رافق القافلة الى جوار عمان ثم عرج اليها

قال سلمان ولكنه يعلم ان موعدنا فرغ اذ قد مضى الشهران او اكثر منذ افترقنا

فقال حماد لعله اراد المرور بعمان ليتحقق عودتنا منها فلا يلبث ان يعلم بذلك حتى يعود فلنصبر قليلاً نتنسم اخباره

فصمت سلمان وهو لا يزال خائفاً على سيده ولكنه تظاهر بالاقتناع تخفيفاً عن حماد وكان لا يزال بزي الرهبان وقد غشيه الغبار فنزع ثيابه وغسل وجهه وكان صاحب المنزل قد خرج في بعض المهام وترك كلبه يحرس المضارب ريثما يعود

فاغتنما تلك الفرصة واخفيا ماجاء به سلمان من الاموال فجعلا بعضه في جيوبهما وبعضه بين الثياب

الفصل السادس والعشرون

﴿ الخطبة ﴾

تركنا هنداً في صرح الغدير وقد املت الحصول على حماد ولكنها

كانت ترى اظلالاً من الريب تعترض آمالها لان ذكاءها ودقة نظرها اوحيا اليها شكاً في رضاء والدتها عن حماد . اما هذه فكانت تحاول اقناع نفسها في صلاح ما وعدت هنداً به ولكنها ما زالت ترى في ضميرها ما يعترض مقاصدها على انها كانت تتغلب على ذلك الضمير ارضاء لابنتها وتنتظر ما يأتي به القدر

وفيما هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءها بعض الخدم ينبئها بقادم من البلقاء فهرولت اليه لعله جاء بخبر من جبلة وقد طال أمد غيابه فرأت فارساً ترجل وقبل يدها فعرفت انه من رجال زوجها فاستطلعته الخبر فقال ان الامير جبلة قادم اليكم في صباح الغد وهو يقرئك السلام

فقالت اهلاً ومرحباً فاننا نستعد لاستقباله ثم دخلت وقد علمت انه آت ليسألها بشأن هند وثعلبة . فانقبضت نفسها وشعرت بحرج المقام وجعلت تفكر في حل ذلك المشكل

وفيما هي غارقة في بحار الهواجس جاءت هند وكانت قد رأت الفارس وعلمت سبب مجيئه فخفق قلبها لما يعترض آمالها من الشكوك وتوقعت ان ترى والدتها في ارتباك فلما علمت بخلوتها دخلت بغتة فرأتها في ما تقدم من الانقباض فحيتها فانتبهت سعدى لحالها فحاولت الابتسام لتخفي ما يخامر قلبها فابتدرتها هند بصوت مختنق قائلة لا يشغلك شاغل يا أماه فما في الامر ما يدعو الى هذا الاهتمام

فقالت سعدى لست في اهتمام يا ولدي ولكنني اشعر بانحراف في صحتي

فقالت صدقت ولكن سببه هند هذه

قالت حاشا وكلاَّ فانك تسليتي ومنشأُ سعادتي الا تريني حالما وقع نظري عليك انشرح صدري وانبسط وجهي

قالت ارى ذلك ولكنني أرى عليه صبغة التكلف فلا ترتبكي ولا تقهري نفسك فان كل حال تزول · وارادت هند ان تخبر والدتها وتستعيد وعدها لما قبل قدوم والدها لان على اجتماعها هذا يتوقف مستقبلها

فقالت سعدى ما بالك تكلمينني بالرموز أَلم تتحققي حتى الآن اني على ما وعدت ؟

قالت قد تحققت ذلك ولكنني اراني سببت لك تعباً وارتباكاً

قالت ان تعبك راحة فاقلعي عن هذه الظنون وهلم بنا تدبر الامر فنتفق على خطة نسير عليها · لان والدك قادم غداً ولا اظنه الاَّ فاتحاً حديث ثعلبة فما ظنك فيما نجيبه به

قالت انت تعلمين ما في قلبي فاجيبيه بمقتضى حكمتك · اما انا اذا سئلت فلا جواب عندي غير السلب ولو مهما كلفني ذلك

فقالت هبي انه سألنا عن سبب هذا الرفض فهل اذكر له حكاية حماد

قالت لا ادري ما تقولين ولكنني اخبرتك بمكنونات قلبي وقد وعدتني بتدبير الامر فافعلي ما تشائين

فسكتت سعدى وقد وطنت نفسها على مجاراة ابنتها وخرجت من الغرفة وامرت اهل القصر بضرب المضارب واعداد الذبائح لاستقبال جبلة وحاشيته في صباح الغد

فاصبح الصباح وقام الخدم لاعداد ما يلزم ففرشوا البسط ونصبوا

الخيام وذبحوا الذبائح واوقدوا النيران ولبست سعدى وهند احسن ما لديهما وتهيأتا للاستقبال . فلما كان الضحى ظهر الغبار من جهة البلقاء فعلم اهل القصر بمجيء جبلة ورجاله فخرجوا لملاقاتهم واطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على ذلك السهل . اما هند فاستلقت على سريرها وفرائصها ترتعد لهول ما تصورته من غضب والدها اذا علم بما في نفسها ثم ما لبثت ان سمعت قرقعة اللجم وصهيل الخيل بجوار القصر فعلمت بوصول والدها وفرسانه فخفق قلبها ولكنها تجلدت واطلت من الشرفة فرأت الفرسان قد تحولوا الى الخيام المضروبة لهم هناك وترجل والدها امام الحديقة ودخل بلباسه الفاخر وقد لفّ رأسه بكوفية والعقال حولها والتف بالعباءة فوق القباء فاستقبلته سعدى بوجه باش يخامره بعض الانقباض . ثم جاءت هند فقبلت يده فضمها وقبلها واستغرب ما في وجهها من النحول فسألها عن سبب ذلك فاجابته والدتها بانها تشكو من الم عارض فساروا جميعاً الى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد فدخل جبلة ممسكاً هنداً بيدها حتى جلس في صدر القاعة واجلسها الى جانبه وقد تنبهت فيه عواطف الشفقة والحنو لما آنسه فيها من الضعف فما صدق انه خلا بها وبوالدتها حتى سألها عن شكوى هند منه فطمأنتاه والحتا عليه ان يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل وقد اوصى الخدم باصلاح ما يحتاج اليه رجاله من الزاد

اما سعدى فآنست في وجه زوجها انقباضاً لما تعهده فيه وخصوصاً عند مقابلته هنداً بعد غياب طويل فعولت على استطلاع السبب بعد الغداء والاستراحة ولكنها لم تستطع ذلك لانشغاله بمشاهدة غرف القصر ونزوله

الى الاسطبل يتفقد افراساً له كان قد تركها هناك ولكنها لاحظت انه انما كان يتلاهى بذلك تخلصاً من سؤالها واستفهامها

فلما كان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في هواجس فلم يدر بينهم حديث غير ما لا بد منه على المائدة كالتماس الآنية او استبدال بعض انواع الطعام او الشراب او نحو ذلك

فلما فرغوا من العشاء تفرق الخدم يهتمون بشؤونهم وبقي جبلة وزوجته وابنته في القاعة على حدة وكان جبلة متكئاً على وسادة وهند الى جانبه ووالدتها بين يديه

فنظر الى هند وتأمل وجهها ثم التفت الى سعدى وقال لها لقد اطلنا الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتني وكنت أعد النفس بالقدوم اليكم منذ ايام فلم استطعه الاّ اليوم وكنت احسب مجيئي هذا يفرج كربتي فلم ارَ الاّ ما يزيدني انقباضاً

فتطاولت سعدى بعنقها قائلة

ليس في هند ما يدعو الى الانقباض فقد يمرُّ على الانسان ايام يتوعك بها مزاجه لغير سبب يعرفه ولكنني توسمت في وجهك انقباضاً منذ قدومك هذا الصباح وكنت اغالط نفسي واحسبني مخطئة أما وقد اقررت به من فيك فارجو ان تفصح عن السبب

قال ليس في ما تشاهدينه من الانقباض ما يهمك الاطلاع على اسبابه فهو امر عارض لا يدعو الى بحث

فقالت لا اظن امراً يهمك لا يهمنا ومهما يكن من شأنه فان بالنا

لا يهدأ الاَّ بمعرفته

فقال دعينا من الخوض فيه وقد يكون سحابة صيف تنقشع ولا تمطر

فاشتاقت سعدى الى استطلاع الخبر وعلمت انه منقبض من خبر سمعه ولم يتحقق صدقه · فقالت هب انك لم تتحقق ما سمعته فاطلعنا عليه

قال جاءَنا قادم من الحجاز يخبرنا بقدوم جند من العرب لمحاربتنا

فبغتت سعدى وقالت وما سبب قدومهم ولا نعرف بيننا و بينهم ما يوجب حرباً

فهزَّ رأسه واعتدل في مجلسه وجعل يمشط لحيته باصابعه وقال ان هؤُلاء العرب عصابة قوية برئاسة نبي ظهر بينهم يدعو الناس الى دين جديد وقد بعث كتاباً يدعونا فيه الى دينه فوصل كتابه الى الحارث فمزقه وامتهن حامله فشق ذلك على صاحب الدعوة فانفذ جنداً من رجاله لمحاربتنا فبثثنا العيون والارصاد لمراقبة مسيرهم ولا نعلم متى يصلون

فبغتت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسها « قد كتب علينا الشقاء على يد الحارث وابنه فلا حول ولا » ولكنها نظرت الى والدها وقد ثارت فيها الحمية وقالت وما يخفينا من قدوم هؤُلاء العدنانيين ونحن بني غسان رجال اشداء لا نرهب القتال

فانشرح صدر جبلة لما اظهرته هند من الشهامة وقال نعم اننا لا نخاف حربهم ولكننا كنا في غنى عن حشد الرجال واعداد معدات الدفاع وحصوننا لا تزال متهدمة على اثر حروبنا مع الفرس سامح الله الحارث لما جرَّه علينا من البلاء

فقالت سعدى يظهر ان هؤلاء العدنانيين انما يريدون قتال الحارث لا قتالنا

قال نعم ولكننا جميعاً تحت سيطرة الروم فاذا احتاجوا الى دفاع استنجدونا جميعاً ولا يسعنا الاَّ الاذعان . فقالت هند أيخطئ الحارث ونحن نحارب عنه

قال ذلك ما لابد منه اذا دعت الحالة اليه وسنرى ما يكون من امر هذا الجند ولكن الحارث جاءني بالامس وتداولنا في الامر ملياً واخذنا في حشد الرجال واعداد معدات القتال وعلى الله الاتكال

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزوجها ايقنت انهما تداولا في شأن هند وتوقعت ان تسمع حديثه من جبلة ولكنها علمت انه لا يذكر ذلك وهند حاضرة فتظاهرت بالملل وقالت اظنك تعباً من جراء السفر في هذا الصباح فهل تريد الذهاب الى الفراش فادرك مرادها فاجاب دعوتها ونهض ونهضت هند ولم يفتها المراد من ذلك فانصرفت الى غرفتها بدعوى الرقاد وقد نظرت الى والدتها بطرف خفي كأنها تذكرها بوعدها . فافترقوا وخلت سعدى بزوجها في غرفة الرقاد وقد اعد له الخدم ثياب النوم فبدَّل ثيابه و بدلت هي ثيابها وكلاهما صامت يفكر في جهة والموضوع واحد

الفصل السابع والعشرون

﴿ كشف السر ﴾

فاتكأ كل منهما على سريره والسريران متقابلان وفي الغرفة شمعات

مضيئة على مائدة وقد هدأ الليل واستولى السكوت على صرح الغدير لذهاب الناس الى مَنامهم الاَّ ما كانوا يسمعونه من صهيل خيول في معسكر حاشية جبلة عن بعد

فبدأ جبلة بالكلام قائلاً عهدت اليك مهمة منذ ايام وكنت اتوقع قدومك الينا بخبر اتمامها فابطأْت حتى استبطأَ الحارث جوابي فجاء يستعجلني فيه وقد آنست منه تغيراً لما كان يتوقعه من سرعة الاجابة وخصوصاً بعد ما سمعه من قدوم هؤلاء العدنانيين فانه يرى التعجيل في الاقتران قبل وصولهم

فاحست سعدى بما جرَّته على نفسها من المشاق بما اكدت لهند من الوعود فترددت برهة في الجواب

فابتدرها جبلة قائلاً ما بالك لا تجيبينني ألعل في الامر مندوحة للتردد

قالت لا أعلم ذلك ولكنني اعلم ان هنداً لم ترصحةً منذ ذكرت لها هذا الامر

فقال وماذا كان جوابها

قالت لا سلباً ولا ايجاباً

قال اذن هي راضية

قالت لا يدل السكوت على الرضاء في كل حال

قال وقد بغت وماذا اذن العلك فهمت مايدل على الرفض

قالت لا ادري . . . . ولعلي مخطئة في ظني

فقال وقد استغرب جوابها قولي افصحي فاني ارى وراء توقفك ما ياول

الى خطر جسيم

فقالت واي خطر تخافه

قال ألا تعلمين ان رفض هذا الامر ياول الى نفور بيننا و بين الحارث

فقالت وهي تتجاهل مراده واي علاقة بين الأمرين أيكون الزواج قسراً

فهبَّ من مجلسه وقد زاد استغراباً وقال ابلغ من هند ان ترفض ما اختاره لها والداها

قالت لا تقل (والداها) بل قل (والدها) فقط

فحملق وقال وقد علا صوته · العلك مجارية لها على قحتها يا سعدى

فاجابته بصوت منخفض قائلة لالم اجارها في شيء ولكني خفت عليها الموت فاذا كنت ترى ان تجود بهند فريسة لذلك الرجل زوجها به · قالت ذلك واطرقت وقد شرقت بدموعها

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة ولبث برهة يحسب نفسه في منام ثم قال وماذا تعنين يا سعدى أَلعلك تتكلمين عن ثقة

قالت لم اذكر لك الاّ ما تحققته بعد جدال طويل واذا كنت لاتصدق مقالي فهذه هند ادعها اليك وخاطبها وجهاً لوجهه فقد نفدت حيلتي فيها

فرجع جبلة الى صوابه وتذكر حبه هنداً وما يعجب به من شهامتها وتعقلها ولكنه ما زال على ما يخافه من عواقب ذلك الرفض فقال لها ادعيها اليَّ لاخاطبها واسمع اعتراضها

فوقفت سعدى وهمت بالخروج الى غرفة هند ولكنها علمت ان مجيئها وجبلة في حال غضبه قد ينتهي الى عاقبة وخيمة فرأت من الحكمة ان تخفف

من غضبه وتهدىء روعه قبل مجيئها فتقدمت منه والدموع ملء عينيها وقالت ها اني ذاهبة لاستقدامها ولكنني انبهك الى أمر ارجو ان لا يبرح من بالك

قال وماذلك

قالت انت تعلم شهامة هند ورقة احساسها وخصوصاً بعد ما عانته من الضعف على أثر حديثي معها بشأن ثعلبة وتعلم ايضاً ان ثعلبة كما نعرفه نحن ليس كفوءًا لها مع ما خبرناه من خساسته وغدره ولا تظنه يحبها بل هو يريد قتلها فاذا علمت ذلك تدبر الامر بالحكمة وخاطبها بالحسنى ولا تطمع في اكراهها لئلاً تسوقها الى حتفها فنندم حين لا ينفعنا الندم . فمن الحكمة ان نأخذها باللين والمطل ريثما تتغلب على عواطفها

فقال جبلة لقد نطقت بالصواب ولكنني لا أراني قادرًا على التخلص من شرّ أتوقعه بسبب ذلك على اني لم افهم سبب رفضها اياه وهو ابن عمها ولا اعرف في غسان من هو اقرب نسباً منه ولا أليق بمقامها فما سبب هذا البغض

قالت اما كرهها له فسببه دناءته وخساسته فقد عاشرته اعواماً طوالاً فلم تجد فيه شيئاً من انفة الرجال وكرم اخلاق بني غسان وطالما حدثتني بذلك عنه منذ اعوام وكثيرًا ما كنا نذكر سيئاته بحضورها فلا يسعنا بعد ذلك اقناعها بنزاهته وكرم اخلاقه

فقال جبلة لا انكر عليك ذلك يا سعدى ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا الحارث من المنافسة المستتره برداء القرابة تحت ظل المجاملة ولا

ريب عندي ان رفض طلبه يجرنا الى حرب ونحن في حال تدعو الى اجتماع الكلمة لما سمعناه من اخبار الحجاز

فقالت اني موافقة لك على ما تقول ولكنني على ثقة مما قلته لك واقوله ايضاً وهو ان اصرارنا على اقترانها بثعلبة يقودنا الى ما نندم عليه ساعة لا ينفعنا الندم — فهي لا تحبه ولا ترضاه ولا يمكن ان ترضاه فهل يهون علينا ان نخسر هنداً وهي ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا أنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها — قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها

قال اراك واثقة بعدم حبه لها ولو كان كذلك لم يطلبها

قالت انا متحققة ذلك مما سأقصه عليك في فرصة اخرى اما الآن فاني داعية هنداً اليك لتسمع كلامها شفة لشفة والتمس منك ان ترفق بعواطفها ما استطعت لان العنف لا يجدينا نفعاً

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت غرفة هند فرأت الباب موصداً وآنست في الغرفة صوتاً فاصاخت بسمعها فسمعت بكاء يتخلله شهيق فعلمت ان هنداً تبكي فطرقت الباب ونادتها باسمها فأبطأت قليلاً ثم فتحته فأدنت سعدى المصباح من وجه هند ونظرت اليها فاذا هي ذابلة الاجفان محمرة العينين كاسفة البال فانفطر قلبها لذلك المنظر المريع فوضعت المصباح على الارض وهمت بها وجعلت تقبلها ودموعها تتساقط حنوّاً وشفقة وهي تقول لا تبكي يا ابنتي لا تبكي ولا تحزني فلا يكون الاّ ما يسرك

فقالت كفاني يا اماه تعزية ومسايرة فقد سمعت غضب والدي باذني

قالت وما الذي اسمعك كلامه وانت ها

قالت مررت بالباب فسمعته يتهرك وهو مصرٌّ على قوله وما ذلك الاّ لتعاستي . فاذا كان لا يزال على عزمه فاستودعك الله . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقبلتها سعدى وقالت لقد أخطأ ظنك يا هند فان والدك يكاد يسلم معي برفض ثعلبة وهو انما ينتظر مخاطبتك في شأنه ليسمع الجواب من فيك فهيا بنا اليه فانه ينتظرنا في الغرفة . وارادت سعدى ان تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعله يرقّ لها فيجاريها على مرامها

الفصل الثامن والعشرون

موقف هائل

فاجبت هند الانتظار برهة ريثما تجف دموعها فلم تمهلها فسارتا حتى وصلتا الغرفة وجبلة متكئ على فراشه وقد استبطأ امرأته واحب البقاء متكئاً اظهاراً لما في نفسه من العتب على هند اما هي فدخلت مطرقة وقد تكسرت اهدابها وذبلت اجفانها واحمرت عيناها وتوردت وجناتها واسترسل شعرها على ظهرها . ومشت حتى اقتربت من سرير والدتها فوقفت واسندت كتفها الى الحائط ذليلة كئيبة ولبثت مطرقة

فلما رآها جبلة على تلك الحال حنّ لها ونسي غضبه ولكنه ما زال مكبراً عملها فخاطبها قائلاً ما رأيك يا هند

فظلت صامتة تتشاغل باهداب ضفيرتها بين اناملها

فقال ما رأيك بابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمه ارتعدت فرائصها وعاد البكاء اليها فامسكت نفسها عن الشهيق ولكنها لم تستطع امساك دمعها عن الانحدار · فلما شاهد جبلة تلك الدموع تتقطر عن خديها شعر كأن قلبه يقطر دماً عليها

فقال ما بالك لا تجيبيني ونحن انما بعثنا اليك لنسمع الجواب من فيك قولي ما جوابك على طلب ثعلبة

فلم تعد تتمالك عن الشهيق فتحولت من الغرفة وارادت الخروج فامسكت سعدى يدها وهمت بارجاعها فألقت بنفسها الى الارض واخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليها

فجعلت سعدى تخفف عنها واومأت الى زوجها ان يكف عن السؤال وجاءتها بماء رشتها به وسقتها منه قطرة حتى هدأ روعها وجبلة صامت ينظر اليها وقلبه يكاد يتقطع حتى هان عليه كل صعب فقال لها قد فهمت يا هند انك لا تحبين ثعلبة فهل تحبين والدك وعشيرتك

قالت وهي تشرق بدموعها نعم احبك واحبها وان كنت ترى في تسليمي لذلك الخائن راحة لك ولعشيرتك فاني راضية بالموت فداء عنك وعنها وهذه روحي بين يديك فافعل بي ما تشاء

قالت ذلك وترامت على والدها فضمها الى صدره والدموع تتساقط من عينيه رغم ارادته وجعل يقبلها ويخفف عنها وهو يقول لاتجزعي يا هند اني على ما تريدين فهوني عليك واستجمعي حواسك · قال ذلك وأجلسها الى

جانبه فجلست وهي تجمع شعرها وترسله الى ظهرها وكان قد مال الى الامام عند استلقائها على والدها . ولما رأت في والدها هذا الانعطاف تذكرت ما لا يزال في طريقها من العقبات بشأن حماد لعلمها ان والدها سيعظم امر حماد اكثر مما أعظم أمر ثعلبة فعولت على اغتنام تلك الفرصة وهو في حال الانعطاف لنيل رضاه عنها فعادت الى البكاء

فعجب لبكائها بعد مجاراته لها في العدول عن ثعلبة وكان يظن ذلك كافياً لزوال كل احزانها فلما رآها تبكي ظنها لم تفهم مراده . فقال كفي البكاء فقد اغفلنا ثعلبة وطلبه فهدئي روعك . فلم تزدد الاّ بكاء فادركت والدتها ما في نفسها فأومأت الى والدها ان يكف عن السؤال هنيهة ودنت من هند وجعلت تمسح دموعها بمنديلها وتقبلها ثم امسكتها يدها وخرجت بها الى غرفتها فلما خلت بها سألتها عن مرادها بذلك فقالت دعيني يا اماه دعيني ابكي على صباي فقد ادركتُ ما جررته على نفسي من البلاء

فعلمت انها تشير الى امر حماد وما تخافه من غضب والدها اذا علم بحبها له فقالت اشكر الله يا هند اننا قطعنا نصف الطريق بامان والله يساعدنا على الباقي

فقالت هند لم نقطع الاّ السهل منها وقد بقي الوعر يا اماه

قالت ان الذي نجانا من ثعلبة لا يبخل علينا بحماد طيبي نفساً وقري عيناً

قالت لا يطيب لي عيش فقد زهقت روحي قبل ان اقطع السهل الهين وكيف وقد وصلنا الى العقبة التي لا ارجو اجتيازها فقد رأيت ما اعظمه والدي من امر ثعلبة وهو يعلم خساسته ويعتقد بانه ليس اهلاً لي فمن يتجرأ

على ذكر حماد امامه وهو رجل غريب يقول انه لا يعرف اصله ولا فصله آه يا لتعاستي وسوء حظي

وكانت سعدى تعتقد مثل اعتقادها وربما خافت اكثر من خوفها ولكنها لما رأت حال ابنتها هان عليها ركوب ذلك المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشط آمالها وهند تبالغ في اظهار يأسها

فقالت سعدى خففي عنك وانهضي الى فراشك وعلي تدبير ما تريدينه ولك علي ان لا يصبح الصباح الا وقد رضي والدك بكل ما تريدين

فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش واحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت الازمة ولكنها استبعدت ذلك كثيراً فالتفت الى والدتها شذراً وتبسمت تبسم طفل نال امراً كان يتطلبه باكياً فقبض عليه وهو لا يصدق انه ناله . فلما رأتها سعدى في تلك الحال زادت انعطافاً اليها وابتسمت لها والدموع ملء عينيها وقالت هوني عليك فقد قلت لك اني ضامنة لك ما تريدين ألا يكفيك ذلك . . ؟

قالت يكفيني يا اماه ولكنني ارى والدي صعب المراس فلا أظنه يشفق على قلبي

قالت لا تستعظمي امراً تريدينه والله قادر على كل شيء فاذهبي الى وها اني ذاهبة الى السعي في مرامك والله يفعل ما يشاء



الفصل التاسع والعشرون

﴿ الاستغراب ﴾

فسكن روعها وعادت اليها آمالها والقت حملها على والدتها وسكتت ثم نهضت ومشت الى الفراش وقد انهكها التعب وخارت قواها من هول ما قاسته تلك الليلة ولما رأت والدتها تهمُّ بالخروج استحلفتها ان تبذل جهدها في اقناع والدها . فاكدت لها الوعد وخرجت حتى اتت غرفة زوجها فاذا هو في انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهده من هند فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلاً اتظنين هنداً تبقى على عزمها من رفض ثعلبة فقد رأيت اني جاريتها في امر ربما آل الى حرب دموية بيني وبين الحارث ولكنني فعلت ذلك مدفوعاً بشفقتي على الفتاة وانا ارجو ان اعود الى اقناعها في فرصة اخرى الا تساعدينني على ذلك

فابتسمت واظهرت الاستغراب قائلة اتظنني جاريت هنداً في عملها هذا عبثاً الم أقل لك اني انا فعلت ذلك رغم ارادتي وقد خفت على حياة ابنتنا ولو علمت ان الاصرار ينفعنا شيئاً ولو بعد حين ما سمعت منها قولاً ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا غير خسارة لا تعوض . أليست هند ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا وزهرة عمرنا اليست تعزيتنا في شيخوختنا الم نفاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين اليست هي فتاة غسان ومضرب امثالهم اليست هي افرس فرسانهم واكرم كرامهم انسيت وقد رأيتها تبكي كالطفل انها

تجاري فرسان غسان في حومة الميدان واذا ركبت جوادها تطاولت اليها الاعناق وحامت حولها القلوب · ألم تكن هنداً اذا وقفت في حومة الوغي واستحثت الرجال على دفاع الاعداء انهضت هممهم واثارت حميتهم · اغرك منها ذلها وانكسارها الليلة فنسيت هنداً وما هي ··· امثل هذه الفتاة يسهل التسليم بها لرجل لا يساوي قدة من نعلها · ثعلبة وما ثعلبة اليس هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناه يحقد كالفيل ويحتال كالثعلب و يغدر كالعقرب ·· السيت يوم السباق وما كان شأنه مع ذلك الشاب الغريب يوم سبقه مرتين حتى اذا سابقه ثالثة عاد من حلبة السباق وفي يده قصبة السبق مبرية بري القلم الا تذكر انك رأيت القصبة مبرية ؟

وكان جبلة في اثناء ذلك صامتاً وقد اعجب بفصاحة سعدى وانسجام حديثها فلما ذكرت القصبة تذكر انه رآها مبرية فقال نعم اذ كر ذلك

قالت اتدري سبب بريها فوالله وشرف بني غسان لو اطلعتك على سر الامر للعنت الساعة التي ولد فيها ثعلبة في بني غسان ولوددت لو ان حماداً مكانه لانه اشبه بشهامتهم وكرم اخلاقهم

فمال جبلة الى استطلاع السبب فقال وما سبب بريها فسرت سعدى لاصغاء زوجها الى حديثها فقصت له حكاية القصبة و بالغت بما اظهره حماد من الشهامة وكرم الاخلاق وما كان من دناءة ثعلبة وخساسته فلم تكد تفرغ من حديثها حتى انقبض وجه جبلة لما جرّه ثعلبة من العار على الغسانيين واحسّ بارتياح الى حماد · فقال تباً لثعلبة ورعياً لذلك الشاب فيا ليته قتله ولم يسمعنا هذا الحديث عنه

فتبسمت سعدى من جبلة اصغاء لحديثها فقالت اما وقد فتح الحديث وجرّنا الكلام الى هذا الحد فاسأَلك مسأَلة ستكون جواباً لسؤال سأَلتنيه الليلة

قال وما ذلك

قالت أَتدري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعد ما علمته من تباعده عنها

قال وما تعنين بتباعده

قالت أَلم تكن هند ابنة عمه منذ ولدت

قال بلى

قالت أَلم يكن يجدر به ان يخطبها لنفسه منذ اعوام وقد يخطب ابناء العم اطفالاً

قال بلى

قالت اتدري ما الذي امسكه عن خطبتها حتى الآن

قال وقد بهره قولها وتطاول بعنقه لاستكمال حديثها لا ادري وما ظنك بذلك

قالت لانه يحسب نفسه ارفع منها مقاماً او لعله كان يتوقع ان نعرضها عليه فاذا قبلها اذ ذاك انما يقبلها كرماً ومنة

قال جبلة وقد اقطب وجهه وتعاظم غضبهُ خسيء النذل وخسيء أَبوه قبله

قالت بل خسيء كل من يقول قوله فقد علمت ان ثعلبة لم يكن عازماً على خطبة هند لو لم يحدث ما حرك غيرته وهاجه على الانتقام واذا اذنت

ان اكشف لك الغطاء فعلت

قال وقد مال بكليته الى استطلاع السر نعم اني شديد الميل الى معرفة ذلك قولي

قالت ولكنني استحلفك بحبك هنداً ان تبقى على حبها وتشفق على صباها وتعذرها في ما رأيته او تراه من حالها

قال لقد عذرناها من قبل فلا حاجة الى الاستحلاف

قالت انما استحلفك على امر لم تعلمه بعد

فازداد شوقا وقال قولي لقد نفد صبري

قالت لقد علمت حسد ثعلبة حماداً على اثر ما ناله من قصب السبق عليه وقد تعاظم حسده لما رأى هنداً تلبسه تلك الدرع وهي انما فعلت ذلك بامرك

قال نعم

قالت وقد رأيتك وانت رجل معجباً بشهامة ذلك الشاب ولا يخفى عليك ان النساء اكثر اعجاباً بشهامة الرجال وخصوصاً من كانت مثل هند في مقتبل العمر وريعان الشباب · قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جبلة ولم تكن تتوقع الاَّ استغرابه

فحملق جبلة ونظر اليها والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال وماذا تعنين

قالت وهي تتردد بين ان تصرح له او تبقى على الكتمان « اعني انه لما رأى هنداً معجبة بحماد ثارت في قلبه نيران الغيرة والحسد والانتقام و · · · »

فقطع عليها الكلام قائلاً اظنك تعنين اكثر من ذلك

فرأت سعدى ان تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت اعني انه ظنها تحب حمادًا فاراد خطبتها ليحرمها منه فينتقم منهما جميعًا

فبهت جبلة وقد ارتاب من كلام سعدى بعد ما آنس من ترددها ولكنه استزادها ايضاحًا فقال هل كان ذلك منه على سبيل الظن فقط

قالت لا ادري اذا كان يتجاوز الظن

فقال اراكِ تدافعينني وتكتمين شيئًا آخر فافصحي عما في ضميرك

فسكتت وقد خافت التصريح

فالحّ عليها وهو في ريب من امرها وقال افصحي

فقالت وهب اني اكتم شيئًا آخر فما الفائدة من الافصاح

فادرك ان في ضميرها سرًّا تخاف افشاءه فرارًا من غضبه فقال وقد اشتد قلقه وحمي غضبه قولي افصحي فهل علمت يقينًا ان هندًا تحب ذلك الشاب

فأطرقت ولم تجب ولكنها اشارت بكتفها وحاجبيها انها لا تعلم

فقال ما بالك لا تجيبين ألعلها تحبه

فنظرت اليه وقد عولت على التصريح فلما رأت تقطب حاجبيه وحملقة عينيه خافت اشتداد غضبه فنهضت وتظاهرت بتأجيل الحديث الى وقت آخر وقالت وهي تهم بالخروج « لا اعلم وسأبحث عن ذلك واخبرك »

فامسكها بيدها واقعدها وقال لها يكفي مدافعة فانك تعلمين فقولي ولا حاجة الى التسويف بعد ان فهمت ما فهمته من خلال حديثك

فقالت فاذا كنت قد فهمت فلماذا تستعيدني ما قلته

قال اذن هي تحبه و تريد الاقتران به

قالت ربما كان ذلك · واعرضت عن جبلة متشاغلةً باصلاح فراشها واظهرت عدم الاكتراث

فحمي غضبه وامسكها بيدها وجذبها اليه بعنف وقال ما بالك تستخفين بغضبي كأنك لا ترين في الامر ما يستحق الاهتمام · الا يهمك ان تقترن ابنتك برجل غريب لا نعرف أصله ولا فصله وقد يكون من السوقة

فنظرت اليه عاتبةً لما اظهره من العنف وقالت بصوت منخفض وهذا الذي حملني على الكتمان لعلمي انك ستتلقى الخبر بما اعلمه من تعلقك بشرف الغسانيين وانكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم على ان حماداً ليس من السوقة بل هو من امراء العراق بني لخم

فخجل لما كان من خشونته في خطابها والغضب يمنعه من الاعتذار ولكنه أمسكها بلطف وقال لها الا تنكرين انت ذلك ايضاً· وهبي انه امير فبيننا وبين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة

قالت لا اخفي عنك اني استعظمت الامر عند سماعه لاول وهلة ولكنني تلقيته بالحكمة والصبر لارى حيلة في تدبيره ولو علمت انت ان حال هند كما علمتها انا لفعلت مثل فعلي ولكن ما الفائدة بالكلام وقد نسيت حنوّك وشفقتك فافعل ما تشاء واذا ماتت هند فاللوم لاحقٌ بك · قالت ذلك وهي تنظر اليه والدموع ملء عينيها

فلما شاهد ذلك منها سكن غضبه وصبر نفسه ونظر اليها بطرف يكاد يدمع وقال وما الحيلة التي ترينها والحال كما قلت

قال اذا اذنت ان ننظر في الامر بعين الحكمة دبرت لك حيلة ينصرف بها هذا المشكل على اهون سبيل والاَّ فالامر لك

فبهت ثم قال ما الرأي قولي

فجلست الى جانبه وخاطبته باهتمام قائلة اما الرأي فهو ان نتظاهر بالرضاء عما ارادته هند ثم ندبر حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط على عواطفها

فقال وكيف ذلك

قالت سأُخبرها غداً ان حماداً اذا طلبها منك لا تمنعه منها ثم ابين لها ترفع مثلها عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبه وهي لا تنكر ذلك . ثم احبب اليها ان يعمل عملاً نقترحه عليه يكون لهُ به فخر يغنيه عن النسب فاذا قبلت ولا اظنها الاَّ قابلة لعلمي بعزة نفسها اقترحنا على حماد امراً يقرب من المستحيل . فاذا استطاعه كان اقترانه بهند امراً مقضياً من الله سبحانه وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول به

فارتاح جبلة الى هذا الرأي وسأَلها عما تنوي اقتراحه فقالت سننظر فية ونقرُّ عليه ريثما يئين الوقت

فسر لتعقلها واثنى على ما أَظهرته من الروية والحكمة فقالت له عند ذلك دعني اذهب الى هند واطمئنها لئلا تقضي الليلة ساهرة فنعود الى الضعف قالت ذلك وخرجت فرأَت هنداً في انتظارها على مثل الجمر

اما هند فلما رأَت والدتها قادمة نهضت لملاقاتها وهي تنظر الى وجهها تتفاءل بما تقرأَه عليه من آيات البشر . فرأَتها تبتسم فسكن بلبالها فاستطلعتها

الخبر فطمأنتها واكدت لها ان والدها لا يمانعها في ما تريده فلم تصدقها حتى اقسمت بحبها لها · فانبسط وجه هند ولم تتمالك عن الابتسام وكان سرور والدتها اكثر من سرورها · ولكنها ما زالت تفكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من شدة الفرح

الفصل الثلاثون

اليأس من وجود عبدالله

تركنا حماداً في انتظار خبر والده وسلمان يتردد الى بصرى وضواحيها يسأل عنه حتى يئسا من العثور عليه هناك فقلق حماد لذلك كثيراً وخاف من سوء يصيبه وكان سلمان في مثل قلقه فعاد ذات يوم من بصرى وكان قد ذهب اليها للبحث عن سيده ولم يقف له على خبر فوصل خيمة حماد فرآه غارقاً في بحار الهواجس فلما دخل ناداه حماد ماوراءك يا سلمان

قال ما زلت على ما فارقتني ولا اراني قادراً على الصبر بعد هذا الانتظار فاذن لي في المسير الى بيت المقدس او عمان للتفتيش عن سيدي فقد مللت الانتظار

فقال حماد الا ترى ان اسير انا معك

قال لا حاجة الى ذهابك فامكث هنا ريثما أعود

فقال هل تسير الى بيت المقدس ام الى عمان

قال أرى ان اسير الى بيت المقدس أتتبع خطوات سيدي منها حتى

أقف على خبره فضلاً عما في الطريق من هناك الى عمان من الاخطار التي لم ننسها بعد

قال سر بحراسة الله ولا تطل الغياب فاني في انتظارك وانت تعلم حالي من القلق

فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قاصداً بيت المقدس فوصلها بعد ايام فجال في شوارعها حتى انتهى الى خان علم من قيافة صاحبه انه عربي فدخل والتمس مبيتاً عنده فأعد له غرفة نزل فيها وارسل جواده الى الاسطبل ثم بدل سلمان ثيابه وجاء الى صاحب الخان فجلس اليه وجعل يحادثه في مواضيع مختلفة حتى تطرق الى حكاية هرقل وما كان من مجيئه الى هناك فآنس في الرجل علماً ببعض الحكاية فقال له وهل رايت القيصر يوم مجيئه

قال رأيته ماراً بموكبه يوم وصوله ثم تراكمت علينا الاشغال لتقاطر اهل القرى والبلاد الى بيت المقدس

فقال وهل يرد عليكم كثير من العرب ام كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من اهل هذه البلاد

قال قلما يرد علينا قوافل من العرب اما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم

فقال وما سبب ذلك

قال لان القيصر بعث الى امير من الامراء الحجاز يقال له ابو سفيان فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعاً في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانتفعت المدينة بقدومهم لما يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم ويظهر

انهم من اهل الرخاء خلافاً لما تعودناه من فقر اهل الحجاز وقلة اموالهم كما هو مشهور من جدب ارضهم

فقال سلمان كثيراً ما سمعت بابي سفيان هذا وعهدي به من اعظم امراء مكة وانه كثيراً ما يقدم برجاله الى الشام وضواحيها للاتجار

فقال ولكنه قلما يأتي بيت المقدس . اما في هذا العام فقد جاء بامر من القيصر

قال وما الذي دعا القيصر الى استقدامه ومن يكون ابو سفيان حتى يهتم قيصر الروم باستدعائه

فاحكى له حكاية الكتاب الذي ورد على هرقل وما كان من امره حتى انتهى الى سفره من بيت المقدس

فاراد سلمان ان يستطلع خبر سيده فقال اظن العرب الذين يأتونكم كلهم او اكثرهم من الحجاز و يندر ان يأتيكم احد من اهل العراق

وكان الحاناتي قد علم من لهجة سلمان انه عراقي فقال كثيراً ما يأتينا تجار من العراق ايضاً ولكن قدومهم يكون غالباً في أزمنة المواسم والاعياد عند ما يكثر الواردون الى القبر المقدس لان الناس يحجون الى اورشليم من جميع اقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان ايضاً لعرض سلعهم و بضائعهم واهل العراق يحملون الينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئاً من محصولات العراق كالتمر وغيره

فقال هل جاءكم أحد منهم في هذه الاثناء

قال رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم احد عندي الاّ اميراً جاءنا

يوم سفر ابي سفيان وسار معه

فتوسم سلمان من ذلك خيرًا فقال هل عرفت اسم ذلك الامير

قال اظنني سمعتهم ينادونه عبدالله

فتحقق سلمان انه سيده بعينه فقال هل تعرف شيئاً عن هذا الامير بعد سفره

فاطرق الخاناتي هنيهة ثم قال لقد اذكرتني من شأن هذا الامير ما يتفطر له القلب

فاقشعر بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه وتطاول بعنقه نحو الخاناتي وقال لقد شغلت بالي يا اخا العرب بما اشرت اليه فهل اصيب الامير عبدالله بسوء

قال كلاَّ لم اسمع عنه شيئاً من هذا القبيل ولكنني علمت انه اصيب بفقد ولد له اكلته السباع في مسبعة الزرقاء

فعجب سلمان والتفت الى الخاناتي باهتمام وقال اعترف لك يا سيدي ان امر هذا الامير يهمني كثيرًا لانه سيدي وانما جئت للتفتيش عنه فهل تتفضل بتفصيل حكايته وما تمَّ له ومن انبأه بمقتل ابنه

قال لا اخفي عليك شيئاً مما اعرفه من هذا القبيل فقد جاءنا هذا الامير يوم سفر ابي سفيان ولحظت انه سار في ضيافته فلما خرجت القافلة ارسلت معها بعض خدمة الخان ليشيعوها لعلها تحتاج الى ارشاد في اختيار بعض الطرق دون غيرها وكان مع القافلة جواد عثروا عليه شاردًا في بعض السهول أثناء مجيئهم الى الشام . فلما همت القافلة بالسير قدَّم ابو سفيان ذلك

الجواد للامير عبد الله ليركبه فلما رآه هذا عرف انه جواد ولد له كان قد فارقه في بعض جهات الزرقاء فالتبس عليه أمر الجواد وفراره فاحكى حكايته هذه لابي سفيان فرافقه هذا مع بعض رجاله الى المكان الذي راوا الفرس فيه وبلغني انهم عثروا على بقايا فرس آخر تحت شجرة وأشياء اخرى استدلوا منها على ذهاب الغلام فريسة السباع . فبكى ذلك المسكين بكاء مرًّا وندب ابنه وبالغ ابو سفيان بتعزيته فلم يتعزَّ .

وكان سلمان في أثناء هذه الحكاية مصغياً وقلبه يخفق فلما وصل الخاناتي الى هذا الحد احس سلمان بقشعريرة وقف لها شعره وقال للرجل وماذا تمَّ له بعد ذلك

قال سمعت انه لما تحقق موت ابنه لم يعد يحلو له الذهاب الى منزله في بصري فسار مع القافلة الى الحجاز

فقال سلمان وهل تحققت انه سار الى الحجاز

قال هذا ما سمعته ولا أدري اذا كان قد عدل عنها بعد ذلك

فقال سلمان وقد ظهرت البغتة على وجهه اني اعترفت لك باهمية هذه هذه الحكاية عندي وأشكر الله لنزولي عليك حتى سمعت هذا الحديث منك ولكنني أرجو ان تزيدني ايضاحاً ما استطعت

فقال الخاناتي لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغتة على وجهك ما حرَّك فيَّ الاهتمام لمعرفة مصير هذا الامير فلندع المكاري الذي قصَّ الخبر عليَّ بعد عودته لعله يزيدنا ايضاحاً قال ذلك ونادى المكاري وكان مشتغلاً ببعض شؤون الخان فجاء فسأله عمَّا يعلمه من تفاصيل حكاية عبد الله

فأحكى القصة كما قالها الخاناتي مع بعض التفصيل حتى انتهى الى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال رأيت ذلك الامير عائدًا على قدميه يحمل سيف ابنه وعباءته وكان قد عثر عليها عند ضفة غدير هناك فاستأنس بهما واشتم رائحة ابنه منها وأما الجواد فكان مسوقًا وراءه كئيبًا كأنه علم بمصير صاحبه فلما وصلوا الى الطريق دعاه ابو سفيان للمسير معه الى الحجاز اوان يوصله الى منزله في بصرى فقال انه لا يريد العود الى بصرى ثم تردد في الذهاب الى الحجاز ولكنه رافقه وساروا جميعًا وعدنا نحن ولا نعلم ما تمّ له بعد ذلك

فقال سلمان الم تسمعه يذكر عمان وعزمه المسير اليها

قال لا اذكر اني سمعته يقول شيئًا من هذا القبيل

فبهت سلمان برهة يفكر في ما سمعه وقد علم ان سيده لا يصبر على ما ظنه من ذهاب حماد فريسة للسباع وخاف ان يكون قد حمله ذلك على مهاجرة الشام والمسير الى الحجاز مع ابي سفيان ولكنه راى ذلك اذا فعله سيده لا يخلو من المسارعة وهو يعلم ان عبد الله عاقل لا يأخذ الامور بظاهرها فلبث برهة يفكر ثم استأذن الخاناتي في الذهاب الى غرفته ليتبصر في الامر بعد ان شكره لما قصه عليه

فلما خلا في غرفته اخذت تتقاذفه الهواجس وهو يفكر في الامر وقد انقبضت نفسه خوفًا مما قد يصيب سيده من عواقب اليأس وعظم عليه الرجوع الى حماد بهذا الخبر المشوم فضلا عن انه لا يفيده شيئًا . فقضى بقية ذلك النهار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاح له بعد اعمال الفكرة ان يتبع

خطوات سيده بنفسه فيسير الى عمان لعله يقف على ما يجلو له من الحقيقة

فلما اصبح سار الى الحاناتي واطلعه على عزمه واستاذنه في مسير ذلك المكاري معه فاطاعه فركب سلمان والمكاري في ركابه وكلما مرَّا بمكان احكى له المكاري واقعة حاله حتى تجاوزا طريق المسبعة و وصلا الى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان الا تسير معي الى عمان لعلنا نسمع هناك خبرًا جديدًا

قال اني في ركابك الى حيثما تريد ولكنني سمعت منذ ايام ان بالقرب من عمان جماعة من قريش جاؤوا لمحاربتنا فلا نأمن اذا رأونا ان نقع في ايديهم غنيمة باردة

فتذكر سلمان انه سمع مثل ذلك قبل خروجه من بصرى ايضًا فتردد في الامر ولكن نفسه لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصول الى عمان فقرَّ رأيه على الذهاب اليها من طريق مجهولة لا يطرقها الاَّ القليل من الناس والمكاري يعرفها فسار حتى انتهيا الى عمان فلم يجدا فيها اثرًا ولا خبرًا

فعاد سلمان يئسًا حزينًا لا يدري كيف يقابل حمادًا بهذا الخبر الابتر على انه كان يتوهم ان سيده ولواطاع عواطفه في حال تأثرها وسار الى الحجاز لا يلبث ان يهدأ روعه و يعود الى البلقاء للبحث عن ابنه ولا اقلَّ من يرجع الى بصرى بعد ان عفي عنه فيتفقد ما اذخروه من المال والثمنات في منزلهم بغسام

فقضى سلمان طول الطريق في عودته وهو يفكر في ذلك وكثيرًا ما حدثته نفسه ان يتأثر سيده الى الحجاز لولم يعرض له الشك في مسيره اليها

وعوّل اخيرًا على الرجوع الى حماد والمداولة معه في هذه الشؤون فاذا تحقق ذهابه الى الحجاز سار للتفتيش عنه فيها

فلما وصلا الى منعطف من الطرق يؤدي الى البلقاء رأساً اثنى سلمان على المكاري واكرمه وودعه وسار قاصداً حماداً

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ حمّاد في خيمته ﴾

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه الى بيت القدس حتى أحس حماد بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيداً عن حبيبته قلقاً على والده فجلس يفكر في ما مرّ به ذلك العام من الاهوال وما رآه من حوادث الايام وتذكر حاله قبل قدومه البلقاء يوم كان خلي البال لا يعرف الهواجس فعلم ان السبب في ذلك كله الحب فتذكر هنداً وما ناله من رضاء والدتها فرقص قلبه طرباً ونسي ما ينتابه من الشواغل والحب معما وصفه به امام العاشقين بقوله

فعش خالياً فالحبُّ راحتهُ عنىً * فأوّلهُ سقمٌ وآخرهُ قتلُ

فهو اذا رضي الحبيب تعزية للمحبين ينسيهم الهموم ويخفف عنهم الاحزان فلم يكن لحماد تعزية في غربته وهواجسه الا رضاء حبيبته فاذا تراكمت عليه الاحزان تذكرها وتصوّر قربها فتنتعش جوارحه وتثوب اليه آماله فينجلي صدره وتنبسط نفسه

فلبث في خيمة برهة يتردد بين اليأس والرجاء ينقبض صدره تارة و ينبسط اخرى حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم ان مضيفه عائد من مرعاه فحسده لسذاجته وقلة شواغله ولبث يفكر في أمره وود لو انه في مثل حاله خلي البال قليل البلبال لا يهمه من دنياه الاّ ما يرجوه من غلة ارضه او نتاج ماشيته • ولكنه تذكر ان ذلك الشيخ لا يعرف الحب ولاشعر بلذته فخيل له انه اشبه بالحيوان الاعجم منه بالانسان

وفيما هو يتأمل سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتها انها خطوات الشيخ لأنه كان لا يمشي الاّ حافياً فتحفز لاستقباله فاذا به قد دخل الخيمة والمنجل لا يزل في يده وقد كسا لحيته وعمامته الغبار وانفتح قميصه عن صدره فبان الشعر متجعدًا كأَنه نبت الربيع يعانق بعضه بعضاً • فلما رآه حماد وقف له وحياه اكراماً لشيخوخته فالقى الشيخ المنجل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجهه ملامح البشر حتى كاد يبتسم وكان قد عاشره اياماً لم ير ثغره باسماً قط • على انه قلما رآه منقبضاً او مهتماً • فلما رآه يبتسم احسّ بارتياح وسرور ودعاه الى جانبه واخلى له مجلساً على البساط فابى الجلوس الاّ على الارض فجلس وهو يحك احدى كفيه بالاخرى لينزع مالصق بهما من التراب فلما تفتت التراب عنهما جعل ينفض لحيته البيضاء لينزع عنها ما علق بها من الاتربة

فبدأ حماد بخطابه قائلاً كيف انت اليوم ايها الشيخ ارجو ان تكون في خير وعافية

فنزع الشيخ عمامته وتشاغل بنقرها لينفض غبارها ثم قال نحمد الله على

خيراته فقد سرني اليوم ان بقرتي ولدت عجلاً ابلق ولا يمضي عليه العام او العامان حتى استخدمه في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهمومهم

فعجب حماد لسذاجة البداوة وقلة هموم اهلها فاراد مداعبته فقال له ايكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون متمتعون بالسلطة والسيادة — وكان حماد عالمًا بما ينقوله الانباط على الغسانيين كما تقدم

فضحك الشيخ مستهزئًا وقال لا يغرنك من دنياك يوم نعيم فانها لا تحسن يومًا حتى تسيء اياماً . فلا تفرح للحارث الغساني من اجل يوم استبد فيه فقد جاءه من ينزع عنه السيادة ويلحقه باجداده اصحاب سيل العرم الذين انما جاؤونا فراراً من الفقر بعد ان كانوا يقيمون في ارض تستقي من مستنقعات يجمعونها من مياه الامطار وراء سد من حجر فلما انهدم السد سال الماء فاغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بناء السد لضعفهم وقلة تدبيرهم فاجدبت ارضهم ففروا في جملة من فرّ منها الى هذه البلاد منذ قرون متطاولة وقدر لهم الملك عن غير استحقاق فجاءهم الآن من ينزع الملك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لهم وما عليهم

فعلم حماد ان الشيخ يشير الى حكاية سيل العرم في جهات اليمن وما كان من تفرق بني قحطان بعده والغسانيون في جملتهم . ولكنه لم يفقه ما اراده من قوله بقرب زوال ملكهم فقال له وما تعني بزوال ملكهم ونحن لا نراهم يزدادون الا قوة ومنعة

قال الم تسمع بالعدنانيين الذين قدموا من الحجاز في هذه الاثناء فقد جاؤوا جماعة كبيرة ليقتصوا من الغسانيين ويبيدوهم عن آخرهم

فقال وما اوجب الاقتصاص واي علاقة بينها والحجاز على مسافة ايام من الشام والناس هناك في شاغل باصلاح دينهم فقد ظهر فيهم من يدعوهم الى دين الله وقد سمعت بانه انشأ فيهم دولة جديدة دانت لها كل بلاد العرب فهال الحجاز في شاغل عن هذه البلاد

فضحك الشيخ وقال كل ذلك من تدبير الله . واما ما اوجب مجيء العدنانيين فهو وقاحة الحارث الغساني وكبرياؤه . فقد انبأني بعض المارين من هنا ان نبي قريش الذي ذكرته كتب الى الحارث كتاباً يدعوه فيه الى دينه فبدلاً من ان يقرأه ويتأمله ويردّ الرسول ردًّا جميلاً مزق الكتاب واهان الرسول فشق ذلك على صاحب الرسالة فانفذ جندًا لحرب الحارث وفتح بلاده

فاهتم حماد بذلك الخبر لعلمه ان الحرب اذا قامت عرقلت مساعيه وحالت بينه وبين ما يريد فضلاً عما يخافه على هند من الخطر لان جبلة لا بد له من نصرة ابن عمه الحارث . على انه لم يكن يخاف انهزامهم لما كان يتوهمه من ضعف اهل الحجاز وقلة خيراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم ولكن خوفه على هند من عواقب الحرب همه كثيراً فلبث برهة يفكر في امره ثم قال للشيخ وهل انت واثق بمجيء هؤلاء الحجازيين

قال لا ريب عندي من ذلك

قال الملك سمعت الخبر عن ثقة

قال سمعته من خبير وهمني امره كثيرًا حتى تحققته اذ يسرني خذلان الغساسنة فقد قلت لك انهم اعداؤنا . وكان ذلك الشيخ النبطي يظن حماداً

يفرح بسقوط دولة بني غسان لانه من لخم ولم يدر ان قلبه في صرح الغدير

فلبث حماد صامتاً لا يدري ماذا يعمل وتذكر سلمان ووالده فتراكمت همومه فالتفت الى الشيخ فاذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليه النعاس شأن المشتغلين مثل شغله على خلو بالهم وخصوصاً من كان في مثل سنه فانك بينما انت تخاطبه في شأن لا تلبث ان تراه ينام — فتركه حماد واشتغل بهواجسه

ثم افاق الشيخ مذعوراً لصوت ثيرانه وهمّ بالخروج من الخيمة وهو يقول لقد تقاتل الثوران فخرج حماد في اثره وكان الليل قد سدل نقابه فسارا حتى دنوا من مربط الثيران فاذا هي لا تتقاتل ولكنهما شاهدا بينها جملاً غريباً فتقدم الشيخ اليه وامسكه بعنقه وابعده عن ثيرانه حتى دنا به من نار موقدة يستضيء بها وحماد يراعية بعينيه ولم يكد الشيخ يتأمل ذلك الجمل حتى ضحك وقال وهذه ناقة من نوق اهل المدينة قد تخلفت عن جند الحجاز الذي قلت لك انهم جاؤوا لحرب الغسانيين

فقال حماد وما الذي دلك على ذلك

قال دلني عليه شكل الرحل فانه خاص باهل المدينة وكثيراً ما رأينا امثال هذه النوق مارة بنا الى الشام وغيرها

فقال حماد يظهر ان هؤلاء العدنانيين قد اصبحوا على مقربة منا

فقال الشيخ لا اظنهم قريبين فقد يكون بيننا وبينهم مسافة ايام ولعل هذه الناقة قد تاهت منذ بضعة ايام — قال ذلك وهو يعقلها ويأتي لها بالعلف

فتركه حماد وعاد الى خيمته وقد تمثل له الامر بجسامته فعظم عليه ان

يذهب امله ادراك الرياح لاشتغال جبلة بالحرب فشعر باحتياجه الى سلمان فصبر نفسه ريثما يعود اليه بالخبر عن والده

الفصل الثاني والثلاثون

﴿ سلمان وأخباره ﴾

وبعد ايام عاد سلمان كاسف البال لخيبة مسعاه في التفتيش عن سيده وكان حماد قد ملّ الانتظار فاستطلعه كانه ما علمه فاحكى له ما سمعه ثم قال يلوح لي ان سيدي رافق ابا سفيان الى الحجاز اذ يظهر مما سمعته انه تحقق خبر مقتلك فلم يبق له وطر في الحياة . ولعل ابا سفيان حبب اليه السفر ورغبه في المسير الى الكعبة فجاراه

فقال حماد لا اظنه يفعل ذلك قبل ان يأتي بصرى ويستخرج المخباة التي خبأناها في غسام

فقال وما ادرانا انه لم يأت اليها بعد ان استخرجناها او لعله ارسل من يبحث عنها فلم يظفر بها وعلى كل حال ان سيدي ليس في فلسطين ولا البلقاء ولا عثرت عليه في عمان و يؤخذ من مجمل ما سمعته انه سار الى الحجاز فهل تأذن لي في الذهاب الى مكة للتفتيش عنه

قال لو كنا على يقين من ذهابه اليها لسرت انا بنفسي ولكننا انما نرجم بالغيب وزد على ذلك اننا في حال تدعو الى القلق من امر الحرب المنتظرة بين الحجازيين والغسانيين وقد سمعتك تشير اليها في اثناء حديثك وكنت في

ريب من امرها مع اني سمعتها من شيخنا النبطي منذ ايام

فقال سلمان اما مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيه لاني شاهدت معسكرهم شهادة عين بجوار عمان واما سيدي فالارجح انه سار الى الحجاز او لعله اصيب بما عاقه عن المجيء الى البصرى ولا يلبث ان يأتي فاذا لم نره بعد ايام علمنا انه سار مع ابي سفيان الى مكة

فلم يرَ حماد بدًّا من التربص لما سيظهر من هذا القبيل ولكنه عاد الى امره مع هند وما عسى ان يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف ان يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيه هدراً

فقال عليك يا سلمان ان تتردد الى بصرى لعلك تسمع شيئاً عن والدي ولا تنس البحث عن هند و والدها فقد علمت ما داهم الغسانيين من امر الحرب على حين غفلة واخشى اذا حمي وطيسها ان تذهب آمالنا كلها ادراج الرياح

فقال سلمان والقلق ظاهر على وجهه وما ادراك انني غافل عن هذا الامر وهو شاغل فكري ليلاً ونهارًا وكنت عازمًا على استئذانك في الذهاب الى بصرى في صباح الغد فقد سمعت الناس يتقوّلون اقوالاً لم اصدقها

فبغت حماد وقال وماذا عسى ان يكون تقولهم وعمن يتقولون — قل ما الذي سمعته

قال لم اسمع شيئاً يوجب قلقاً لاني على يقين من حب هند وثباتها في حبك

فازداد حماد اندهاشاً وقال هند ... وما شأن هند وماذا يتقوّل الناس عنها قل يا سلمان .. ؟

قال هدئ روعك فاني لا اخفي عنك شيئاً وخصوصاً ان ما سمعته لا يوجب قلقاً ولا يجرّ الى خوف

فقال حماد وقد نفد صبره قل ماذا يقولون

قال سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها ان ثعلبة طلب الاقتران بهند

فلما سمع حماد اسم ثعلبة مقروناً باسم هند قف شعره واقشعر بدنه وقال وكيف طلب ذلك ومتى ..؟

قال سمعت انه طلبها بواسطة والده الحارث وان والده خاطب جبلة فوعده

فصاح حماد وبماذا وعده.....

فقال سلمان وهو يبتسم مالي اراك قليل الصبر خفف عنك واصغ الى الى ما اقول فقد عهدتك صبوراً حازماً

قال اني صبور على كل شيء الاّ على هند .. قل ما كان وعده

قال وعده بمخاطبة الفتاة او بالحري بمشاورة والدتها اذ لا تجهل ان اقتران البنات قلما يتوقف على ارادتهنّ

فقال حماد وماذا كانت النتيجة

قال لم أتحقق الخبر بعد فقد قال بعضهم انه خاطبها ولم تقبل وقال آخرون انه لم يخاطبها بعد ولكن صديقاً لي من اهل بصرى صادقته على اثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الامير واظنه اعلم الناس بحقيقة الواقع انبأني امس وقد لقيته في الطريق بجوار بصرى ان الحارث استبطأ جواب جبلة بشأن هند فسار اليه ثانية يستعجله في الجواب على أثر قدوم

هؤلاء الحجازيين لانه يريد التعجيل في الاقتران قبل انشاب الحرب

فخفق قلب حماد كمن اخفق مسعاه ووقف وقد امتقع لونه وقال ما هذه الاحاديث يا سلمان فاني اراني في حلم الظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عبثاً وهل ترضى هند بابن عمها ثعلبة . قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيه

فاتقدت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهمّ بحماد فضمه الى صدره وقال له خسيء النذل ان هنداً ارفع من ان تدنس قلبها بمحبته وانت اعلم مني بانفتها وعزة نفسها وكرهها لثعلبة ويلوح لي ان التباطوء في جوابها ناتج عن تمنعها

فانتعش حماد لذلك الكلام ولكنه ما زال خائفاً من ان تؤخذ الفتاة قسراً فقال حاشا لقلب هند ان يحب ذلك الخائن ولكنني اخاف ان تحمل على القبول به مراعاة لعلاقة أبويها لما بينهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض فقد يصعب على هند ان ترفض ما يريد ابواها

فقال سلمان لا يصعب عليها ذلك ووالدتها نصيرة لها فقد آنست من هذه المرأة يوم قابلتها وانا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنانها فهي اذا ارادت تحويل زوجها عن امر لا يصعب عليها

قال حماد ومن ينبئنا ببقائها على ذلك ونحن لم نر من حديثها في ذلك اليوم ما يدل على اخلاصها لنا وزد على ما تقدم ان مجارات جبلة في رفض ثعلبة لا يضمن لنا رضاءه بسواه (يريد نفسه)

فادرك سلمان وعورة المسلك ولكنه أظهر الاستخفاف به وقال دع

ذلك اليّ فاني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدبير الحيلة والله يفعل ما يشاء

فسكت حماد لا عن اقتناع ولكنه صبر نفسه ينتظر ما يأتي به القدر

الفصل الثالث والثلاثون

وعند جهينة الخبر اليقين

وباتوا تلك الليلة وحماد لم ينم الاّ قليلاً لما تراكم عليه من الهواجس أما سلمان فقضى ليلته يفكر في سبيل يوصله الى المراد فنهض في الصباح التالي وفي نيته الشخوص الى صرح الغدير لاعتقاده ان الخبر اليقين عند هند فلبس ثياب الرهبان وركب جواده وسار حتى اذا اتى الصرح سأل عمن يقيم فيه فقيل له ان جبلة برحهُ منذ ايام بعد ان جاءه لزيارة . فتقدم الى باب الحديقة فاستقبله بعض الخدم وسأله عن غرضه فقال انه جاء بمهمة من رئيس دير بحيراء الى الاميرة سعدى . وطلب مقابلتها فسألوها فأذنت بدخوله . فلما خلت به عرفته فسألته عن حماد فأنبأها بحاله وانه جاء يستطلع ما تمّ من امره فاستدعت هنداً وكانت في غرفتها تفكر في حماد وهي لا تعلم مقره فلما سمعت بمجيء سلمان خفق قلبها واسرعت اليه وامارات البغتة تلوح على وجهها . فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطمأنها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنته وكان سلمان في اثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعله

يلاحظ فيها ما كان يخافه من اخلافها فآنس منها ما حقق آماله برضائها ولكنه ما زال قلقاً لما عساه ان يكون من امر ثعلبة وطلبه فجعلوا يتجاذبون اطراف الحديث واكثره بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من عدول جبلة عن ثعلبة ورضائه بحماد فسرّ سروراً لا مزيد عليه حتى رقص قلبه من الفرح وود لوان له اجنحة ليطير بها الى حماد يبشره بذلك

ثم قال لسعدى وما هو موعدنا من مخاطبة سيدي الملك بهذا الشأن

قالت نحن على موعد من مجيئه الينا بعد ايام فاذا كان يوم مجيئه يتقدم حماد في طلب هند فينال مبتغاه · وكانت هند في اثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبها يرقص طرباً · فقال سلمان ومن ينبئنا بذلك اليوم ونحن بعيدون عن هذا القصر

قالت نبعث معك من يعرف مقرّكم فاذا كان اليوم المعهود ارسلناه في طلبكم

قال حسناً وهمّ بالخروج فوقفتا له فودعهما وخرج وهو لا يصدق انه سمع ما سمعه ولكنه لم يعلم بما سيقوم في سبيل سيده من العقبات · ورافقه خادم انتدبوه لهذه المهمة على ان يكتمها

ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وما كان من سروره لما سمعه حتى تمثلت له السعادة عبداً رقاً ونسي والده وضياعه لا عن عقوق ولكن الحب تغلب عليه فوعد نفسه بالبحث عن والده بعد ان يصير صهراً للملك غسان فيكون اقدر على ذلك لما يرجوه من مساعدة عمه

فلنتركه في فرحه ولنرجع الى جبلة وما كان من امره بعد رجوعه

الى صرح الغدير فانه ما لبث ان توارى عن الصرح حتى انجلى له خطأه وما كان من تهوره في مجاراة امرأته بشأن حماد ولم يعلم كيف يجيب الحارث عن طلبه وقد عظم عليه ان يردَّه خائباً بعد ان وعده لما في ذلك من ضعف الرأي فقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس فلاح له اخيرًا ان يكتم حقيقة الامر ويجعل جوابه تأجيل الخطبة الى ما بعد انقضاء الحرب على نية ان يبعث حمادًا في مهمة لا يعود منها واذا عاد انما يعود خائباً فلا يستطيع طلباً ولا ينال وطرًا

الفصل الرابع والثلاثون

ثعلبة

أما ثعلبة فقد دبر ما دبره وهو على ثقة من رضاء هند به ولو قسرًا ثم علم بضياع عبدالله وترجح لديه مقتل حماد مما نقله اليه جواسيسه الذين انفذهم في اثر عبد الله عند خروجه من بيت المقدس وذلك ما كان يتمناه فهمدت غيرته على هند لانه انما طلب الاقتران بها ليمنعها عن حماد فلما علم بقتله ود الرجوع عن طلبه لتبقى منغصة العيش فتخسر الاثنين معاً. فاخذ يترقب فرصة يؤجل بها الاقتران ثم يسعى في سبيل ينتقم به من هند وكانت تحدثه نفسه اذا قبلت هي به اجابها بالتأجيل والوعود حتى تموت كمدًا الا اذا علم بعد ذلك ان حمادًا لم يقتل فيعود الى طلبها

ولم يكن والده يعلم بحقيقة مراده فكان يستعجل جبلة في أمر الاقتران

ظناً منه ان ذلك يسرُّ ابنه ويجعل عيشه سعيداً فلما سمع بمجيء الحجازيين الى عمان سار بنفسه الى جبلة والح عليه بامر الاقتران قبل انتشار الحرب كما تقدم ثم تواردت عليهم الاخبار باقلاع اولئك العرب الى عمان وشخوصهم الى البلقاء و بلغ ذلك ثعلبة فجاء الى والده وتداولا في اعداد المعدات وتحصين الحصون في حدود البلقاء فجرهم الحديث الى هند والاقتران بها فاخبره والده انه استعجل جبلة في استجواب هند بشأن الاقتران وانه لايشك بقبولها واوعز اليه ان يستعد للاقتران على ابسط الطرق بلا احتفال الى ما بعد انتصارهم فيكون الفرح مزدوجاً

فصمت ثعلبة برهة كمن يفكر في أمر همه ثم قال ان حالنا الحاضرة يا أبتاه لا تؤذن لنا بالاحتفال كما قدمت فلا ارى ان نستعجل بالاقتران ولا بأس من تأجيله حتى تنقضي الحرب · فعجب والده لجوابه بعد ما آنسه من الحاحه قبلاً ولكنه حمل ذلك منه على رغبته في الحرب فاستحسنه وقال له اراك تفضل الاشتغال بدفع الاعداء على نيل ما طالما كنت تتمناه وهي شهامة غسانية نذكرها لك

وكان الحارث يفضل التأجيل ايضاً ولكنه كان يلح على جبلة رغبة في إرضاء ابنه على انه خاف ان يكون في ذلك ما يسيء جبلة او يكدر العلائق بينهما فقال وماذا نجيب عمك لو اجابنا بالقبول

قال نجيبه اننا في حال حرب لا تؤذن بالاقتران

قال ولكننا كنا في مثل هذه الحال يوم جئته والححت عليه بطلب الفتاة وقد اعتذر اليَّ بحال الحرب فاجبته اننا نود الفراغ من الاقتران

قبل انتشابها فكيف نعود اليه بهذا العذر الا ترى في ذلك ما يحمله على اساءة الظن

قال لا يهمنا ساءه هذا الامر او سره فاننا نريد التأجيل

فعجب الحارث لطيش ابنه وتغافله عن حقيقة العلائق بينه وبين عمه فقال له الا تعلم يا ولدي ان مثل هذه الظنون تسوق الى حرب بيننا وبينه فاذا كنت غافلاً عن ذلك فما انا بغافل وعلى كل فان المسألة دقيقة تحتاج الى دقة نظر وحسن اسلوب

فلبث ثعلبة برهة يفكر وقد انتبه لحرج المقام وكانت الغيرة والانتقام قد غشيا بصره فقال لوالده ولكن حال اليوم غير ما كانت عليه يوم استعجلت جبلة في الاقتران فقد كان الاعداء اذ ذاك في عمان وهم قد اقلعوا الآن من هناك وتحركوا نحو البلقاء فاجعل ذلك سبباً للتأجيل

فرأى الحارث في كلام ثعلبة حسن العذر فعوّل على الالتجاء اليه في مخاطبة جبلة

وفيما هما في ذلك جاءهما رسول من جبلة يستقدم الحارث للمداولة بشأن الحرب

فقال الحارث ها اني ذاهب الى البلقاء لنرى ما تم من رأي جبلة بشأن الحرب واذا خاطبني في أمر هند عمدنا الى التأجيل كما قدمنا فاشتغل انت بتدبير الجند واكتب الى الامراء ان يجمع كل منهم رجاله تحت رايته ويتهيأوا للحرب عند الحاجة واذا رأيت فيهم تقاعداً استحثهم واستنهض هممهم وادفع اليهم ما يحتاجون اليه من المال واستشر في ذلك البطريق

رومانوس فانه قد اوعز اليَّ ان اجمع عشائر غسان التابعين للوائنا ولا بد من انه قد كتب الى جبلة بمثل ذلك ايضاً فكن على استعداد وان تكن حال التامع اولئك الحجازيين لا تستدعي كبير اهتمام

فقال ثعلبة اني عامل على ما تريد ولكنني ارجو ان تتمم ما تكلمنا فيه من تأجيل الاقتران · فوعده بذلك وركب وركبت حوله رجاله حاشيته وسار قاصداً البلقاء

الفصل الخامس والثلاثون

﴿ جبلة والحارث ﴾

تركنا جبلة في حيرة من أمر الاقتران وتأجيله وهو في طريقه من صرح الغدير الى البلقاء فلما وصل البلقاء سمع بتحرك الحجازيين من عمان فقال في نفسه ان هذا عذر يساعدني على ما اريد فان زحف الاعداء الينا عذر كاف للاشتغال به عن كل شاغل · فكتب الى الحارث يستقدمه اليه لان البلقاء اقرب الى عمان من بصرى والح عليه في المجيء وذكر في كتابه انه يريد المداولة معهُ بشأن الحرب توصلاً بذلك الى تأجيل الاقتران فسار الحارث اليه كما تقدم

فلما التقيا سلما واسرعا الى خلوة تداولا فيها سرًّا

فقال جبلة قد دعوتك يا ابن العم للبحث في الوسائل التي يجب اتخاذها لدفع هؤلاء القادمين فقد علمت انهم تحركوا من عمان شمالاً فهم بلا ريب

يقصدون هذه الديار ولا يلبثون ان يأتونا وقد بعثت العيون يراقبون حركاتهم لينبئونا بمعسكرهم فاعدد لهم رجالك وها اني قد اعددت رجالي

فقال الحارث قد شاهدت العشائر في الطريق يستعدون للسير اليكم واوصيت ولدنا ثعلبة ان يكتب الى العشائر الاخرى لتجتمع بجوار بصرى فاذا اجتمعوا وعلمنا معسكر الاعداء حملنا عليهم معاً ولا أظننا نلقى مشقة في دفعهم لقلتهم وفقرهم وقد علمت انهم حفاة الاقدام لا يلبسون الاشملات يتحفون بها كما يفعل سائر اهل الحجاز لا يكاد يتميز اميرهم من صعلوكهم [1]

ويلوح لي انا اذا رأينا منهم ما أتعبنا أرضيناهم بمال ندفعه اليهم ولا نظنهم جاؤوا الا طمعاً بذلك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولة الروم · قال ذلك ليوهم جبلة ان مجيئهم ليس مبنياً على سوء معاملته لحامل كتابهم اليه

فقال جبلة لا نرى ان نعرض عليهم ذلك الا بعد ان نرى منهم مقاومة ولكنني لا اظنهم يقفون امام جندنا يوماً واحداً

ثم تذكر جبلة امر ثعلبة وهند فقال قد ذكرتَ ان ولدنا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو في بصرى الآن

قال نعم هو هناك وقد أسفت لهذه الحال التي ستحول بيننا وبين الاحتفال بزواجه بابنتنا هند

فقال جبلة (وقد سرّ بهذا العذر) بالحقيقة انه موجب للاسف على اني لا ارى مانعاً من تأجيل الاقتران الى ما بعد الحروب فان فرحنا اذ ذاك يكون

(١) المقريزي

مزدوجاً والاثنان ولدانا والامر معقود لهما منذ ولدا

فابتسم الحارث فرحاً لما ناله من تأجيل الاقتران عفواً فقال لجبلة بورك فيك فقد كنت اميل الى ذلك واستحسنه واخشى اذا ذكرته لك ان تظن سوءاً فنشكر الله على توارد رأيينا ولا بد من ان يكون ذلك هو الصواب

فقال جبلة نعم انه الرأي الصواب وسأسير الى صرح الغدير فارى سعدى وأنبئها بما تم عليه الامر لئلا تكون مشتغلة في الاستعداد بعد ان خاطبتها في التعجيل على أثر تعجيلك فلا بد من ابلاغها خبر التأجيل ولا أحب ان يكون ذلك على يد احد سواي (وهو انما يريد المسير بنفسه للمداولة بشأن المهمة التي يريد ارسال حماد فيها)

فقال الحارث افعل ما بدا لك . فقنا الله لما فيه الخير . ثم خرجا وسأل جبلة عمن سار لتفقد حركات الاعداء فقالوا انه جاء فاستقدمه وعاد به والحارث معهما الى مكان منفرد وكان الرسول ممن خالط الحجازيين واحسن تقليدهم فاختاره جبلة ليختلط بهم ويستطلع حالهم فأنبأهما بانهم قاموا من عمان وساروا يريدون مؤتة عند الكرك (١) وانهم سيصلونها قريباً

فقال الحارث أتظنهم يصلون الينا

قال جبلة ربما فعلوا ذلك . ثم تحوّل نحو الرسول فقال له وهل عرفت عددهم وقواتهم قال أظنهم لا يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل وليس معهم من العدة والسلاح الا شيء قليل لا يقاس بعدة رجالنا واسلحتهم

(١) ابن الاثير

فضحك الحارث مستهزئاً وقال أبثلاثة آلاف فارس جاؤا من اقاصي الحجاز ليحاربوا الروم وجنودنا تتجاوز ٠ئة الف (١) ومعها الخيول والسلاح

فقال الرسول وقد علمت انهم ادركوا ضعفهم وقلتهم وربما وقفوا هنية ريثما يأتيهم المدد من الحجاز

فقال الحارث أعلمت انهم بعثوا يستقدمون المدد

قال الرسول كلا ولكنهم تداولوا في ذلك والارجح انهم لا يفعلون فقد سمعت مداولتهم وانا جالس بين جماعة منهم كأني احدهم فقال قائل من بينهم «كيف نهاجم بلاداً لا يقلّ جندها عن مائة مقاتل وقد يبلغ المئتين فلنطلب المدد» فقام رجل من كبارهم اسمه عبدالله بن رواحة فقال لهم «ياقوم والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم له. خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الذي اكرمنا الله تعالى به فانما هي احدى الحسنين اما ظهور واما شهادة» فسمعت الناس يضجون قائلين «صدق والله ابن رواحة» فلا أظنهم بعد ذلك يستمدون اهل الحجاز

فقال جبلة وهل سمعت شيئاً من اهل القرى التي مرُّوا بها فلا بد من انهم تعرَّضوا لهم وقطعوا تجارهم وآذوهم

قال لم أسمع منهم تشكياً ولقد عجبت لحال هؤلاء الحجازيين فانهم على فقرهم وما يظهر من ضنك احوالهم لم يؤذوا احداً من اهل القرى الا الذين اعترضوهم. ولقد بتُّ في دير بين عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان بشأنهم فرأيتهم يثنون على حسن تصرُّفهم فقد مرُّوا بهم ولم يكلفوهم امراً غير ما

(١) السيرة الحلبية

احتاجوا اليه من ماء او علف

فقال الحارث الطاهر انهم يلتمسون ثقة الاهالي حتى لا يكونوا عوناً عليهم في أثناء الحرب

فقال الرسول لا اظن ذلك غرضهم ولكنني سمعت من رجل جالسته بالامس فاتخذني صديقاً وقص عليّ قصصاً كثيرة هو معجب بها عن النبي الذي قاموا بنصرته — ومما قاله لي انه لما خرج لوداعهم خارج يثرب وسلم الالوية اليهم اوصاهم قائلاً « اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا ضيراً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء »[1]

فاعجب الحارث وجبلة بهذه الاقوال ثم قال الاوّل أما وقد اقترب هؤلاء من البلقاء فلنبعث الى دمشق نستعجل الجند الرومي وليكن لقاؤنا اياهم دفعة واحدة نصدهم ونعيدهم من حيث أتوا . فوافقه جبلة على ذلك ولكنه ما فتئ يفكر في هند وحماد وما صدق ان عاد الحارث من عنده حتى ركب قاصداً صرح الغدير لا يصحبه الا فارسان فوصل القصر على غير انتظار فلما علمت سعدى بقدومه انشغل خاطرها ولكنها مالبثت ان علمت بسبب مجيئه فخلا بها واطلعها على ما تمّ بينه وبين الحارث ثم قال وهل انت على ما علمنا من أمر ذلك الشاب أم تمكنت من تحويل هند عن عزمها فرجعت الى صوابها

(۱) السيرة الحلبية

قالت قلت لك قبل الآن ان من يحاول تحويل هند عن حماد فانه يلتمس امرًا مستحيلاً

فتنهد آسفاً لما فرط منه تلك الليلة من القبول بمشورة سمدى بشأن هند وحماد ثم قال فاليَّ بالحيلة التي وعدت بتدبيرها للتخلص من هذه الورطة

الفصل السادس والثلاثون

﴿ قرطا ماريه ﴾

قالت ارى ان نطلب اليه شيئاً صعب المنال يقدمه مهرًا لهند فاذا لم يستطعه كان الجاني على نفسه وكنا براء من لوم هند. وقد كلمتها بهذا الشأن فرأيت فيها ميلاً الى ذلك فهي تحب ان تعلو منزلة حماد في عيون اهلها فاذا اقترحنا عليه عملاً يعمله في سبيل الحصول عليها فانها تزداد افتخارًا به كلما زاد ذلك العمل عظماً وخطرًا

فقال وهل خاطبتها في ماهية ذلك الاقتراح

قالت كلاّ

فقال وهل عينت الاقتراح في ذهنك ام انت تنتظرين البحث في شأنه الآن . قالت اظنني عينته وسأعرضه عليك لعلك تستحسنه والاّ فاننا ننظر في سواه

قال وما هو قولي

قالت لا يخفى عليك ان جدتنا مارية بنت ظالم اخت هند الهنود امرأة حجر آكل المرار الكندي هي جدة ملوك غسان كافة

قال نعم واعلم انها صاحبة القرطين اللذين يضرب المثل بهما

قالت لقد نطقت بالصواب نعم اياها اعني فلا يخفى عليك ان قرطيها اللذين ذكرتهما لم يلبس ملوك الارض مثلهما لان فيهما درّتين كبيضتي حمام لم يرَ الناس مثلهما ولم يدروا ما قيمتهما (١)

قال نعم انهما ثمينتان

قالت اتدري اين قرطاها الآن

فبهت جبلة مدة ثم قال نقل لي والدي عن جدي عمن قبله ان جدتنا مارية اهدت قرطيها الى الكعبة في مكة على سبيل النذر ويظهر انها كانت وثنية ولولا ذلك لم تهد مثل هذه التحف الى الكعبة

فقالت مهما يكن من امرها فان قرطيها لا يزالان في الكعبة (٢)

قال نعم

قالت فارى ان نقترح على حماد الاتيان بهما مهرًا لهند تلبسهما في زفافها فما قولك

فاعجب جبلة بذكاء سعدى وحسن اختبارها ودقة نظرها وتبسم وقد ابرقت اسرته كأنه رأى باب الفرج قد فتح فقال بورك فيك ونعم الرأي رأيك انه اقتراح لا يتأتى لبشر ان يأتي بمثله لانه بعيد المنال واذا فرضنا ان حمادًا استطاعه فانه يكون اهلاً لهند فلا نمنعه منها فهل تظنين هندًا

(١) مجمع الامثال للميداني (٢) ذكر بعض مؤرخي الاسلام في عرض وصفه ملابس جبلة ان في تاجه لؤلؤتي قرطي مارية والظاهر ان ذلك على سبيل التمثيل فقط اي ان يكون في تاج جبلة لؤلؤتان كبيرتان تشبهان لؤلؤتي مارية لأنهم لم يذكروا احدًا استخرجها من الكعبة قبل القرامطة سنة ٣١٦ ه

تواقفنا في ذلك

قالت لا اظنها الاَّ موافقة والاَّ فيكون لنا عذر في رد حماد

قال ها قد تقرر الامر نخاطبيها بشأْنه فاذا قبلت استدعي الشاب ونوبي عني في ابلاغه ذلك فاني في شاغل عن هذه الشؤُون بما نحن فيه من امر الحروب المنتظرة

قالت حسنًا وخرجت

وكانت هند في اثناء ذلك تمشي في الحديقة وقد علمت بمجي والدها وتيقنت انه انما جاء لهذا الشأْن وخصوصًا بعد ان رأَته اختلى بوالدتها فلبثت تخطر في الحديقة وقلبها يخطر في صدرها وافكارها تجول في ماذا عسى ان يقرَّ عليه القرار فلما رأَت والدتها خارجة اسرعة نحوها وهمت بالاستفهام فاومأَت اليها ان تصبر ريثما يعود والدها فانه سيسرع الى البلقاء حالاً

وسارت سعدى الى الخدم فامرتهم باعداد الطعام ثم خرج جبلة الى الحديقة متظاهرًا بالبحث عن هند فلما لاقاها قبلها وسلم عليها وهو يهش لها وعلامات الانبساط بادية على وجهه فتوسمت بذلك خيرًا فمشت معه وهو يسأَلها عن صحتها وحالها ويحادثها بشؤُون مختلفة الاَّ الاقتران فانه لم يذكره قط . اما هي فقد منعها الحياء عن ذكره

فبعد ان تناول جبلة الطعام ودع امرأَته وابنته وعاد الى البلقاء ولم يكد يخرج من الحديقة حتى اسرعت هند الى والدتها تستطلعها الخبر

فاجابتها سعدى وهي تبتسم قائلة أُبشرك ببقاء والدك على عزمه فقد ردَّ الحارث وابنه وقبل بحماد كما قلت لك ولكنهُ يرى وارى انا ايضًا ان نقترح

عليه عملاً يسد ما يتقوله الناس من غموض اصله وفصله · فانه كما لا يخفى عليك بطل باسل لا يرى الواشي سبيلاً الى الطعن فيه الاّ من جهة نسبه فاذا عمل عملاً تفرد هو فيه كان ذلك داعياً الى رفع منزلته وسكوت الناس عن الطعن في اصله

وكانت هند قد سمعت مثل ذلك من والدتها قبلاً فقالت ان ذلك يا اماه مما يوجب لي الفخر ايضاً واعلم ان حماداً لا يتوقف في سبيل هند عن عمل يستطيعه الناس فهل قرّ رأيكما على اقتراح تقترحانهِ عليه

قالت لقد رأيت ان يكون في اقتراحنا ما يزين به رأسك فضلاً عن شرفك

قالت وما هو

قالت رأينا ان نطلب اليه الاتيان بقرطي مارية من الكعبة · واحكت لهـا حكايتها

فبهتت هند برهةوقد هالها ذلك الاقتراح ولكن انفتها منعتها من اكباره قالت لا اظن حماداً الاّ فاعلاً ذلك باذن الله

قالت هلم بنا نستقدمه ونعرض عليه الامر

فلما سمعت باستقدامه رقص قلبهافرحاً بلقياه وقالت استقدميه والاتكال على الله · قالت ذلك وقد شغلها الفرح بقرب مشاهدته عن تقدير تلك المهمة حق قدرها

فنادت الخادم الذي رافق سلمان الى مقر حماد واوعزت اليه ان يستقدمه الى الصرح

الفصل السابع والثلاثون

حماد وآماله

تركا حماداً وسلمان يفكران في عبدالله وهما بين الرجا والقنوط من امره فقضى سلمان اياماً يتردد الى البلقاء وبصرى للبحث عنه فلم يقف له على خبر حتى ترجح لديه اخيراً انه سافر الى الحجاز

واما حماد فكان بين شاغلين عظيمين هند من جهة ووالده من جهة اخرى وكلما رأى قادماً ظنه رسولاً من هند جاء يستقدمه اليها او منبئاً ينبئه بخبر والده

حتى كان اليوم الذي تقرر فيه استقدامه واتفق انه افاق في صباح ذلك اليوم منشرح الصدر واسع الآمال وكان قلما يصبح الاَّ منقبضاً كئيباً لما يتوالى على ذهنه من المخاوف تارة على والده وطوراً على حبيبته حتى أثر ذلك في صحته فرقّ جسمه قليلاً على انه كثيراً ما كان يخرج للصيد او نحوه لترويح النفس ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض

فلما اصبح في ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولبث يتوقع خبراً مفرحاً وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليه سيده من الانشراح والاستبشار ولكنه ما لبث ان رأى فارساً قادماً مسرعاً فعلم من جهة مسيره انه يقصد مضربهم فتفرّسه عن بعد فعلم انه من رجال صرح الغدير فتوسم بقدومه خيراً فخف لملاقاته فلما دنا منه عرفه ورآه يبتسم فعلم انما جاء يبشرى خير . وقبل ان يصل الفارس الى سلمان

ترجل ومشى وزمام الفرس بيده ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعانقا فاستطلعه سلمان الخبر فقال جئت استقدم الامير حماداً الى سيدتي الاميرة سعدى في صرح الغدير لانها تريد مخاطبته في شأن

فقال سلمان وهل تدري ما هو ذلك الشأن. فضحك الخادم وقال لا ادري ولا بد من ان تكون اعلم مني به. واما اهل القصر عندنا فقد لاحظوا من بعض ما سمعوه سرًّا وادركوه ضمنًا ان مولاتنا هند ستخطب وكلنا ننتظر ذلك اليوم فانه سيكون يوماً سعيداً لم يرَ غسان اسعد منه لان مولانا جبلة كريم النفس سيخلع علينا خلعاً فاخرة وينثر علينا الذهب نثراً

فتبسم سلمان وقال هل علمتم من هو خطيبها

قال نعم هو ابن عمها ثعلبة اذ ليس من اولاد عمها من هو اقرب منه اليها وقد طلبها ولكنني علمت من بعض الخدم انها لا تحبه ولا تقبل به

قال سلمان وهل يمكنها رفضه

قال لا ادري والظاهر انها رفضته. وكان الخادم قد سمع بامر حماد ورغبة هند فيه ولكنه تجاهل لئلا يقال انه باح بالسرور ان يكون سلمان البادئ بالخبر. واما سلمان فلم يعد يستطيع صبراً على كتمان هذه الاخبار عن سيده ولكنه اراد معرفة ما دعا الى استقدام حماد فقال وهل سمعت امراً حدث قريباً في القصر

قال لم اسمع شيئاً ولكنني رأيت سيدي الامير جبلة جاء بالامس فمكث عندنا بضع ساعات قضاها في المسارّة هو والاميرة ثم عاد الى البلقاء وفي حال خروجه استقدمتني سيدتي وانفذتني اليكم

فادرك سلمان ان مجيء جبلة لم يكن الا لامر الخطبة وترجح عنده انه رضي بحماد ولولا ذلك لم يكن ثمت داع لاستقدام حماد على أثر رجوعه حالاً . فدخل على سيده وكان متكئاً على أثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سروراً ودلائل الانبساط ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه احد فدخل عليه سلمان وحياهُ وهو يبتسم

فقال له وما وراءك ياسلمان اني اراك مبشراً

قال عساها ان تكون بشرى خيراً يا سيدي

قال وما ذلك

قال ان اهل صرح الغدير بعثوا يستقدمونك اليهم فهل تذهب ام انت في شاغل الآن . قال ذلك وهو يضحك

فجلس حماد وهو يظنه مازحاً وقال لا ابالي دعاني اهل الصرح ام لا فاني اراني سعيداً منذ فتحتُ عينيَّ في هذا الصباح

. قال وما يضرك ان تتم سعادتك فان انشراح صدرك ان هو الاَّ فاتحة السعادة وهذا خادم القصر قد جاءنا فهل ادخله عليك لينبئك بمهمته

فقال ليدخل

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر فحيا الامير وانبأَه بمهمته فقال حماد هل فارقتهم جميعاً في خير

قال فارقتهم يدعون لسيدي الامير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريباً ليتم سرورهم برؤيته . فاستبشر حماد بما وراء ذلك وقال اهدهم سلامي وقل انا سنصبحهم غداً ان شاء الله

فقبل الخادم يده وخرج فخرج سلمان لوداعه ودفع اليه عشرة دنانير وقال هذا ثمن عليق الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك فسرّ الخادم بالهدية و بالوعد وودّ ان تتم خطبة هند لحماد لما ظهر من سخائه و رقة جانبه خلافاً لثعلبة فانه لم يكن احد من اهل الصرح يحبه لعجرفته و بخله

فلما سار الخادم عاد سلمان الى حماد فرآه مطرقاً يفكر

فقال ما بال سيدي يفكر العله بغت لتلك الدعوة على غير انتظار

قال كلاّ ياسلمان فقد كنت اتوقع خبرًا مفرحاً منذ الصباح ولكنني افكر في والدي ومكانه فانه طالما تمنى ان يزوجني ويفرح بي وقد كان يجب ان يسير هو معنا في هذه المهمة ولكن من ينبئنا بمكانه

فقال سلمان دع عنك الهواجس يا مولاي فقد تقرر في ذهني ان سيدي سار الى الحجاز ومتى فرغنا من مهمتنا هذه اذهب اليه بنفسي ولا ازال ابحث عنه حتى آتي به باذن الله فلنستعد الآن للذهاب الى صرح الغدير

قال ارى ان نبرح هذا المكان قبل الفجر حتى نصبح في الصرح كما قلنا للخادم · قال حسناً واخذ في الاستعداد وحماد كلما تصور ملاقاته هنداً خفق قلبه وهاله الموقف وتذكر اجتماعه بها في دير بحيراء · ولكن سروره لم يكن تاماً مخافة ان لا تكون دعوته على ما يؤمله من الفوز بما يتمناه ولكن الامل غلب عليه فتصور انه انما دعي لاتمام عقد الخطبة فقضى بقية ذلك اليوم في مثل هذه الافكار

الفصل الثامن والثلاثون

﴿ ساعة اللقـــاء ﴾

أما هند فلما عاد الرسول وأنبأها بمجي حماد في صباح الغد خفق قلبها ولبثت تعد الساعات والدقائق فقضت ذلك اليوم ولم تنم من شدة الفرح فلما اصبحت سارت الى والدتها وسألتها عن المكان الذي سيجتمعون فيه فقالت قد امرت الخدم ان يعدوا غرفة الضيافة ولا يدخلوا اليها احداً في هذا اليوم وان يذبحوا الذبائح ويمدوا الاسمطة فلبست هند ثوباً سماوياً جميلاً خاطته لها احدى خياطات دمشق وكانت خبأته لمثل ذلك اليوم ومشطت شعرها وضفرته وجعلت تتشاغل ببعض المهام اخفاء لما ثار في قلبها من الفواعل المتضاربة بين الفرح بلقيا حبيبها وهول موقفها ساعة اللقاء وخوفها عليه مما اعدوه له من امر الكعبة

وكانت سعدى قد انفذت جماعة من أهل القصر لاستقبال القادمين قبل وصولهم فلما كان الضحى ودنا الوقت جعلت هند تطل من النوافذ تنظر الى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها الآكام والغياض وكلما رأت غباراً او آنست اشباحاً ظنت حماداً قادماً فيخفق قلبها وتتورد وجنتاها حتى كانت الظهيرة فاذا بالغبار يتصاعد من بعض جوانب الافق ثم بان من تحته فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس عرفت انه من أهل القصر وانه تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم فازداد خفقان قلبها ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملثماً بالكوفية فانكرته في بادىء

الرأي لركوبه فرساً غير فرسه · ثم غلب عليها الضعف النسائي فاصطكت ركبتاها واستعظمت ساعة اللقاء فتحولت عن النافذة ولكنها ما انفكت تنظر اليه خلسة حتى دنا من القصر وكانت والدتها واقفة الى جانبها وقد لحظت ما هي فيه من الهيام فقالت لها امكثي هنا ريثما استقدمك الى دار الضيافة

وخرجت الى الحديقة وقد ترجل الفرسان وتركوا خيولهم في عهدة الخدم ودخلوا الحديقة وفي جملتهم حماد وكان ملتفاً بعباءته وقد حول اذيال كوفيته عن وجهه وارسلها الى كتفيه فبانت ملامح محياه · وتقدم وسلمان الى جانبه حتى دنوا من سعدى فتقدم سلمان اليها واخبره انها هي الاميرة سعدى امرأة الملك جبلة فعلم انها والدة هند فسلم عليها وهو يتوقع ان يرى هنداً فلم يرها فعلم ان الحياء منعها من القدوم للقاء وانها لاتلبث ان تأتي

فاستقبلتهما سعدى وسارت بهما الى غرفة الضيافة فجلسوا والخدم وقوف بين ايديهم فقالت سعدى هل يأذن الامير بماء ليغتسل ويبدل ثياب السفر قبل تناول الطعام · فأجاب وغسل يديه ووجهه وجاءه سلمان برداء حريري وكوفية فلبسها وجلس وعيناه شائعتان نحو الباب وكلما سمع وقع اقدام او رأى شبحاً ظنه هنداً قادمة

أما سلمان فانه ترك سعدى وحماداً في الغرفة وخرج يبحث عن هند وكان قد عرف غرفتها في مجيئه اليهم قبلاً كما علمت فاذا هي واقفة هناك تتلاهى بالاساور تديرها حول معصمها وافكارها تائهة وقد علت وجهها امارات البغتة فلما رآها تظاهر بالسعال ليستلفت انتباهها وقد كانت لعظم تأثرها لا تمرُّ نسمة الاَّ سمعت لها صوتاً فكيف بسعال سلمان فانه ذعرها فالتفتت

اليه فرأته يبتسم فابتسمت ولكنها شعرت بقشعريرة خفيفة ثم مشت وهي تحاول اخفاء ما بها فتقدم نحوها وهو يحاذر ان يدخل الغرفة لئلا يكون دخوله مخالفاً لمقتضيات العادة فمشت هي نحوه وسلمت عليه

فقال هل رضيتْ مولاتي عن راهب الدير جامع النذور

فتبسمت ولم تجب

فقال ها قد جئتك باللص الذي سرق الدرع فهل تريدين مقاصته ولكنني ارجو ان لا تحكمي عليه بالسجن

فتذكرت زيارته اياها بثياب الرهبان فضحكت ولكنها ما زالت تنظر الى معصمها وتتلاهى باساورها

فدنا منها وقال ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي ألعلي اذنبت لاني تركت صاحب الدرع (او لصه كما تزعمين) وجئت وحدي . فهل استدعيه اليك

فلم تجب ولكنه كان يقرأ ايآت السرور على وجهها

فقال اراك تتظاهرين بان مجيئه لا يهمك، ولكنني اقرأ على وجهك عبارة يكاد ينطق بها لسانك فقد فهمت مرادك بدون ان تتكلمي اني ذاهب لادعو الرجل اليك . فرفعت نظرها اليه كأنها تلومه على هذه المداعبة . اما هو فتحول عنها ضاحكاً حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحماداً جالسين وليس هناك سواهما فدنا من [illegible] وقال وهو يتظاهر بالمزاح . مابالي ارى هذه الغرفة قليلة النور كأنها بعيدة عن موقع اشعة الشمس

فقالت سعدى لا ترى ا[illegible] [illegible] هذه [illegible]

قال وهو يضحك لا ارى نوراً قط ويظهر لي ان شمسكم تشرق من الجنوب (واشار الى غرفة هند) فادركت سعدى مراده فتبسمت واطرق حماد خجلاً ولكنه ودّ ان يلح سلمان باستقدام هند

فقال سلمان اراكم تضحكون من كلامي واراني اعلم منكم بشرق شمس قصركم . ألا اذنت مولاتي بقدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان الينا ... فاني ارى الاسمطة قد مدت وكأني بكم تتهيأون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء سيدتي هند فانها محور انسنا ولا أظنك تنكرين علينا ذلك

فقالت سعدى . أراك لجوجاً يا سلمان ولا مأرب لك في الامر

فضحك سلمان وقال لا مأرب لي صدقتِ لا مأرب لي ولكنني اعبر عن عواطف اناس آخرين واشار بطرف عينيه الى حماد فتبسم حماد وقد توردت وجنتاه ونظر الى سلمان نظرة التوبيخ

فالتفت اليه سلمان وقال يظهر انك لا تريد مقابلة فتاة غسان فاذا كان هذا هو مرادك (استغفر الله) فما كان اغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجرنا الحيرة والعراق

فنظرت سعدى الى سلمان والرزانة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت لم ندعُ ولدنا حماداً الاّ ليرى هنداً وتراه فانهما ولدانا ولا نجهل انهما يسرّان بالمقابلة فلا تكن عجولاً ان هنداً لا تلبث ان تأتي وتتناول الطعام معنا

ثم وقفت وقالت وها اني ذاهبة لاستقدامها . وخرجت

فلما خرجت التفت حماد الى سلمان واراد معاتبته لما ابداه من الجرأة في

خطاب الاميرة سعدى

فقال ولولا ذلك لطال زمن الوحدة ألعلنا جئنا لنأكل و نشرب

ثم عاد حماد الى الافتكار في هند وقرب مجيئها وما سيكون من امرها ساعة اللقاء فما لبث ان سمع وقع اقدام علم من إزدواجها ان سعدى وهنداً قادمتان فتحفز للقيام أما سلمان فوقف في الباب فرآهما قادمتين فتبسم ونظر الى حماد

ثم وصلتا الى باب الغرفة فدخلت سعدى وهند تتبعها مطرقة

فوقف حماد ومشى لاستقبالها وهو مطرق ايضاً ولكنه لم يتجرأ على مصافحتها ولا هي فعلت ولكن قلباهما كانا ولا ريب يختلجان فرحاً وكل منهما يتظاهر بالتجلد . فتشاغل هو باصلاح ردائه وارسال كوفيته الى كتفه وتلاهت هي باصلاح قرطها في اذنها ولا تسل عن تورد وجنتيها واصطكاك ركبتيها واختلاج قلبها . وحالما دخلت اشارت اليها والدتها ان تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست وجلس الجميع ولبثوا برهة لا يتكلمون وحماد ينظر الى هند محاذراً فرآها قد تغير حالها عما كانت عليه يوم دير بحيراء فذبل ورد وجنتيها وخف عضلها ولكنه راى ذلك قد زادها جمالاً وهيبة وكانت هي تختلس النظر اليه ولا تكاد تصدق ان والدها رضي لها به ثم يعترضها امر قرطي ماريا فتوجس خيفة

ففتحت سعدى الكلام قائلة وماذا تم من امر والدك هل التقيتم به ام عرفتم مقره

فقال حماد كلا يا مولاتي فقد شغل بالنا تأخره ولم ندع مكاناً لم نسأل فيه عنه والفضل في هذا السعي كله لهذا الرفيق (واشار الى سلمان) فانه لم يأل

جهداً في البحث والاستطلاع فلم نقف على خبر يقين

فقال سلمان ولكني ارجح ذهابه الى الحجاز لما سمعت من حكاية صاحب الخان — واخذ يقص عليهم ما سمعه من الخاناتي في بيت المقدس وما كان من امر ابي سفيان وجواد حماد الخ

فاستفهمته عن حكاية الاسد فقص عليهم ما لقوه في مسبعة الزرقاء وكانت هند في اثناء الحديث ناخصة حتى سمعت ما لاقياه عند تلك الشجرة من غائلة الاسد وما كانا فيه من الخطر فتلألأت الدموع في عينيها فلما راى حماد منها ذلك اوشك ان يبكي لفرط ما آنس من رقة عواطفها. ثم اتم سلمان حكايته حتى انتهى الى آخرها والجميع مصغون لا يفوه احدهم بكلمة

فلما فرغ من كلامه قالت سعدى يؤْخذ من مجمل ما سمعناه ان والدكم سافر الى الحجاز مع ابي سفيان ولو كان باقياً في البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد ان نال العفو من القيصر. ثم تبسمت وسكتت كأَن في نفسها شيئاً تكتمه فبقي الجميع صامتين لعلها تقول شيئاً وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم وسأَل الاميرة سعدى اذا كانت تأْذن بمد السماط لان وقت الغداء قد ازف فقالت هاتوا الطعام والتفتت الى حماد قائلة هلم بنا الى الغداء وسنتم حديثنا بعده

فمدت الاسمطة وحملت الذبائح وجلسوا على المائدة وحماد يفكر في ماذا عسى ان يكون وراء تبسم سعدى

فلما فرغوا من الطعام عادوا الى الاستراحة وجلسوا ينتظرون حديث سعدى الاَّ هنداً فانها لم تكون معهم لان والدتها اشارت اليها ان تتخلف هنيئة ريثما يتحادثون في شأنها

فلما استتب بهم الجلوس قالت سعدى اظنكم تنتظرون مني كلاماً ظهر لكم من تبسمي الآن اني اكتمه

فقال حماد هو ذاك يا مولاتي فاتحفينا به

قالت تبسمت لما اتفق من ذهاب والدكم الى الحجاز وما نحن عازمون ان نعرضه عليكم مما يأول الى اجتماعكم به هناك

فعجب حماد لكلامها ولم يفقه مرادها فقال وماذا عسى ان يكون اقتراحكم

قالت لا يخفى على ولدنا حماد ان ما عرفناه من شهامته وكرم اخلاقه يكفي لاقناعنا باستحقاقه هنداً وانه جدير بالحصول عليها دون ابن عمها ٠ ولكننا معاشر العرب نحافظ على الانساب ونحترم القرابة ولا يخلو ان يكون قد بلغكم ان الحارث بن ابي شمر قد طلب هنداً لابنه ثعلبة وهو ابن عمها واولى الناس بها ولكننا اثرنا البقاء على ما ارادته هند ورضينا بحماد لما آنسنا فيه من كرم الاخلاق وعلو الهمة وعدلنا عن ثعلبة على كونه ابن عمها

فخجل حماد لهذا الاطناب واختلج قلبه فرحاً لما توسمه من رجوع الامر اليه وتحقق امانيه فاطرق صامتاً

فقالت سعدى ولكن والدها رأى رأياً اذا وافق عليه حماد كان فيه دفع لتقول الناس وعتاب الاقارب وفخر لنا جميعاً

قال حماد مري يا مولاتي اني رهين اشارتك

قالت رأينا ان تعمل عملا نقترحه عليك لا يعظم على باسل نظيرك فاذا فعلته قطعت السنة المعترضين وزدتنا اعجاباً وفخراً

فثارت الحمية في نفس حماد فقال قولي يا سيدتي اني فاعل ما تقولين

ولا يثقل على امر ترضى به هند

قالت نقترح عليك ان تلبس هنداً يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام

فقال الملك تعنين قرطي مارية

قالت اياها اعني وهل تدري مكانها

قال سمعت ان ماريا جدتكم اهدتهما الى الكعبة منذ اجيال فهل هما باقيان هناك حتى الآن

قالت اظنهما لا يزالان هناك وفي استخراجهما من جوف الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفاً على سيده لعلمه ان الكعبة امنع من عقاب الجو وقد يستحيل الوصول اليها فقال هل تأذن سيدتي بكلمة اقولها

قالت تفضل

فقال هل تريدين ان نلبس مولاتي هنداً قرطي مارية عينهما او قرطين آخرين مثلهما

قالت لا نلتمس شيئاً يقدر بالمال يا سلمان فاننا من نعم الله في سعة وبسطة عيش ولكننا نريد ان نفاخر اعمامنا باننا لم نرض لهند الا رجلاً استخرج قرطي مارية جوف الكعبة وهذا ما اضحكني لما سمعت حكاية الامير عبد الله وذهابه الى الحجاز فقلت في نفسي ان الله قد اذن بذهاب حماد ليلتقي بابيه هناك لان مقام ابي سفيان في مكة حيث الكعبة ايضاً

فالتفت حماد الى سعدى وملامح البسالة تتجلى في وجهه وقال لقد

طلبت امرًا يحقر كثيرًا في سبيل مرضاة هند ولسوف ترين منا فوق ذلك باذن الله واما سلمان فانه استعظم الطلب ولكنه لبث صامتًا احترامًا لمقال سيده

اما هند فانها كانت جالسة في غرفتها وهي تعلم بما سنقوله والدتها فلما تصورت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة والديها في ذلك وادركت انها انما دبرت حيلة للتخلص منه فعظم الامر عليها حتى بكت

وفيما هي في ذلك دخلت الخادمة تدعوها الى والدتها فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها فلما دخلت الغرفة ورآها حماد على تلك الحال اثر منظرها في نفسه وهاجت فيه حمية الرجال وقد ادرك انها انما تبكي جزعًا عليه فقال لها لا تجزعي يا هند انك ستلبسين قرطي مارية وتفاخرين بهما اهل الخافقين

فصمتت هند ولم تجب ولكن كلام حماد اثار فيها ساكن الغرام وهاج عواطفها فازدادت اعجابًا بشهامته وحبه على ان خوفها عليه اعترض مجرى عواطفها فهبت الحرارة في جسمها كأنك كشفت الغطاء عن نار متقدة في فؤادها فانبعث لهيبها الى سائر اطراف البدن وتلألأت الدموع في عينيها فاطرقت وجعلت تتلاهى بتثنية اطراف اكمامها مخافة ان يظهر اضطرابها لحماد

اما هو فلم يفته حديث قلبها ولا غفل عما تضارب في ذهنها من العوامل ولكنه اراد تشجيعها فالتفت الى والدتها وقال طالما شاقني المسير الى الكعبة لمشاهدة ما اسمعه عنها من حج الناس اليها من اقطار العالم وكثيرًا ما سمعت

حديث والدي عن الاصنام القائمة فيها وما يقدمه العرب من الضحايا . وقد قرأت في بعض الكتب انها قديمة البناء جدًا وانها كانت حجاً يأمه الناس من اطراف الارض وقد بنيت في بادىء الرأي لعبادة الله ثم جعلها بعض العرب مجمعاً لاوثان حملوها اليها من انحاء شتى من العالم الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوه اليها من هذه البلاد (البلقاء) اسمه هبل وكان قبل ان حملوه اليها من البلقاء يسمى (هبعل) وهو لفظ عبراني معناه البعل اي الاله [1] يشبهه في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لفظ (بَل) وقد حملوا اليها اصناماً اخرى من مصر واشور وغيرها فاجتمعت فيها مئات منها فاصبح ذلك البيت مجمعاً للاصنام

فانتبه سلمان وكان تائهاً في بحار الهواجس خوفاً على سيده فلما وصل حماد الى حكايات اصنام الكعبة قال سلمان نعم ان الاصنام كثيرة في الكعبة ولكن كثيرين من عقلاء قريش لا يحترمونها وقد سمعت كبيرًا منهم يخاطب سيدي الامير عبدالله في بعض سفراتنا الى مكة بشأن تلك الاصنام فأكد له ان جماعة كبيرة من عقلاء مكة وهم من قريش انما يزورون الكعبة لعبادة الله وان الاعتقاد بالله قد اتصل اليهم بالتلقين من سيدنا ابراهيم ولكن بعضهم ضلّ عن سواء السبيل بما زين لهم من عبادة الاوثان [2]

فقالت سعدى ووجهت خطابها الى حماد يظهر ان والدكم الامير قد سافر الى الحجاز قبل الان

قال نعم يا مولاتي انه نزلها مرارًا ولذلك ظننا انه سار اليها هذه المرة ايضاً

(۱) اديان العرب قبل الاسلام في السنة الخامسة من الهلال (۲) تاريخ الاسلام

فقالت ان ذلك مما يؤكد ذهابه اليها الآن فعسى ان تلتقوا به هناك

قال اني ارجو ذلك واتمناه لتتم به سعادتي · ثم فكر قليلاً وقال متى تظنين يا مولاتي اننا نبرح البلقاء

قالت متى شئتم وخير البر عاجله

قال ارى ان نودع سيدي الملك جبلة قبل السفر فنلتمس دعاءه بالتوفيق

قالت ذلك راجع اليك اما هو فقد فوض الينا ان نبلغك رضاءه وما تم عليه الاتفاق فاذا شئت مقابلته فلا شك انه يسر بلقياك

كل ذلك وهند مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لو لم يشغلها حديث الكعبة

فلما تحول الحديث الى والدها استحسنت رأي حماد في زيارته على امل ان يتحول عزم والدها عن اقتراحه · فقالت تفعل حسناً بزيارة والدي قبل سفرك

فازداد حماد رغبة في ذلك فقال غداً نصابح مجلس الملك ان شاء الله فنسلم عليه ونودعه · هل تعرف الطريق الى البلقاء يا سلمان

فقالت سعدى سنرسل رجالاً يسيرون في ركابكم اليها

اما سلمان فما انفك منقبض النفس من امر هذه المهمة لعلمه انها شديدة الخطر جداً ولكنه سلم امره الى الله

وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير ولكن هنداً لم تهنأ بذلك الاجتماع لخوفها من الفراق العاجل وقرب الخطر الشديد على انها شغلت بحديث حبيبها ولهت برؤيته عن كل المخاوف فلم يكن يوم اسعد عليها من ذلك اليوم وودت لو انه يوم يشوع ابن نون خوفاً من انقضائه ولا تسل عن حماد وسروره

وقد سهل عليه المسير الى الكعبة امله بلقاء والده هناك

الفصل التاسع والثلاثون

الوداع

وفي صباح اليوم التالي اصبحت هند كئيبة حزينة واحست بلهفة وجزع لم تشعر بهما قبلاً فكانت كلما نظرت الى حماد خيل لها ان احداً يحاول اختطافه من بين ذراعيها فيضطرب قلبها وتسود الدنيا في عينيها فحدثتها نفسها لاول وهلة ان يتواطأا على رفض امر القرطين ولكن الانفة وعزة النفس اعترضتاها فصبرت نفسها متعللة بالآمال

فلما اشرقت الشمس كانت الخيول قد اعدت لركوب حماد وسلمان الى البلقاء مع بعض الفرسان من اهل القصر فنهض حماد لوداع هند ووالدتها وكانتا تنتظرانه في غرفة الضيافة فدخل وهو في لباس السفر فوقفت له هند وركبتاها ترتجفان فمد يده اليها فمدت يدها فامسكها فاحسّ بها باردة كالثلج ونظر الى وجهها فاذا به قد امتقع لونه فلما خاطبها خطاب الوداع تناثر الدمع من عينيها بغتة وجذبت يدها من بين انامله بلطف واطرقت ولم تجب فعلم انها انما فعلت ذلك خوفاً عليه من هذا السفر الخطر

فالتفت اليها مبتسماً وقال ما بالي ارى هنداً خائفة وعهدي بها تنافس اشجع الرجال وتسابق افرس الفرسان

فنظرت اليه بطرف عينيها وتنهدت تنهداً عميقاً ولبثت صامتة ولسان

حالما يقول « ان مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الاحباب شيء آخر »
فادرك حماد مرادها ولكنه خاف اذا طال وقوفه ان يخرجه الغرام عما يليق به في ذلك الموقف فتحوّل لوداع سعدى ثم عاد الى هند فودعها وتبسم لها فتبسمت مجاراة له ولكن قلبها لم يفرح فقال لها ادعي لنا بسلامة العود فاذا عدنا كما اردنا كان حماد اهل لهند فلا تخشى هي ان تذكره ولا تخجل اذا ذكره سواها واما اذا لم .....

فقطعت هند كلامه على عجل وقالت وهي تتلجلج بكلامها لا تقل (اذا) فانك ستعود الينا سالمًا باذن الله ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي تحاول اخفاء عواطفها امام والدتها !

أما سعدى فرأت من الحكمة ان لا تطيل الوقوف على هذه الصورة فقالت سر يا والدي بحراسة الله وهو ينيلك بغيتك على اهون سبيل فتعود الينا سالمًا وقد التقيت بوالدك

فأثنى على لطفها وودعها وقبل يدها وخرج الى الحديقة وكان سلمان في انتظاره هناك وقد هيأ الموكب فلما خرج مولاه وسعدى وهند تتبعانه تقدم اليهما وودعهما وهو على غير ما آنساه منه صباح الامس من انبساط النفس والمجون ولكنه تظاهر بالامتنان والانبساط واركب حمادًا ثم ركب هو وسائر الموكب وخرجوا قاصدين البلقاء وهند وسعدى واقفتان تنظران اليهم اما هند فلم يكد حماد يدير عنان جواده حتى غلب عليها اليأس وشعرت بما دبره والداها فتحولت الى غرفتها واخذت في البكاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حماد فتبعتها والدتها وهي تخفف عنها وتصبرها بالوعود

فقالت دعيني يا اماه ها قد نفذ السهم وقضي الامر ان حماداً قد سار الى مكان لا نرجو عوده منه وقد كان الاجدر بكم ان ترفضوا طلبه بدلاً من ارساله في هذه المهمة

قالت ذلك وهي تبكي

فقالت سعدى خلي عنك الاوهام ان حماداً شجاع باسل وخادمه سلمان خبير بكل شيء فلا يعسر عليهما العود بالقرطين وفي ذلك فخر لك ولنا ومنجاة من اثقال ثعلبة وابيه على الاقل

فلما سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيه فهان عليها مايقاسيه حماد في سبيل انقاذها منه فسكتت والهواجس تتقاذفها

أما حماد فما زال حتى اتى البلقاء وسلمان صامت لا يفوه بكلمة وكان حماد يبالغ في اظهار ارتياحه الى تلك السفرة وآماله في عواقبها

وكانت البشائر قد سبقتهما الى جبلة تنبئه بمجيء حماد والناس يحسبونه اميراً جاء لغرض يتعلق بالحرب لان الروم كانوا قد خابروا كل القبائل المجاورة يلتمسون نجدتهم في حرب الحجازيين

أما جبلة فعلم انه جاء لامر يتعلق بخطبته فاذن بدخوله عليه في خلوة فلما التقيا همّ حماد بتقبيل يدي جبلة فانحنى جبلة لتقبيله ثم جلس وجبلة يرحب به فقال حماد قد جئت يا عماه اشكرك على ما تكرمت به عليّ من الرضا والتمس دعاءك في ذهابي الى مكة فاني شاخص اليها على عجل

فقال جبلة رافقتك السلامة في المسير والاقامة وجعل الله مسيرك سعيداً ولا حرمك مما تريد ولكنني اوصيك يا ولدي ان تبقي مادار بشأن

هيد مكتوماً حتى تعود لئلا يسبب لنا ذلك مشقة وربما حال دون ما نحن ساعون فيه

فادرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال معي خادم بل هو رفيق يود تقبيل يديك قبل السفر لانه سيرافقني ويكون عوناً لي فهل يأذن مولاي بمثوله بين يديه

قال ليدخل

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معه فتقدم سلمان الى جبلة وقبل يده ولبثوا هنيهة يتحدثون في ما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد وتحبيب الامر اليه . ثم نهض حماد وسلمان وودعا جبلة وخرجا يريدان خيمتهما عند الشيخ النبطي وكل منهما في هاجس

أما سلمان فلم يكن راضياً بما رآه وسمعه ولكنه رأى حماداً راضياً به مصمماً على تنفيذه فلم يشأ تثبيط عزائمه وعوّل في باطن سره على ان يبذل جهده في مساعدته الى آخر نسمة من حياته

الفصل الاربعون

﴿ السفر الى الحجاز ﴾

فوصلا الخيمة في المساء وكان النبطي قد استبطأهما لغيابهما يومين كاملين فلما عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في امر السفر والاستعداد له والعمدة في ذلك على سلمان فابتاع جملين لحمل الماء والثياب والزاد وسألا

الشيخ النبطي عن رجل خبير بالطرق يرافقهما الى مكة باجرة ترضيه فسألهما عن سبب السفر فانتحلا سبباً اسكته

فقال اما الدليل فاني ادلكما على رجل من اهل يثرب وهي المدينة التي جاء منها الحجازيون الذين قلت لكم انهم سيخرجون هذه البلاد من ايدي بني غسان وقد جاءني امس بمهمة من بعض امراء ذلك الجيش فدللته على بعض الاماكن التي يمكنهم الحصول فيها على زاد لهم وسمعته يقول انه لا يلبث ان يعود الى بلده فاذا رافقتما اليها كان لكم به خير رفيق ومتى وصلتم يثرب هان عليكم الوصول منها الى مكة

فقال سلمان والظاهر ان صاحبك هذا من اتباع صاحب الدعوة الاسلامية بالمدينة

فقال نعم هو مسلم وقد جاء في جملة المسلمين الى عمان وسيعود بمهمة خصوصية فهل استقدمه اليكم

قال سلمان استقدمه

فخرج من الخيمة ونادى « ابا سعيد » فسمعوا صوتاً يقول « لبيك يا اخا العرب »

فقال النبطي هلم اليّ

فجاء بدوي طويل القامة عريض الاكتاف خفيف اللحية يظهر من ملامح وجهه انه في الاربعين من العمر عاري الرأس والقدمين ملتحف شملة من نسيج ابيض تغطي بدنه فيلف بعضها حول عنقه ويترك منها زائدة ينشرها على رأسه اذا شتد عليه الحر وفي يده رمح ونبلة

فلما رآه سلمان عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه انه حجازي من اهل المدينة فلما وصل ابو سعيد الى حماد بهره ما عليه من اللباس الفاخر من الخز والديباج والحرير فعلم انه امير ولكنه ظنه من امراء غسان فلم يهش له فابتدره النبطي قائلاً

ان الامير ليس من غسان كما قد يخال لك بل هو من العراق فلا تنقبض نفسك لرؤيته

فقال ابو سعيد لا بأس من ان يكون غسانياً فاننا تجاورنا في منزلك فنحن الآن اخوة

فقال حماد بورك فيك يا اخا العرب ممن انت

قال من اهل يثرب

قال سلمان ان اهل يثرب اكثرهم من اليهود

قال نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الآن

قال نعم جئتها منذ عشر سنوات

قال لقد تغيرت حالها عما كانت عليه في ذلك الحين باشراق نور الاسلام

فقال سلمان العل نبي الاسلام منكم ام من قريش في مكة

قال لا ليس منا ولكننا قمنا بنصرته وفتحنا له صدورنا ومنازلنا فهو يقيم في مدينتنا وقد سمانا الانصار

قال سلمان اذن انت سائر الى المدينة

قال نعم والى اين انتم ذاهبون

قال الى مكة فهل ترافقنا اليها

قال الرجل يا حبذا لو كان ذلك في الامكان

فقال سلمان وهل يمنعك من ذلك بعد المسافة ام انت سائر في مهمة على عجل

قال نعم اني سائر في مهمة على عجل ولكن ذلك لا يمنعني من المسير الى مكة لو لم يكن اعداؤنا لنا فيها بالمرصاد

فقال سلمان وأي الاعداء تعني

قال اعني بني قريش اعمام نبينا فانهم لا يزالون يتوقعون فرصة للفتك به وهو انما جاء المدينة مهاجرًا فنصرناه كما قدمت وقد تبعه اليها نفر من ذوي قرباه • اما الباقون فلا يزالون في مكة وقد تحالفوا على عدوانه وفي مقدمتهم ابو سفيان الامير التاجر الشهير

فقال سلمان في نفسه ان تلك مشكلة لم تكن في حسباننا وتصور ان في الطريق بين المدينة ومكة خطرًا لما بين اهل البلدين من العداوة فنظر الى المدني وقال هب اننا تركناك في المدينة فهل في طريقنا الى مكة من خطر

قال لاخطر عليكم اذا سرتم في طريق معروف ولو كنتم من دعاة الاسلام مثلنا لكان في مسيركم خطر ولكنكم غرباء سائرون في سبيلكم ولعل الافضل ان تسيروا في قافلة لانكم تكونون في كثرة فلا خوف عليكم من طارق باذن الله • قال ذلك وصمت واطرق كأنه يفكر في امر طرق ذهنه بغتة

فنظر سلمان الى حماد يستطلع رأيه بعد ما سمعاه من ذلك اليثربي فقال حماد ارى ان نرافق الرجل الى المدينة ثم ننظر ما يكون من امرنا • ثم التفتا الى الرجل فاذا هو مطرق ينكث الارض بابهام رجله فابتدره سلمان قائلا ما بال اخي قريش مطرقًا يفكر العل رأيًا جديدًا فتح عليه به

قال لم يخطر لي رأي جديد ولكنني تذكرت امراً اذا بال اظنه يهمكم ايضاً

فتطاول سلمان بعنقه وقال وما ذلك

قال تذكرت حديثاً سمعته من معسكرنا في عمان فاذا صح مسيرنا الى مكة قريباً فتدخلونها آمنين مطمئنين

فلم يدرك سلمان كنه كلامه فقال وماذا تعني بمسيركم الى مكة

قال اعني ان نبينا (صلعم) سيحمل على مكة برجاله فيفتحها ويكسر اصنامها فتصير في حيازتنا فاذا دخلتموها كنتم آمنين

فقال وهل انت موقن بهذا الخبر وهل المسير اليها قريب

قال اني واثق بصدق الرواية ولكنني لم اتحقق الزمن الذي ينوي فيه المسير وعلى كل فاننا متى وصلنا المدينة علمنا حقيقة الحال فهلمّ الى الاستعداد قال ذلك وتركهما وذهب

فنظر سلمان الى حماد وقال له لم يسرني الخبر كثيراً لان وصولنا الى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون اسهل علينا قبل ذلك الفتح

فقال حماد لا ارى رأيك في ذلك اذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل اسهل وطريق اقرب وسنرى ما يأتي به الغد فعليك الآن باعداد حاجيات السفر من الجمال والمياه والزاد ونحوها

فقال سلمان ارى ان نركب خيلنا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد على ان يكونا ذخراً لنا في حال الاضطرار الى الركوب لان الجمال اصبر على العطش من الخيل قال ذلك واخذ في الاستعداد

وفي صباح اليوم التالي استحضروا جملين وخادمين وحملوا احمالهم مما

خف وغلا وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عند الشيخ النبطي وساروا يطلبون الحجاز

ولما تبطنوا الصحراء وبعدوا عن البلقاء احس حماد بالوحشة وتمثل له خطر المسير وتحقق كلام سلمان ولكنه تجلد والقى اتكاله على الله

وبعد مسيره ايام اشرفوا على جبال المدينة فقال اليثربي ها نحن على مقربة من يثرب ولا نلبث ان نشرف عليها

فقال سلمان اني اعرف المدينة وطرقها فقد نزلتها منذ اعوام

فقال اليثربي لا تلبث ان تشرف عليها فترى فيها تغييراً طرأ عليها بعد نزول النبي فيها فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر اليها من اصحاب الرسول وغيرهم

وبعد هنيئة اشرفوا على المدينة فاذا هي في منبسط من الارض تحدق بها البساتين والغياض. فقال اليثربي هذه يثرب فهل تنزلان فيها ريثما تصطحبان من يرافقكما الى مكة او تريان رأياً آخر

قال حماد اني افضل النزول هنا مدة لاشاهد المدينة واهلها وارى صاحبكم واصحابه بعد ما ملأت اذني من احاديث حروبه واوصافه

فانحدروا حتى ساروا على مقربة من السور لا يستفشهم احد ممن رآهم لان بينهم احد الانصار وقد ظن كثيرون انهم انما جاؤوا يلتمسون الاسلام لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل في تلك الايام واكثرهم كانوا يجيئون رغبة في الاسلام

فلما دنوا من السور قال سلمان ارى ان نضرب خيامنا هنا فنستريح هنيهة

ثم نترك دوابنا ومضربنا في عهدة الخدم وندخل المدينة خفافاً

فقال اليثربي اما انا فلا استطيع صبراً عن المسير الى المدينة الساعة لاني في مهمة فارجو ان نلتقي هناك

فقالا سر بحراسة الله

فودعهم ومضى

فلما خرج التفت سلمان الى حماد وقال اراك راغباً في دخول المدينة

قال نعم

قال ولكنني لا ارى ذلك

قال ولماذا

قال لاننا لم نترك البلقاء ونتجشم الاسفار لنقيم في هذا المكان فضلاً عن الخطر الذي قد ينتابنا لمجرد دخولنا المدينة

فقال واي خطر علينا من ذلك

قال اخاف ان يرانا هنا احد من عيون أبي سفيان فاذا رآنا في مكة عرفنا فيحسبنا من المسلمين فيعرقل مساعينا

قال اذا رأينا ابا سفيان قلنا له ان عبد الله والدي او ربما رأينا والدي معه فنأمن الخطر

قال لو كنا على يقين من وجود مولاي والدك عنده لهان علينا المسير ولكننا انما قلنا ذلك على سبيل الظن

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر والده وخطيبته وحاله فرغب في اتمام مهمته بالمسير الى مكة فقال اراك مصيباً في رأيك فالافضل لنا ان نسير الى

مكة لنبحث عن القرطين فاذا ظفرنا بهما هان علينا كل ما نريده

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فارسلا خادماً يبتاع زاداً وعلفاً فعاد عند الغروب فاكلا واطعما الجملين والجوادين و باتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد باكرًا فملأوا القرب وركبوا يريدون مكة ٠وكان سلمان لا يعرف الطريق اليها ولعله كان يعرفها ونسيها ولكنه كان لا يزال يذكر طريقاً تؤدي الى مكة عن طريق آبار بدر غربي المدينة ففضل المسير الى تلك الآبار ليبيتوا عندها ثم يملأُون قربهم و يسيرون نحو مكة ٠ اما حماد فلم يكن يعلم شيئاً من تلك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء

الفصل الحادي والاربعون

البحيرة

فساروا طول ذلك النهار سيرًا بطيئاً لعلمهم ان الآبار غير بعيدة عنهم وانهم بائتون هناك لا محالة فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فحلوا الاحمال وجلسوا للطعام ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة يلتمسون القيلولة واشتغل الخادمان برعاية الجملين

فأفاقا عند العصر والتفتا فلم يريا الجملين ولا راعييهما فبغت سلمان ونهض للحال ونظر الى ما حوله فرأى كل شيء في مكان كما فارقه فاخذ يتشوف عن التلال لعله يرى اثر الجملين فلم يرَ اثارًا ولكنه رأى اثر خفافهما على الرمال فهمّ بتتبع الاثر وقال لحماد تربص هنا ريثما ارى ما تمّ لهما فمكث

حماد وسار سلمان حتى غاب عن النظر ومالت الشمس نحو المغيب ولم يرجع سلمان فقلق حماد كثيرًا وخاف ان يدركه الظلام وهو منفرد في تلك الارض

وفيما هو في ذلك رأى اشباحًا تقترب فتفرسها فاذا هي ثلاثة من الابل وعليها الخادمان وسلمان فعجب للجمل الزائد فلما وصلوا استطلعهم الخبر

فقال سلمان أرأيت هذه الناقة

فنظر حماد اليها فاذا هي مشقوقة الاذنين فعجب لحالها وقال وما خبرها وما الذي جرى لها

قال هذه هي الناقة التي يسميها الحجازيون البحيرة فان من عوائدهم التي قد اخذت تتلاشى بعد ظهور الاسلام ان الرجل منهم اذا ولدت ناقته خمسة ابطن وكان الاخير ذكرًا بحر اذنها اي شقها وامتنع من زكاتها واطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكأن خادمينا رأيا هذه الناقة سائبة فارادا القبض عليها فهمّ لها احدها فنفرت منه فظن انه اذا ركب احدى ناقتينا ادركها فتعقبها بها فلم يدركها فاستبطأه رفيقه فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت انا بهما فرأيتهما قد قبضا عليها بعد جهد شديد وعادا وقد وبختهما على ما ارتكباه فوعدا ان لا يعود الى مثل ذلك مرة اخرى

الفصل الثاني والاربعون

﴿ آبار بدر ﴾

فعجب حماد لحكاية البحيرة ولكنه تأسف لضياع الوقت حتى دنا المغيب ولم يصلا الآبار فقال ارى يا سلمان ان نترك هذه الناقة وشأنها لاننا لسنا

في حاجة اليها ولا عندنا من علف نطعمها اياه ولنهتم بالمسير لكي ندرك الآبار فهل نحن بعيدون عنها

فقال سلمان انا على مسافة قصيرة فهلم بنا اليها قال ذلك وامر فركبوا جميعاً وساروا يقطعون السهول والاودية حتى خيم الغسق وقد نفذ ماؤهم ولم يصلوا الآبار فقلق سلمان وخاف ان يكون قد اخطأ الطريق فساق جواده الى اكمة أطل منها على منخفض علم بما يحيط به من الجبال انه المكان المقصود ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك لبعد المكان وظلامه فعاد الى حماد وانبأهُ بما كان فاتفق رأيهما على ان يتركا الخادمين والجملين هناك ويسيرا على الفرسين ليتفقدا المكان فاذا كان هو بعينه شربا وسقيا الفرسين لان الخيل لا تصبر على العطش ثم يناديان الخادمين

فهمزا الجوادين فسارا في ارض وعرة والجو هادئ لا يسمع فيه غير وقع الحوافر على تلك الصخور وكان الظلام آخذاً في الاشتداد ولكن القمر كان قد ارسل اشعة ضعيفة تبشر بقدومه قبل طلوعه فلما وصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الابار اخذا في الانحدار وهما ينتظران طلوع القمر بفارغ الصبر ليساعدهما على تعيين المكان فوصلا الى منبسط الوادي ونظرا الى ما حولهما فاذا هما في واد مظلم تحف به الجبال من اكثر جهاته لا يسمع فيه صوت ولا يهب فيه نسيم وكان القمر قد طلع لكن اشعته لم تدرك اسفل المكان بعد فتحقق سلمان انها ابار بدر ثم استنار الوادي فتامله سلمان فاذا هو بعينه ورأى الاماكن التي كانت تقام فيها السوق كل عام وكانت تجتمع اليها القبائل للبيع والشراء والاخذ والعطاء ولكنه آنس في المكان وحشة وهجراً

كأنه هجر منذ اعوام ثم خطر له ان الليل يريه دالك فاخذ يبحث عن محل الآبار وحماد في اثناء دلك صامت لا يبدي حراكاً

وترجلا عن الفرسين وسارا يقودانها وقد تهيبا وندما لتلك المخاطرة وكان اعظمها ندماً سلمان لانه ساق سيده الى الخطر ولكنه تجلد وسار وحماد الى جانبه لا يتكلمان حتى وصلا الى حفر متفرقة فاستترا وصاح سلمان هذه هي الآبار قد ادركناها وكانا قد اعدّا ما يستقيان به من دلو او نحوه فالقى سلمان الدلو فسمع صوته يصادم قعر البئر فارغة فتعجب لدلك ثم ما لبث ان سمع حركة ورأى حيواناً وثب من البئر وفر فتامله فاذا هو يشبه الثعلب او الكلب فازداد استغرابه وبغت حماد وقال ما هذا يا سلمان ايخرج من الآبار ثعالب

قال اني في غاية الاستغراب من هذا الاتفاق · ان المكان هو هو بعينه وقد نزلت فيه منذ بضع سنوات وشربت من مائه ورأيت الناس يستقون منه فلا ادري ماذا جرى له فيلوح لي ان انزل في هذه البئر فاني اراها غير عميقة لعلي استطلع من امرها شيئاً · فانزل قدماً ثم الثانية حتى ادرك القعر فاحس كأنه واقف على عظام فمد يده وامسك العظام بيده فاذا هي مدفونة كلها او بعضها بالتراب واستخرج شيئاً منها فتصاعدت عنها روائح كريهة ولمس عظاماً طويلة ومستديرة وكروية على اشكال شتى فاقشعرّ جسمه لانه علم من اشكالها انها عظام آدميين فصعد للحال وقد هاله الموقف لم يشأ ان يخبر حماداً بذلك لئلا يخاف وتاقت نفسه الى استجلاء حقيقة الامر عن تلك الجماجم والعظام ولكنه كتم ذلك واوعز الى حماد بالعود فعاد حماد وهو ينتظر ان يسمع شيئاً جديداً فلم يفه سلمان بكلمة فظلا سائرين في ذلك المنخفض وحماد ينتظر

حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادئ لا يسمع فيه الاَّ صوت وقع الحوافر. فلما ابطأ سلمان في الحديث همَّ حماد في السؤال عما رآه واذا بصوت جمل يهدر عن قرب فوقفا وانصتا ليعرفا جهة الصوت فاذا هو جمل منحدر من اعلى الجبل من الجهة التي جاءا منها اولاً فظنا احد الخادمين قادماً لخبر جديد فلبثا واقفين ينتظران ما يكون فاذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتأملاه فاذا هو رفيقهما اليثربي فلما دنا منهما ناداهما فعرفا صوته فاجابه سلمان فتعارفوا

فلما وصل اليثربي اليهما قال ما الذي جاء بكما الى هذا المكان

قال سلمان جئنا نلتمس الماء

قال اتلتمسون الماء من هذا المكان وقد اصبح مجتمعاً للرمم ومعرضاً للجيف

قال سلمان لا اعرفه الا مستقى فيه ماء عذب وقد عجبت لما تقول وخصوصاً بعد ان رأيت الجماجم بنفسي ولمستها بانملي

فبغت حماد لذلك وقال اتقول الصدق يا سلمان

قال نعم يا مولاي قد لمست الجماجم والسواعد والافخاذ بيدي وكتمت ذلك عنك لئلاَّ تتهيب

قال حماد لقد عرفت سر سكوتك كل هذه المدة وانا اتوقع خطابك بعد نزولك الى قاع البئر. ثم التفت الى اليثربي وقال وما الذي حوَّل هذا الماء الى رمم وعظام

قال ان لذلك خبراً طويلاً سأقصه عليكما متى جلسنا فقد جئتكما بالماء ووضعته عند الخادمين وراء هذه الاكمة وقد تستغربان مجيئي اليكما في هذا

الليل على غير موعد بيننا واما السبب في ذلك فاني كنت في انتظاركما اليوم في باب المدينة فلما استبطأتكما جئت افتقدكما فلم اجدكما فعلمت من قرائن مختلفة انكما سرتما نحو هذه الآبار ولما كنت عالماً بجفافها حملت اليكما قربة ماء وسرت اقتص خبركما حتى جئت الى خادميكما فقالا لي انكما تطلبان الماء من هنا فجئت اليكما على عجل كما تريان · قال ذلك واشار اليهما ان يتبعاه فركبوا وساروا جميعاً وكل منهما يتأمل هيبة ذلك المكان بعد ما علموا من امره حتى وصلوا الى اعلى الوادي وتحولوا نحو الخادمين وكانا في انتظارهم فلما وصلوا ترجلوا جميعاً وجلسوا على دكة فتناولوا الطعام وشربوا وسقوا الخيل والجمال وسلمان وحماد ينتظران خبر بدر بفارغ الصبر

فلما استتب بهم الجلوس قال حماد اراني في قلق لامزيد عليه فهل تتكرم علينا بخبر تلك الآبار

قال ان خبرها غريب يطول شرحه فاذا كنتم مستعدين لاستماعه الليلة قصصته عليكم والاَّ فاني اقصه في الغد

فصاحا معاً بل نقصه علينا الليلة فان القمر قد ابدر وتاقت نفوسنا الى السمر الاَّ اذا كان في ذلك ثقلة عليك

قال اني شديد الرغبة في قص هذه الحكاية لانها تبين كرامة نبينا وبها يفتخر المسلمون كما ستسمعون

ثم جلسوا واخذ اليثربي يقص حكايته وحماد وسلمان منصتان والجمالان يتطاولان عن بعد لاستماع الخبر



الفصل الثالث والاربعون

سبب الغزوات

قال اليثربي اعلموا اني اقص عليكم خبر اعظم واقعة حدثت في الاسلام وقد شهدها رسول الله بنفسه منذ نحو خمس سنوات وكنت في جملة المحاربين فرأيت وسمعت ما تشيب لهوله الاطفال

فقال سلمان ومن هم الذين حاربتموهم هناك

قال هم بنو قريش من اقرباء الرسول ولكنهم اعداؤه

قال . وكيف يكونون اقرباءهُ ولا يقومون لنصرته بل يكونون اعداءه

قال ان لذلك خبرًا طويلاً لا استطيع بسطه الليلة ولكنني اذكر ملخصه تمهيدًا لذكر واقعة بدر التي نحن في صددها فارعوني سمعكم

قالوا كلنا آذان فشنف مسامعنا

فقال لا يخفى عليكم ان نبينا لما قام يدعو الناس الى الاسلام لم يجبه الاّ نفر من قريش وظل اعمامه واكثر ذوي قرابته على دين آبائهم واكثرهم انما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفاً على تجارتهم ان تكسد لما في تأييد الاسلام من احتقار الاوثان وابطال عبادتها فينحط قدر الكعبة فيقل الحجاج اليها ومعاش قريش وسائر اهل مكة من التجارة ولا تجارة الا بالحجاج فضلاً عما يتمتع به القرشيون من السيادة والنفوذ ببقاء الكعبة فانهم حجابها ولهم بذلك فخر وسؤدد . فهذه الاسباب وغيرها حملت بني قريش على مقاومة نبينا ولكنه لم يحرم انصارًا شدوا ازرهُ وصدقوا بدعوته ومنهم

جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها على انهم لم يستطيعوا حمايته من الاذى فهاجر وهاجروا معه الى مدينتنا يثرب التي كنا بالقرب منها البارحة فاستقبلناه بكل اكرام فنزل بيننا على الرحب والسعة وسررنا بهذا الشرف العظيم

ولا يخفى عليكم ان المدينة واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن اراد تجارة او سفرًا بينهما لا بد له من المرور بها فاخذ من يوم نزوله المدينة يجمع اصحابه الذين هاجروا معه وهم المهاجرون والمدنيون الذين نصروه وهم الانصار ويخرج بهم للغزو او يرسلهم ويقيم فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام اوغيرها بتجارة اواموال خرج برجاله ليغزوهم وما اصابه من مال اوغيره وزعه على رجاله

الفصل الرابع والاربعون

غزوة بدر الكبرى

ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى وسببها ان ابا سفيان ابن حرب رجل قريش واكبر زعمائهم كان قادماً من الشام في ابل لقريش عليها اموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً او اربعون من قريش وكلهم من اعداء الاسلام وفي جملتهم عمرو بن العاص وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام للاستقاء في طريقها الى مكة فلما علم رسول الله بمروره انتدبنا للخروج عليهم فعلم ابو سفيان بذلك فانفذ

بعضاً من رجاله الى مكة يستنفرون الناس للقدوم الى الآبار لحماية اموالهم فكان الرجل منهم اذا وصل الى مكة وقف على بعيره وقد جدعه وحوّل رحاله وشق قميصه وهو يقول « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ان اموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد واصحابه لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث » فتجهز القرشيون سراعاً لم يتخلف من اشرافهم الا من عجز عن المسير فبلغ عدد السائرين الف رجل ومئة فرس وسبعمائة بعير واما رجالنا فكان عددهم ثلاثمئة و بضعة عشر رجلاً وسبعين بعيراً وفرسين . فسارت رجالنا من المدينة يتقدمهم النبي حتى وصلنا الى مكان اسمه الصفراء فبعث من يتجسس خبر ابي سفيان فقيل له انه بالقرب من بدر فجمعنا في جلسة وجمع اصحابه المهاجرين معنا وشاورنا جميعاً وكان قد استطلع قوة العدو واطلعنا عليها وقال ما تقولون هل نحاربهم فاجابوا جميعاً بصوت واحد وقلب واحد موافقين وسأل الانصار فقلنا « فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر لخضته لنخوضنه معك وما نكره ان تلقى العدو بنا غداً لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله »

فلما سمع كلامهم اثنى عليهم وسار وسرنا جميعاً وكان ابو سفيان قد نزع الى الخديعة في اثناء تلك الفترة فسار من بين الآبار حتى تجاوزها والعير معه فلقي رجال قريش في مكان يقال له الجحفة فخاطب اشراف قريش قائلاً هذه العير والاموال قد نجت فارجعوا الى مكة وكان في جملة اولئك رجل اسمه ابو جهل لعنة الله عليه فابى الاّ ان يمرّ بالآبار فساروا حتى دنوا من الوادي اما نحن فسرنا نطلب الآبار فنزلنا عندها ومنعنا الاعداء منها فتقدم

زعيم الانصار منا وهو سعد بن معاذ وقال « يا رسول الله نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا عليهم كان ذلك مما احببناه وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام ما نحن باشد حباً لك منهم ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك » فاثنى الرسول عليه خيراً فبنينا له عريشاً

وبعد قليل رأينا غبار قريش ثم ظهرت رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح يتقدمهم امراؤهم في افخر اللباس وكانوا اهل بذخ وترف وقد اخذت بهم الخيلاء والفخر فلما دنوا منا عسكروا امامنا ثم ارسلوا رجلاً منهم ليحزرنا اي يقدّر عددنا فجال بفرسه قليلاً وعاد فأنبأهم بقلة عددنا فتشاوروا في الامر طويلاً وفيهم من يشير بالرجوع وكانوا بين ان يرجعوا او يهاجموا لان الماء في حوزتنا فاذا لبثوا مكانهم هلكوا عطشاً فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقلتنا فاقروا على الهجوم فخرج منهم افراد طلبوا البراز فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم فهجم آخرون منهم وهجم بعض منا والتحم الفريقان وكان يوماً عظيماً خاف فيه المسلمون خوفاً شديداً لما رأوا من قلتهم وقد سمعت رسول الله يقول وقد رأى احتدام الحرب « اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض اللهم انجزلي ما وعدتني » قال ذلك وهو ينظر الى رجاله ويدعو لهم بالنصر وقد سمعت دعاءه باذني لاني كنت في جماعة من الانصار مع سعد بن معاذ واقفين بباب العريش نحرس رسول الله خوفاً عليه من كرة العدو . ولقد رأيت ما كان من فتك

المسلمين بالمشركين ما ينشرح له الصدر وخصوصاً لما رأيت ابا جهل زعيم القرشيين مجدلاً يخبط بدمه وكان اشد الناس عداوة للنبي الله ورأيت غيره من امرائهم مقتولين منهم حنظلة بن ابي سفيان وشيبة وعتبة وامية وغيرهم ورأيت اشد المسلمين فتكاً في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول فقد رأيته يخترق الجماهير وفي صدره ريشة نعامة يمتاز بها عن غيره

ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين في ذلك اليوم واستهلاكهم في نصرة الاسلام ان معاذ بن عمر بن الجموح كرَّ على ابي جهل المتقدم ذكره وكان محاطاً بزمرة من رجاله فاخترق الناس اليه فضربه ضربة اصابت ساقه فهجم عكرمة بن ابي جهل على معاذ بضربة قطعت يده فطرحها عن عاتقه ولكنها ظلت معلقة بجلدة من جسمه فما زال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويده تجر وراءه فكنت انظر الى يده واشعر كأن يدي في مثل ذلك اما هو فلم يكن يبالي فلما آدته يده وعاقته عن الحرب جعل رجله عليها وتمطى حتى انفصلت فتركها وعاد الى الحرب . وكان في جملة المشركين العباس بن عبد المطلب فانه كان لا يزال متردداً بين الاسلام وما كان عليه اجداده . فلما حمل القرشيون على بدر حمل معهم مكرهاً فاسر في جمله من اسر ولكن اسره لم يطل لان النبي امر باطلاقه حالاً

ولم يمض زمن حتى رأينا المشركين هموا بالفرار فقبضنا على جماعة كبيرة منهم ولما انقضت الحرب امر رسول الله ان يؤتى بجثث القتلى الى القليب فجيء بها فتكومت كوماً وفيها جثث نخبة امراء قريش وهي التي رايتم بقاياها في الآبار الليلة ثم جمعت الغنائم ففرقت فينا وحملت بشائر النصر

الى المدينة واخبار الويل الى مكة وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش اذ قتل فيها جماعة من الدّ اعداء الاسلام واشدهم بطشاً وفي جملتهم ابولهب عم الرسول وكان شيخاً كبيراً لم يحضر الحرب فلما بلغته نكبة القرشيين اشتد الامر عليه فمات بعد تسعة ايام

فاصبح زعيم القرشيين بعدهذه المعركة ابا سفيان الذي ذكرته لكم وهو مشهور وكثيراً ما يسير الى الشام فلا يخلو ان تكونوا قد رأيتموه هناك

فقال سلمان نعم رأيته غير مرة وهو اشهر من ان يذكر

فقال وسترونه قريباً عند وصولكم مكة فانه عاد اليها منذ بضعة اسابيع

فلما سمع ذكر ابي سفيان توهما ان يكون عبدالله معه ولكنهما كتما ذلك

ثم قال اليثربي واصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة وقد القوا الجثث فيها فانتنت . وبطل موسمها السنوي من ذلك الحين

هذه هي حكاية الآبار فاشكروا الله انكم لم تلقوا فيها وحشاً ضارياً او نحوه فلنبت الليلة هنا ولنعد في الغد الى المدينة نمكث فيها يوماً ثم تسيرون منها في قافلة الى مكة والاَّ فاختاروا لانفسكم

فاعجب حماد بشهامة ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته في انقاذهم وقال اننا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيراً وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع ان نكون طوع بنانك نسير معك حيثما سرت ولكننا نرى سرعة المسير الى مكة لعلنا نلتقي فيها بابي سفيان قبل خروجه منها

فقال اليثربي العلكم تعاملونه معاملة التجار فان له علاقات كثيرة مع تجــار الشام

قال سلمان لاعلاقة تجارية بيننا وبينه ولكننا نفتش عن صديق لنا سار برفقته من بيت المقدس

فقال اليثربي انصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل تنتصحون بها

قال نعم ويكون لك علينا الفضل

قال انصح لكم اذا لقيتم احداً من المسلمين في المدينة او غيرها وعرض ذكر ابي سفيان فلا تذكروا علاقة بينكم وبينه فان ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم من جراء ذلك ضرر

فقال سلمان لقد اخلصت النصيحة واردت بنا خيراً فشكراً لك على ذلك ونحن لو لم نتوسم فيك الاخلاص لما فرط منا ذكر هذا الرجل على اننا لم نقل انا اصدقاؤه وانما قلنا ان صديقنا سار برفقته

فقال اليثربي ومهما يكن من الامر فقد نبهتكم الى ما لا يخلو من فائدة

قال حماد لا ريب في ذلك عندنا فنشكرك عليه شكراً جزيلاً

وكان قد مضى معظم الليل وغلب النعاس على الجميع فنهضوا للرقاد فلما اصبحوا خيرهم اليثربي في الذهاب معه الى المدينة او الذهاب الى مكة تواً فاثنوا عليه واعتذروا بانهم يؤثرون المسير تواً الى مكة على نية ان يمروا بالمدينة في عودتهم فاطاعهم واوصاهم وصايا تتعلق بسفرتهم وودعهم وعاد الى المدينة وتركهم يستعدون للسفر الى مكة

الفصل الخامس والاربعون

﴿ بكر وخزاعة ﴾

فلما خلا حماد بنفسه تذكر حاله مع هند وما هو ذاهب من اجله وكان في اثناء حديث اليثربي عن ابي سفيان يهمّ في الاستفهام عن والده ثم يخاف العاقبة فيمتنع واخيراً صبر نفسه ريثما يصل مكة و يلتقي بابي سفيان

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لايلوون على شيء فامسا المساء وقد ادركوا بقعة من الارض يكسوها المرعى وفي احد جوانبها شجرة تحتها عين ماء عذب اعتاد المارة الجلوس اليها التماساً للراحة من وعثاء السفر اثناء مسيرهم بين مكة والمدينة

فجلسوا الى الشجرة واوقدوا ناراً يستضيئون بها او يستخدمونها في معالجة طعامهم تلك الليلة حتى اذا اكلوا جلسوا يتسامرون ريثما يتغلب عليهم النعاس فلما انقضى الهزيع الاول من الليل هموا بالرقاد وقد امروا الخادمين ان يتناوبا السهر خوفاً من طارىء يفاجئهم ولم يكد يغمض لهم جفن حتى افاق سلمان فسمع ضوضاء عن بعد فالصق اذنه بالارض فتبين له ان بضع عشرات قادمون من مكة مسرعين ومعهم الخيول وعلم انهم نازلون عند تلك العين لا محالة نخاف ان يكون عليهم من نزولهم بأس فالتفت الى حماد فاذا هو لا يزال نائماً فتردد بين ان يوقظه او ان يتركه نائماً وفيما هو يتردد افاق حماد من تلقاء نفسه فرأى سلمان جالساً على فراشه فبغت وناداه واستطلعه الخبر

فقال كنت عازماً على ايقاظك لو لم تستيقظ من تلقاء نفسك

قال حماد وما سبب ذلك

قال اني اسمع اصوات خيول واناس قادمين من جهة مكة فاخشى ان يكونوا سائرين في حرب وربما اوقعوا بنا سوءا

فقال حماد وما الرأي اذن

قال الرأي ان نتواطأ على كلام نقوله لهم يضمن لنا النجاة . فقال وما هو

قال يغلب على الظن ان القادمين من اهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبي الجديد وانهم يريدون المدينة لحرب او لاستطلاع فهم من اعداء المسلمين وعلينا نحن ان نتجاهل امر الاسلام ونتظاهر باننا انما جئنا نريد الاعتمار في مكة

فقال حماد وما معنى الاعتمار ان ذلك لا اثر له في ديننا

قال هو الحج الى الكعبة والكعبة حج يؤمها الناس من اقاصي الارض على اختلاف الملل والنحل فاذا قلنا اننا غرباء قاصدون زيارة الكعبة لا يستغشوننا

فقال حماد افعل ما بدا لك وكن انت المتكلم عني

ولم يكادا يتمان الحديث حتى جاء خادم سلمان ينبئهم ان الجمع قد اقترب وانهم يقصدون ذلك الماء

فلبثوا تحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقوداً استئناساً بالنور

فلم يمض قليل حتى وصل الماء فارس ملثم فلما اقترب من النار نادى من القوم النزول هاهنا

فقال سلمان عرب من لخم ومن انت

قال عرب من خزاعة وما الذي جاء بكم الى هذا المكان

قال سلمان جئنا لزيارة البيت الحرام

قال هل مررتم بالمدينة

قال مررنا بها عن بعد ولم ندخلها

وما اتمّ كلامه حتى وصل رفاقه وفيهم الفارس والراجل فترجلوا جميعاً ودنوا من الماء فتفرس فيهم سلمان يسبر عددهم فاذا هم نحو الاربعين يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع معرفته لشدة الظلام وكان هذا الرجل هو وجيه القوم يأمرهم وينهاهم فعلم سلمان انه رئيسهم وكان قد امرهم ان ينصبوا خيمة بالقرب من تلك الشجرة فاخذوا في ذلك وسلمان ينظر اليهم ثم لاح له ان يستطلع حقيقة حالهم من زعيمهم فدنا منه وحياه فرد الفارس التحية والارتباك ظاهر على وجهه ولكنه التفت الى سلمان وقال قد انبأني دليلنا انكم من لخم فهل انتم قادمون من العراق

قال نعم يا مولاي

قال ونحن نعلم ان اللخميين في العراق من اهل النصرانية

قال نعم ونحن كذلك

قال وكيف تقول انكم جئتم لزيارة البيت الحرام والنصارى يحجون الى بيت المقدس

فبغت سلمان ولبث برهة صامتاً لا يدري بماذا يجب وظهر الارتباك على وجهه ولكنه تجلد وقال وهل تقفل ابواب الكعبة دون النصارى اذا

جاؤها معتمرين

قال كلاَّ فان الناس يقدمون اليها من اقاصي العالم على اختلاف الملل والنحل ولكن النصارى قلما يجيئونها وزد على ذلك ان الوقت ليس وقت الحج فاصدقني الخبر

قال سلمان ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانه ولكنني رأيتكم جمعاً كبيرًا فاتيتنا من امركم فاذا علمنا من انتم افدناكم عن حقيقة امرنا

وفيما هو يقول ذلك جاءه رجل يقول ان الخيمة قد نصبت والمائدة أُعدّت فالتفت الى سلمان قائلاً اذا شئت ان تضيفنا على الطعام اتممنا الحديث فاننا نحتاج بعد طول السفر الى الراحة

فقال نترك اتمام الحديث الى صباح الغد

قال حسناً وافترقا فسار سلمان الى سيده فاذا هو لا يزال جالساً على فراشه ينتظر عودته بخبر القوم فلما رآه عائدًا استطلعه الخبر فأنبأه بما كان واستمهله الى الغد يستطلع الحقيقة

فباتوا تلك الليلة على حذر ولما اصبح الصباح خرج سلمان الى مضرب القوم فاذا اكثرهم من الفرسان وتأمل لباسهم وحالهم فاذاهم من اهل الحجاز ففكر في امرهم فرأى ان يصطحب سيده وان يسيرا معاً الى رجل الامس فاصطحبه وسارا

فلما وصل الخيمة استأذنا في الدخول فاذن لهما فدخلا فوجدا الرجل جالساً على وسادة مقطب الوجه كانه يفكر في امر همه فلما وقع نظره على سلمان وقف له ورحب به فبالغ سلمان في الاعتذار لما سببه له من المشقة بتلك

الزيارة ولكنه قدم سيده في الجلوس فادرك صاحب الخيمة انه سيده فرحب به بنوع خاص واجلسه الى جانبه ثم التفت الى سلمان وقال ارى ضيفنا في هذا الصباح عراقياً ايضاً

قال سلمان نعم يا سيدي انه امير من امراء العراق وانا خادم له فهل يتفضل مولاي بالافادة عن اسمه

قال اني عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب سائر في [1] جماعة من خزاعة نريد المدينة

فقال سلمان العلكم من اهل مكة

قال نعم نحن نقيم في مكة ولكننا سائرون الى المدينة في مهمة فهل انتم قادمون منها

قال كلاً يا مولاي لم نكن في المدينة ولكننا مررنا بها عن بعد

قال يا حبذا لو انكم دخلتموها

فتعجب سلمان لتمنيه هذا وعهده باهل مكة اذ ذاك اعداء لاهل المدينة على اثر ما كان من مهاجرة النبي واصحابه منها

فقال هل تأذن لي بسؤال يزيل عني الالتباس

قال تفضل

قال قلتم انكم من اهل مكة تقصدون المدينة وقد بلغنا ان بينكم و بين اهل المدينة عداوة

قال صدقتم ولكن بين اهل مكة جماعة كبيرة هم على دعوة اهل المدينة

(١) السيرة الحلبية

اي انهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفاً من كبار قريش ان يصيبوهم بسوء[1] على انني سالتكم عن حقيقة امركم فلم تجبني فهل انتم سائرون الى مكة للحج حقيقة

قال سلمان اما وقد آنسنا فيك ما آنسناه من كرم الخلق وحسن الوفادة فاني اطلعك على جلية امرنا لعلك تكون لنا عوناً في ما نحن فيه

قال وما ذلك

قال نحن يا مولاي كما قلت لك من اهل العراق وهذا الامير حماد سيدي وقد جئنا قاصدين مكة للتفتيش عن الامير عبدالله والد مولاي هذا فقد قيل لنا انه جاء الحجاز برفقة ابي سفيان منذ اشهر فهل تعلم عنه شيئاً

قال اذكر اني شاهدت ابا سفيان بعد عودته من الشام هذا العام ولكنني لم اعلم شيئاً عن الامير عبدالله فربما كان معه ولم أره

فقال سلمان هل يخبرني سيدي عن سبب قدومه الى المدينة وهو من اهل مكة فاني اخاف ان يكون وراء مجيئكم ما يدعو الى حرب تقفل بها ابواب مكة دوننا

قال أما سبب مجيئنا الى المدينة فهو انا من خزاعة كما اخبرتكم وقد كانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة اخرى يقال لها بنو بكر فكان النزاع بيننا لا يفتر حتى ظهر الاسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين الى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم نبيهم يريدون الاعتمار فخاف اهل مكة ان يكونوا عازمين على حرب فمنعوهم من دخولها ثم كانت خصومة انتهت بعهد أبرم

(1) السيرة الحلبية

بين المسلمين وقريش يقضي بهدنة وسلام فدخل بنو بكر في عقد قريش ودخلنا نحن في عقد المسلمين ثم رجع المسلمون واطمأنت قلوبنا فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجاً عن العقد فتعرضوا لنا وقتلوا منا بعضاً ورأينا بني قريش يضافرونهم على ذلك فاعتبرنا هذا العمل نقضاً للعهد الذي كان معقوداً بينهم وبين المسلمين . وكأني بالقرشيين ساعون الى حتفهم بظلفهم فقد كانت مكة آمنة مطمئنة فعرضوها للهجمات المسلمين لاننا لما استفحل الامر علينا ورأينا القرشيين يعاونون البكريين علينا جئنا بهذا الجمع نريد المدينة لنبلغ ذلك الى صاحب الرسالة الاسلامية

فقال سلمان وما ظنك به بعد ذلك

قال اظنه يحمل على مكة برجاله فيفتحها عنوة وفي فتحها عزٌّ للمسلمين

فقال سلمان يظهر انكم على دعوة صاحب الرسالة فهل انتم مصدقون لما جاء به

قال لقد جرّنا الحديث الى امور طالما وددنا كتمانها ولكننا اصبحنا في حال لانرى معها بدّاً من التصريح فاننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقاً في دعوته ولا نظنه الا غالباً . ومما يدلنا على ذلك نصرته في حروبه حيثما توجه

فعاد سلمان الى ماهم فيه من امر القرطين والامير عبدالله فاخذ يفكر في وسيلة يستخدم بها تلك الفرصة فقال اما وقد آنسنا منك هذه الشهامة فهل ترى ان تهدينا الى سبيل نتصل به الى ابي سفيان للبحث عن مولاي الامير عبد الله

فقال وما الذي عساي ان افعله في هذا القبيل

قال توصي بنا رجلاً من خاصتك تثق باخلاصه وتعقله ليدربنا في مكة لاننا غرباء والغريب اعمى ولو كان بصيرًا

ففكر عمر ساعة ثم قال لي عمٌّ شيخ يقيم في الكعبة نهارهُ كلهُ وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى ابي سفيان فاذا لقيتموه واستعنتم به في شأْن هذا كم الى سواء السبيل واسمه حرب فاذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة اسأَلوا عن حرب الخزاعي فاذا لقيتموه رأَيتم فيه شيخًا طاعنًا في السن فقولوا له ان ابن اخيك عمر بن سالم يقرئك السلام فاذا وصفتم له حالنا وما شرحته لكم من امر خزاعة وبكر علم انكم صادقون في قولكم فاسأَلوه ما شئتم فانه خير مرشد لكم في ما تريدون

فنهض حماد عند ذلك واثنى على عمر وودعاه وانصرفا الى خيمتهما

وبعد قليل نهض الركب الخزاعي ويمموا المدينة وقد سرَّ سلمان لتلك الصدفة وأَمل ان ينال بها خيرًا

الفصل السادس والاربعون

مكة المكرّمة

وفي ظهيرة ذلك اليوم ركبوا يريدون مكة فوصلوها بعد مسيرة يوم فدخلوها فرأَوا اهلها في هرج ومرج لا حديث لهم الاّ امر خزاعة وبكر فساروا في طرقها لا يستغشهم احدٌ لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء • وارادوا المسير الى الكعبة في ذلك اليوم فقال سلمان هلمَّ بنا الى خان ننزل فيه بجمالنا

واثقالنا ثم ننزل الكعبة او انزل انا وحدي اتجسس الاخبار واعود اليك

فقصدوا خانًا بالقرب من الكعبة نزلوا فيه فبدلوا ثيابهم وتناولوا طعامًا واستراحوا بقية يومهم وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهم نجح مسعاهم

فلما اصبحوا في اليوم التالي قال سلمان امكث هنا يا مولاي ريثما اتدبر الامر بنفسي وآتيك بالاخبار واذا ابطأت عليك فلا ينشغل بالك

قال حماد سر بحراسة الله

فخرج سلمان وقد تزيا بزي اهل الحجاز لا يريد بذلك تنكرًا ولكنه خاف ان يكون غريب لباسه موجبًا لاستلفات الانظار اليه فوصل المسجد الحرام فدخل من بعض جوانبه فرأى في سياحته جماعة كبيرة عراة يطوفون (١) وفيهم الواقف والجالس والراكع ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين يتحادثون ويتحاورن . فسار هنيهة فرأى في وسط الساحة بناء مربعًا تجلله استار من القباطي علم من طواف الناس حولها انها الكعبة تجللها الاستار فلم يجسر على الطواف حولها او الدنو منها ولكنهُ نظر الى داخلها عن بعد فرأى فيها احجارًا قائمة علم انها الانصاب ورأى حول الكعبة وفوقها اصنام هائلة رأى بعض الناس يحلقون و يغتسلون حولها فادهشهُ كل ذلك وقال في نفسه اذا لم يكن في قيام الاسلام غير هدم هذا الانصاب وابطال عبادتها لكفى به فضلاً

ثم تأمل في بناء الكعبة واخذ يفكر في امر القرطين وكيف يمكن ان يكونا هناك واذا وجدا فاين يمكن ان يكون موضعها فلم يزدد الاّ ابهامًا

(١) السيرة الحلبية

ولا زادته تلك الزيارة الاّ يأساً

ثم تحول نحو الجماهير لعله يرى ذلك الشيخ فطاف المكان يسأل عنه باسمه فقال له بعضهم انه خرج الى منزله بالامس لتوعك اصابه · فسأل عن منزله فقيل له انه في مر الظهران بضواحي مكة (١)

فخرج الى مر الظهران وفيما هو في طريقه اليها يسأل عن الطرق ويستفهم عن الرجل رأى اهل مكة في هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كأنهم في خوف من امر ذي بال فعلم انهم يتحدثون بشأن اهل المدينة · ومر بجماعة منهم كبيرة قد تألفوا امام منزل فخيم قد ربطت حوله الخيول فعلم انه بيت امير كبير فسأل عن صاحبه فقيل له انه منزل ابي سفيان فلما سمع اسمه شكر الله لوصوله اليه تلك الساعة على غير انتظار واخذ يتفرس في وجوه الناس لعله يرى سيده بينهم فلم يجده فسأل بعض الوقوف عنه فأخبره بعضهم انه فارقهم بقرب عمان وانهم لم يروه من ذلك الحين · فأسف لذلك اسفاً شديداً واظلمت الدنيا في عينيه وتشأم من تلك الصدفة ولكنه تجلد وسار في طريقه الى مر الظهران وهو غارق في بحار الهواجس فوصل المكان بعد العصر فسأل عن منزل حرب فدلوه عليه فجاءه وهو لا يرجوان يصيب منه خيراً

فسأل عن الرجل فقيل له انه مصاب بمرض شديد فلا يستطيع ان يخاطب احداً فعاد على عقبيه كاسف البال وقد اخذ منه اليأس مأخذاً عظيماً لا يدري كيف يلاقي حماداً

فوصل الخان والليل قد سدل نقابه فرأى حماداً في انتظاره على مثل

---

(١) الديرة الشامية

الجمر فتظاهر بالتجلد ولم يخبره بخبر والده ولكنه أنبأه بمرض حرب ووعده بان يواصل السؤال عنه حتى يشفى من مرضه على انه لم يكن يرجو شفاءه لشيخوخته وعجزه ولكنه القي اتكاله على الله وصبر نفسه

وقضى سلمان شهرًا يتردد على بيت حرب يسأل عنه ويدعو له بالشفاء وعلم سلمان بعد ذلك ان الشيخ آخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت اليه آماله

فسار اليه ذات يوم وهو يرجو ان يقابله ويشكو اليه امره. وفيما هو في الطريق رأى اهل مكة في قلق شديد فمر بمنزل ابي سفيان لعله يتنسم خبرًا عن سيده فراى المنزل قفرًا فسأل عن السبب فقال مخبر ان ابا سفيان لما سمع بقدوم المسلمين على مكة خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لانه خرج خائفًا. فسال سلمان عن جند المسلمين فقيل له انه قادم وقد صار على مقربة من مكة

فتفرس سلمان في اهل مكة فراى علامات الفشل ظاهرة في وجوههم فسمع بعضهم يمتدح الاسلام وينقم على ابي سفيان وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم ونكثهم عهد بني خزاعة. فعلم ان الامر عائد للمسلمين لا محالة فخرج من مكة حتى جاء مر الظهران واراد السؤال عن حرب فراى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور فالتفت فراى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على اكة في ضواحي مكة ليرى ما يكون فراى الغبار قد شف عن جند كثيف تتقدمهم الفرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين وكان ذلك في شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة وعاد سلمان الى الخان خوفًا على سيده من غائلة ذلك الفتح وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم ابو سفيان عائدًا من سفرته وهو يدعو الناس

الى الاسلام بالتحذير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع الاَّ ازدراءً واحتقارًا وسمع رجاله ينادون « من يدخل منزل ابي سفيان اومنزل العباس بن عبد المطلب فهو آمن من سيوف المسلمين ومن يدخل المسجد او يدخل منزله ويغلق بابه فهو آمن » فاطمأَن بال سلمان

فسار وهو يزاحم الجماهير في الاسواق فراى اسرابًا من القرشيين يتاهبون للقاء المسلمين وفيهم الفارس والراجل فلم يكد يصل الخان حتى فرغ صبره . فدخل فرأى حمادًا قد لبس ثيابه استعدادًا للخروج فقال له ما بالك يا مولاي

قال استبطأْتك ورأَيت الناس في هرج فخرجت لارى ما يكون

قال لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم اجلس لاقص الخبر عليك قال قل وما ذلك

قال قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكث عهد قريش . وقد كنا نتوقع قدوم المسلمين بسبب ذلك لفتح مكة فتحقق ظننا لان المسلمين جاؤوا وهم الآن في ضواحي مكة واظنهم يهاجمون غدًا . وقد علمت ان ابا سفيان سار الى المسلمين وسلم لهم وعاد يدعو الناس الى الاسلام بعد ان كان من الدّ اعدائه كما تعلم . وسمعت رجاله ينادون بالامان على كل من يدخل منزله او منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة او يدخل المسجد او يغلق بابه فنحن اذا اغلقنا بابنا كنا في مأْمن والاَّ فلنذهبن الى المسجد فانه خير ملجأٍ فما الرأْي

قال حماد ارى ان نغلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر اذ ربما يعتدي علينا احدٌ سهوًا فالمسير الى المسجد اولى فهل انت محقق هجومهم على

المدينة غداً

قال لا ادري ولكنني ساخرج صباحاً واتيك بالخبر اليقين

الفصل السابع والاربعون

فتح مكة

وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد فبكر سلمان الى اكمة الامس فاشرف على جيش المسلمين فسار اليه يستطلع الخبر فلم يكد يبلغه حتى رآه قد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان واصحاب الرايات وفيهم قبائل اسلم وغفار واشجع وسليم وغيرهم فتأمل عددهم فاذا هو يزيد على عشرة آلاف وشاهد في الوسط موكباً هائلاً في وسطه راحلة عليها رجل معتجر بشقة حمراء[1] وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية واضعاً رأسه على رحله . وشاهد على الرحل وراءهُ رجلاً رديفاً فعجب لذلك واشتاق لمعرفته فرأى رجلاً قادماً من جهة الجيش فسأله عن هذا الموكب فقال له موكب رسول الله وان الراكب هو الرسول نفسه قد جعل رأسه الشريف على رحله واردف اسامة بن زيد خادمه[2] تواضعاً فعجب سلمان لذلك المشهد البهج وقال في نفسه لا عجب اذا نصر من كانت هذه خلالهُ . ثم سأل الرجل عن عزمهم على الفتح . فقال له انهم سائرون الى مكة من اعلاها في تلك الساعة وان فرقة منهم سائرة بامارة خالد بن الوليد من اسفلها . فهرول سلمان باسرع من لمح البصر جموع فرأى القرشيين يتألبون

(۱) البخاري (۲) السيرة الشامية

للدفاع وفيهم الفرسان ولكن الفشل كان يتجلى على وجوههم · وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعر يستحثثن الرجال بالاناشيد وفي ايديهن الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضاً وتوبيخاً · فلم يتردد سلمان من تلك المناظر الاّ رهبة وخوفاً وتحقق اذ ذاك ان المسلمين فاتحوها لا محالة · فما زال سائراً حتى اتى الخان فقال هيّا بنا يامولاي الى المسجد فانه خير ملجاء لنا

فاقفلا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانبه فرأيا الناس هناك زرافات ووحداناً وقد استولى عليهم الخوف

وبعد ساعات قليلة ضج الناس في المسجد وهم يقولون « لقد اقبل رسول الله » فتحقق سلمان ان الفتح قد تمّ للمسلمين فوقف ومعه حماد في موقف يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث ان سمع الناس يكبرون ورأى النبي داخلاً على قدميه ووراءه رجل من اصحابه آخذ بزمام ناقته فطاف حول الكعبة سبعاً وفي كل مرة كان يأخذ الحجر الاسود بمحجفه والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم فاشار اليهم ان اسكتوا (١)

وكان في المسجد ثلاثمئةوستون صنماً لكل حي من احياء العرب صنم قد شدوا اقدامها بالرصاص فجاء النبي وفي يده قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجهه او قفاه وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٢)

وكان حماد وسلمان ينظران الى ذلك ويعجبان ثم رأياه جاء الى صنم كبير الى جانب الكعبة كان قدعرفا انه هبل الاكبر فكسره · وكان في الكعبة صورة

(١) السيرة الحلبية (٢) السيرة الشامية

شتى للانبياء وفيهـــا صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم فامر بماء فمسحت كلها (١)

ولما تكسرت الاصنام وامحت الصور جلس النبي في ناحية المسجد وعلى رأسه شيخ وقور علم بعد ذلك انه ابو بكر الصديق ثم امر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلى فيها ركعتين

ثم وقف على باب الكعبة والناس وقوف صامتون كأن على رؤوسهم الطير فقال « لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيراً من الاحكام منها « لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث اهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها والبينة على المدعي واليمين على من انكر ولا تسافر المرأة ثلاثة ايام الاّ مع ذي حرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ولا يصام يوم الاضحى ويوم الفطر » ثم قال « يا معشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والناس من ادم من تراب » ثم قال « ما ذا تقولون وماذا تظنون اني فاعل فيكم » قالوا « خير أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت » فقال « اقول قال كما اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبوا فانتم الطلقاء » (٢) وقال اقوالاً اخرى ادهشت حماداً وسلمان لما حوته من الحكمة والموعظة فنظر سلمان الى حماد وقال والله اني لأعجب لأناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه واقواله ولا ريب عندي ان سلطانه سيتسع حتى يغطي الارض ويمحو دولتي الروم والفرس

(١) السيرة الحلبية (٢) السيرة الحلبية

ثم التفت حماد فرأى القرشيين يعتنقون الاسلام وهم يصلون ويهني بعضهم بعضاً وقد هدأت الاحوال وآب الناس الى السكينة وانطلقوا الى منازلهم واشغالهم فخرج سلمان وحماد الى الخان

فلما استتب بهما الجلوس هناك التفت حماد الى سلمان فقال له لقد شغلنا بهذه الاحوال عما جئنا من اجله ولقد نظرت الى الكعبة فعظم عليّ امر القرطين ولم افهم اين موضعها ولا كيف استطيع الوصول اليها وخصوصاً بعد هذه الحروب ودخول مكة في حوزة المسلمين

فقال سلمان الم اقل لك يا سيدي ان عمك سامحه الله قد اقترح عليك امرًا مستحيلاً ولكننا سنقابل الشيخ الخزاعي ونرى رأيه في الامر وليس بعد الجهد حيلة

فقال حماد وقد فاتنا استطلاع امر والدي من ابي سفيان

فتنهد سلمان ولم يجب

فعجب حماد لسكوته فقال له ما بالك لا تجيب

فقال بماذا اجيبك وليس في الجواب فائدة

فقال العلك سألت عنه ولم تظفر به

فقال نعم يا مولاي ان سيدي ليس مع ابي سفيان فقد علمت انهم فارقوه عند عمان ولم يروه من ذلك الحين

فانقبضت نفس حماد لذلك الخبر وبهت مدة لا يتكلم ثم قال والدموع تكاد تترقرق في عينيه ارى يا سلمان ان الله قد اعدّ لنا ايام تعاسة لا تنقضي والظاهر ان نجم سعدي قد افل يوم خروجنا من البلقاء قال ذلك وتساقطت

الدموع من عينيه على الرغم منه

فتجلد حماد وقال له تشجع يا مولاي ولا تيأس فان الله لا يتركك ولا يهملك وانت انما تسعى في ما يأول الى رفع منزلتك رغبة في ارضاء فتاة انت تحبها وهي تحبك

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هنداً وحبها وما آنسه من ضعف الامل في الحصول عليها فلم يتمالك عن البكاء وسلمان ساكت لا يرى ما يعزيه به فقال له ان البكاء شأن النساء يا مولاي وعهدي بك حازم باسل لا تجزعك حوادث الايام فاصبر ان الله مع الصابرين

قال انا اعلم يا سلمان ان البكاء عار على الرجال ولكن الحب ٠٠٠٠٠ آه من الحب آه من ثعلبة آه من جبلة ٠ وسكت

فاخذ سلمان يخفف عنه ويؤمله بما سيسمعونه من الشيخ الخزاعي فسكت

الفصل الثامن والاربعون

﴿ اليأس ﴾

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان الى مر الظهران يطلب ذلك الخزاعي فعلم انه نقه من مرضه والتمس مقابلته فادخلوه عليه فاذا هو شيخ هرم قد احناه الكبر حتى ابيض شعر لحيته واسترسل على صدره وتجعد وجهه وغارت عيناه وغطاهما شعر الحاجبين ٠ فحياه سلمان فردّ التحية واشار اليه ان يجلس الى جانبه ففعل

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحته ثم استطرد الى خبر الفتح ثم عرفه بنفسه وما جاء من اجله فرحب به

فقال سلمان قد جئناك يا اخا خزاعة نستطلع امرًا يهمنا كثيرًا ولا نرى احدًا سواك يستطيع مساعدتنا فيه

فقال مرحبًا بك قل ما بدالك

قال نرجو ان يكون كلامنا سرًّا لا يعرف به احد سوانا

قال قل لقد وقعت على خزانة اسرار

قال نحن نعلم ان احدى ملكات غسان واسمها مارية اهدت الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئًا من ذلك

ففكر الشيخ قليلاً ثم قال نعم ياولدي اني اعلم ذلك

قال سلمان فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن

قال ان حكاية هذين القرطين قد اصبحت في خبر كان لان الكعبة قد هدمت وبنيت مرارًا بعد اهداء ذينك القرطين وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو اربعين سنة وبناها عبدالمطلب جدُّ نبينا صلى الله عليه وسلم الذي شاهدتم فتحه مكة امس وهو الذي تولى رفع الحجر الاسود حينئذٍ ووضعه في مكانه قبل ظهور دعوته ببضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة على من يحمل ذلك الحجر الشريف و يضعه في مكانه وحاولت كل قبيلة اكتساب ذلك الشرف لها فحكموا هذا النبي في ما بينهم وهم لا يعلمون شيئًا من كرامته فاشار بوضع الحجر في ملاءة واسعة واوعز الى كل قبيلة ان تحمل بطرف من اطرافها و بذلك انحسم الخلاف والخلاصة ان القرطين لا يعلم احد بمكانهما الآن

والارجح انها يعا الى احد المتجولين والبحث عنها يعدُّ من قبيل البعث

فتكدر سلمان لذلك الامر والتفت الى الشيخ قائلاً فهل تظن البحث عن القرطين عبثاً

قال هذا ما أراه على ان دخول الكعبة لمثل هذا الغرض امر مستحيل اليوم بعد دخولها في حوزة المسلمين

فانقبضت نفس حماد ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض فودَّع الشيخ وخرج الى حماد وكان ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما رآه استطلعه الخبر فاطلعه على حديث الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الاسف ولكنه اشفع حديثه بعبارات التعزية وامله بوسيلة يتخذها للتعويض عن هذين القرطين امام هند على ان ذلك لم يكن ليخفف شيئاً من قلق حماد

﴿ تمَّ الجزء الأوَّل ﴾



﴿ مؤلفات جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب ﴾

(١) ﴿ فتاة غسان ﴾ هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة قروش والبوسطة قرش ونصف

(٢) ﴿ ارمانوسة المصرية ﴾ (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد أهلها واخلاقهم وازيائهم · ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرشان

(٣) ﴿ عذراء قريش ﴾ هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان ووقائع الجمل وصفين والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرشان

(٤) ﴿ ١٧ رمضان ﴾ او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة ستون باره

(٥) ﴿ غادة كربلاء ﴾ تاريخية غرامية · وهي الحلقة الخامسة من الروايات التاريخية الاسلامية · تشرح حال الاسلام على عهد يزيد بن معاوية وما كان من مقتل الامام الحسين وما عقب ذلك من الحروب والفتن ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرشان

(٦) ﴿ الحجاج بن يوسف ﴾ هي الحلقة السادسة من هذه الروايات وهي تاريخية غرامية تتضمن حصار مكة على عهد عبدالله بن الزبير الى فتحها ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ثمنها عشرة قروش واجرة البريد قرش ونصف

(٧) ﴿ المملوك الشارد ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في أوائل القرن التاسع عشر على عهد المغفور له محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ثمانية قروش واجرة البوسطة قرش ونصف

(٨) ﴿ اسير المتمهدي ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق · ثمنها ١٠ صاغ واجرة البريد٣

(٩) ﴿ استبداد المماليك ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية أدبية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر ثمنها ثمانية قروش واجرة البوسطة قرش ونصف

(١٠) ﴿ جهاد المحبين ﴾ رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ قروش صاغ واجرة البوسطة قرش ونصف

(١١) ❊ تاريخ مصر الحديث ❊ من الفتح الاسلامي الى هذه الايام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه مائة رسم واربع خارطات ثمنه اربعون قرشاً صاغاً واجرة البوسطة ٥ قروش

(١٢) ❊ تاريخ الماسونية العام ❊ وهو تاريخ الجمعية الماسونية منذ نشأتها الى هذه الايام ثمنه عشرون قرشاً صاغاً واجرة البوسطة قرشان

(١٣) ❊ التاريخ العام ❊ الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر مزين بالرسوم ثمنه ثمانية قروش صاغ واجرة البوسطة قرش واحد

(١٤) ❊ علم الفراسة الحديث ❊ يبحث في استطلاع اخلاق الناس من النظر الى ملامح وجوههم وتركيب اعضائهم . وهو مؤسس على الاكتشافات العلمية الحديثة ومبني على العلم الطبيعي ويعلل بالنواميس الطبيعية في التشريح والفيسيولوجيا . وفي الكتاب ٧٠ رسماً جميلاً لتوضيح نواميس الفراسة مهما وثمن النسخة ١٥ قرشاً واجرة البوسطة قرشان

(١٥) ❊ الفلسفة اللغوية ❊ فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية على نسق لم يسبق اليه . ثمنها عشرة قروش واجرة البوسطة قرش واحد

(١٦) ❊ جغرافية مصر ❊ (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمنها وحدها ثلاثة قروش ومع الخارطة ٥

(١٧) ❊ ردّ رنان ❊ ردّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنه قرش واحد

(١٨) ❊ ملخص تاريخ الرومان واليونان ❊ مزين بالرسوم ثمنه ثلاثة قروش والبوسطة عشرون باره

(١٩) ❊ تاريخ انكلترا ❊ هو ملخص تاريخها ينتهي الى آخر الدولة اليوركية سنة ١٤٨٥ وفيه رسوم واشكال ثمنه ٤ قروش والبوسطة قرش

(٢٠) ❊ تاريخ التمدن الاسلامي ❊ الجزء الاول . يبحث في أحوال العرب قبل الاسلام وكيف نشأت الدولة الاسلامية مع وصف جندها وماليتها ومصالحها الخ وفي هذا الجزء ٣٢ رسماً وثمنه عشرون قرشاً واجرة البوسطة قرش ونصف

(٢١) ❊ تراجم مشاهير الشرق ❊ الجزء الاول وفيه تراجم امراء العائلة الخديوية ومن نبغ من الملوك والامراء والقواد ورجال الادارة السياسية في القرن التاسع عشر . صفحات هذا الجزء ٣٦٤ صفحة وفيه ٧٢ رسماً وثمنه ١٥ قرشاً واجرة البوسطة قرشان

وتطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال اوادارة الهلال بالفجالة بمصر

مكتبة الهلال

(١) يباع فيها جميع انواع الكتب من علمية وادبية ومدرسية وتاريخية وروايات وغيرها بالعربية والافرنجية من مطبوعات سوريا ومصر والاستانة واوربا ولها قائمة بأسماء الكتب تصدر سنوياً وترسل مجاناً لمن يطلبها

(٢) اذا رغب اصحاب المدارس او رؤساؤها في عقد اتفاق مع المكتبة على تقديم الكتب والادوات لزوم التلامذة سواء كان من مصر او من الخارج فيتم الاتفاق على ذلك مع مدير مكتبة الهلال بمصر بالفجالة بمصر

الف ليلة وليلة

صدر الجزء الثاني من رواية الف ليلة وليلة مزيناً بالرسوم مطبوعاً بنفقة ادارة الهلال منقحاً من كل ما يمنع الادباء والاديبات من مطالعته . وقد تفردت هذه الرواية بتمثيل العصور الاسلامية الوسطى في العراق ومصر والشام وعادات اهلها على اختلاف طبقاتهم من الملوك الى الصعاليك مع بيان آدابهم في مجالسهم واحاديثهم واعراسهم ومآتمهم ومعاملاتهم التجارية والنصائية والعائلية وسائر طرق معائشهم وثمنه عشرة غروش صاغ مثل الجزء الاول والبريد غرشان عن كل جزء بمكتبة الهلال بمصر

وسيصدر الجزء الثالث قريباً وكذلك الرابع

